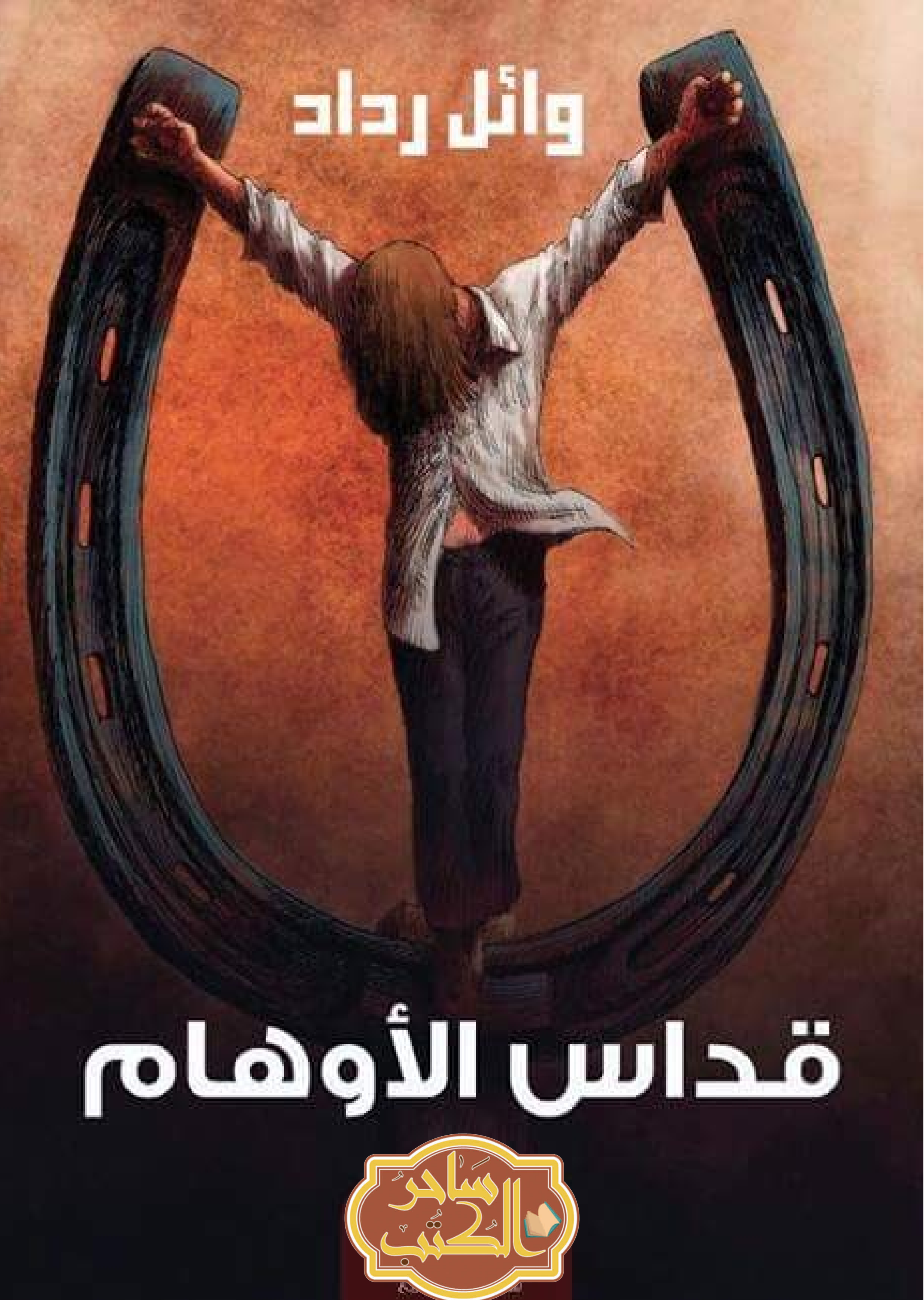

وائل رداد
قداس الأوهام
ساحر الكتب



رواية

قداس الأوهام

وائل رداد







قداس الأوهام

وائل رداد

الطبعة الأولى: يونية
1439هـ 2018م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دار الكتب المصرية

وائل رداد

قداس الأوهام

رداد ، وائل - القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2018

360 ص؛ 13,7×19,5سم - (قداس الأوهام)

تدمك 6-199 781-977-978

أ. العنوان

رقم الإيداع: 10284/2018

تدمك 6-199 781-977-978



دار سما للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة

تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+

email: samanasher@yahoo.com

Web-site: publishing@sama-publishing.com

التنفيذ الفني



دَرَجْ
للاستشارات وخدمات النشر

ali@daraj-eg.com



فداس الأوهام

وائــــل رداد


ساحر الكتب



أليس موكب جنازتي مُعَدًّا إذا كانت السماء والأرض

تابوتي وغطائي؟

والشمس والقمر والنجوم شعائري؟

والخلائق كلها تشيعني إلى قبري؟

جوانغ زي





مــرَّ كلبٌ حكيم ذات يوم بجماعة من الســنانير، ولمــا دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه، فوقف يتأملهم مستغربًا أمرهم..

وفيما هو ينظر إليهم، نهض من بين الجماعة سنورٌ سمين، تبدو على وجهه أمائر الهيبة والوقار، فنظر إلى رفقائه وقال لهم:

- "صلــوا أيها الأخــوة المؤمنون، فإنــي، الحق أقول لكــم، إنكم إذا صليتــم، وكررتــم صلاتكم بحــرارة، يُســتجاب تضرعكــم، وتمطركم السماء فئرانًا في الحال.."

فلما ســمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة، ضحك منهم في قلبه، وارتد عنهم وهو يردد في سره قائلا:

- "مــا أغبــى هؤلاء الســنانير، وما أعمــى بصائرهم عــن إدراك ما في الكتب، أليس مكتوبا، بل، ألم أقرأ أنا، وحدثني أجدادي القدماء: إن ما تمطره السماء، إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات، ليس فئرانًا، بل عظامًا؟"

المجنون - جبران خليل جبران





الجزء الأول

منقذ الحيوانات





الفصل الأول

بأذنيه الكبيرتين الغليظتين، تمكن (عماد) من سماع ما يدور رغم الصفير المؤذي المتردد داخل طبلة أذنه اليمنى..

تمدد على فراش متيبس أشعره ببرودة السيراميك المُصفر أسفله، وقد شبك أصابعه على صدره في وضعية الميت داخل تابوت، مُطالعًا ببصر ثابت سقف شقته المتشرخ، حيث أسراب النمل السود الداخلة والخارجة برتابة من فجوات عدة هنالك..

على يساره وعبر الجدار، كان ينصت لقصة تقليدية للغاية، مبتذلة للغاية، تتحدث مرارًا عن جارة تزوجت ولم تنجب، وهو ما اكتشفته منذ العام الأول لزواجها، فراودتها أفكار داكنة بشأن العاقر منكسرة الجناح مع عقدة النقص في المجتمع الشرقي القاسي، وهو أمر لا يعوضه شيء سوى الإنجاب حُبًا بالأمومة الفطرية، وخشية من فقدان



زوج لا يتـردد غالبـا في البحث عن أخرى – أصغر سـنا– لإنجاب ولدٍ له وحده، تاركا زوجته لمصيرها المعتم..

كانت مسـألة عقمها مقبولة لدى زوجها بادئ الأمر، لكن سرعان ما بـدأت الأمور تأخذ منعطفا كريهـا نتيجة ضغوط أهل زوجها عليه، فهُم – كمـا تبين لأذني عماد من ثرثرة جارته اللانهائية بشـأنهم– لا يريدون لولدهـم أن يُمضـي بقية حياتـه دون خلـف، وحاولوا إقناعـه بضرورة البحث عن زوجة أخرى لإنجاب ولي العهد الأسطوري الذي سيحمل اسـم العائلة المشـرف فرفض، لكن هذا لم يمنعهم من تشويه صورتها فـي ناظري الـزوج، فتغيـرت معاملته لهـا، وصار الصراخ والشـتائم – وأحيانـا الضرب– طقوسـا يومية بينهما، واضطـرت فيما بعد للرضوخ وتقبل الإهانات، لأنها ببسـاطة لم تتقبل فكرة وجود ضرة وضرة منجبة أيضا، كما إنها ارتعبت من فكرة المطلقة المعتكفة في منزل أسرتها..

كانـت لا تـواري بحقد تفكيرهـا بصوت عال أحيانا فـي الحكاية لو باتت معكوسـة ليصير زوجها هو العقيم، هل يتعرض لنفس حالها؟ ثم تقـوم بالتخلـي عنه دون نقد هدام من المجتمع السـفيه الذي سـيتهمها بعدم الإخلاص والوفاء له؟

تثرثـر بذلك كله لنفسـها كالمخبولة أو كالمحمومـة لجارة زارتها.. زوجها يعمل في تراخيص إدارة المرور، ولم يكلف نفسه عناء استخراج رخصة سـواقة لها كي يسـهل عليها درب المدرسـة كونهـا تعمل هناك



معلمـة للمرحلة الابتدائية، فقـد اتهمها أنها غير جديـرة بالقيادة أصلا، بإمكانها دهس سائر المشاة على الرصيف، وصدم كل السيارات ببلادة وتنبلة، وعليه، فسيكف ذلك الأذى المستقبلي عنهم..

هكذا، تحولت إلى كيان فارغ ناقص كثير الاضطرابات النفسية، وقد حاولـت الانشـغال بالتدريس كي تعوض كل النقص والفراغ ومشـاعر الأمومة المفقودة، فلم تفلح للأسف..

كانت تشـعر أنهـا قد جُردت مـن كل مزية لهـا كامـرأة، وعليه، فقد قررت أن تسترد كرامتها بالانتقام..

❊ ❊ ❊

وعلـى يميـن (عماد)، أنصـت لقصة قد تكـون أكثر تقليديـة، لكنها مثيرة بعض الشيء في بعض تفاصيلها، تتحدث عن جار تزوج وأنجب ولـدًا من أكثر الأولاد عقوقـا، زوجته ربة منزل نكديـة ذات بدن منتفخ مقزز، تعصب رأسها طيلة الوقت بربطة ملونة كالقراصنة..

الولد يشـتم دائما ويصـرخ بأعلى صوت، ثم يغادر مسـرعا محطما شـيئا مـا في طريقه، ووالدتـه تلعنه وتلعن والده الخامـل، تأمره بتأديب ولده، فيرد النسل إليها مذكرًا إياها أنه ولدها هي، كأنما أنجبته بمفردها..

ولكي يتناسـى الوالد همومـه معهما، عاقر الشـراب بالغالونات في شقة صديقه (كيروز) بائع العرق السري، وتسليا ب"المزة" أمام التلفاز



العريض الذي يعرض قنوات إباحية مشفرة عن طريق جهاز «رسيفر» مستورد..

(كيروز) الأمي الذي لم يُحصِّل شهادة الابتدائية حتى، فشل في الحصول على أي عمل، وكانت زوجه هي التي تدفع إيجار الشقة من عملها كخياطة، تركته لدناءته ولعدم كفه عن ضربها والصراخ بأن والده قد فرضها عليه، فهي ابنة عمه..

صاحب علاقات نسائية لا تحصى، في يوم دعاه "يوم السعد"، تزوج عرفيا من طالبة جامعية تسبب في حملها عرضا، ثم أجبرها على الإجهاض عقب الزواج، وبعدها، ابتدأ عملية ابتزاز عنيفة مارسها بلا هوادة على الفتاة ميسورة الحال، من تلك العملية الجهنمية، كان (كيروز) يجد قوت يومه لغاية اليوم.. إلى جانب بيع زجاجات العرق بالسر طبعا!

هذه هي حكاية (كيروز) باختصار.. وقد تمكن (عماد) من جمع المفيد منها بمجرد الإنصات لما يدور في شقة الرجل العلوية، من ثرثرة أغلبها سخرية ما بين الصديقين على حالهما..

أما حياة جاره (مرتضى) – على اليمين –، فنموذج لآلاف الأسر المتخمة ميزانيتها الشهرية بالعديد من الفواتير واجبة السداد، حياة مُسخرة لتلبية آلاف الالتزامات.. يحسب ألف حساب لقدوم أول



الشـهر، لأنـه يعني أن أوان السـداد قـد آن.. كهرباء، ماء، غـاز، هاتف، بقالـة، خضراوات، جـزارة، دروس خصوصية للولد الخائب، أقسـاط المدرسة، إيجار البيت، الضرائب على ذلك كله..

إدارة الفواتيـر بحاجة لخبير مالي محنك، وحتى هذا الأخير سيشـد جذور شعر رأسه مقتلعا إياها قبل أن يقضي نحبه هما..

ثـم بدأت الأحـلام الوردية، فـي عصر فاقـت فيه احتياجـات الفرد كل الحـدود.. السـلع المغريـة، السـيارة الفارهـة والمحمـول المزود بكاميرا تصوير ويتسـع لعشرات التطبيقات، الزيادة المستمرة للأسعار، الاحتياجات المتزايدة، تزايد المغريات، ارتفاع السـقف الاسـتهلاكي، الرغبـة باقتنـاء سـلع لا يمكن دفع ثمنها مـرة واحدة، الرغبة الشـهوانية للامتلاك كباقي البشـر، سجائر مستوردة، ثياب جديدة وغالية مع أزرار أكمـام فضيـة أو مذهبـة ذات نقوش تحمـل الأحرف الأولى للأسـماء بالإنجليزيـة، لحـم ضأن ودجاج مقلي و"لوبسـتر" مغلـي كل يوم، مع سـلطة فواكـه و"غاتوه" بكريمـة الفانيليـا البيضاء للتحليـة، عوضا عن الكنافة البرتقالية الشعبية الخشنة الغارقة بسيول القطر الثقيل..

حيـاة (مرتضى) سلسـلة مـن الفواتيـر المتعاقبـة، أكثر من عشـرين فاتورة شهرية عليه سدادها، بعضها مصاب بداء التضخم اللعين.. صار الاقتـراض مهمـة عسـيرة وهامة ومن مقتضيـات الحياة، زيـادة الأعباء



مع ارتفاع الضغط والسكري، والقلق والخوف والحمى بسبب كثرة التفكير المهموم بالغد الكالح..

❋❋❋

لاحت في بصر (عماد) نظرة باردة، وبرتابة، خدش بأظافره الطويلة الشبيهة بمخالب الأرضية جواره إلى أن اسودت، ثم رفع أظافره إلى فتحتي أنفه متشممًا، فوجد رائحة الكبريت لا تزال عالقة، إذ اعتاد إشعال سجائره بأعواد الكبريت منذ المراهقة، فظلت الرائحة متشبثة بأظافره وأنامله كاللعنة الأزلية..

أنصت وبوضوح تام للأزيز الكريه نتيجة لخدش الأرضية الذي بإمكانه أن يودي به، لولا قيامه بتعويد أذنيه على الإنصات له كنغمة موسيقية سمجة..

لم تكن تلك القصص الدائرة حوله تثير أدنى اهتمامه، كان يمقتها كمقته لمشتقات الألبان والثوم وضوء الشمس.. المعلمة الحامل في الشهر الثاني المصابة بغثيان وتتقيأ طيلة الوقت ولا تعلم ما إذا كان بإمكانها الصيام أم لا، الموظف الأربعيني البسيط صاحب المرتب الضئيل الذي يعول أسرة مكونة من ثمانية أفراد، المريض الأزلي الذي يُعالج دائما بغسيل كليتيه أكثر من مرة في الأسبوع، ويبحث عن فاعل



خير يتبرع له بمبلغ عملية زرع كلية جديدة، تلك القصص كانت تثير جنونه..

ذات مرة، سمع بقصة تتعلق بقيام شركة أغذية كبرى بدعم مؤسسة إنقاذ النسر الفلبيني من الانقراض، إذ انخفض عددها من مئتي نسر إلى ثلاثين نسرًا فقط نتيجة لحرق الغابات الاستوائية المطيرة في الفلبين..

تلك القصة أثارت اهتمامه بأكثر مما صنعت القصص المحيطة به مجتمعة، خصوصا وأنهم أطلقوا على أول نسر يفقس في الأسر في مدينة "دافاو" الفلبينية اسم "باغاسا"، ويعني الأمل!

في يوم من الأيام الغابرة، كان قد استشعر الإثارة يوم اكتشف بأن واحدة من الحواس الخمس التقليدية لديه مخالفة لما هو مألوف لدى البشر، مقدرته على الإحساس بالاهتزازات عن طريق الأذن فاقت كل بشري، ولم تعد حاسة السمع لديه مجرد عملية بشرية اعتيادية، تبدأ بالصوت المنبعث وتنتهي بالمرور عبر طبلة الأذن..

كان بإمكانه الإنصات بدقة، ليس لدرجة سماع دبيب النملة، ولكن لما يدور من وراء الجدران وبكل وضوح، فبات معجزة سرية متنقلة..

وعلى عكس كثير من البلهاء الثرثارين الذين يهرعون – فور الكشف الرهيب– إلى ذويهم، أو للصحافة، أو لبرامج المواهب الترفيهية كي يتحولوا إلى طرفة من الطرائف، كآكل الزجاج، وعازف "الهارمونيكا"



مـن منخريه، والرجل الذي يثنـي العملة المعدنية بجفنه أو يجر الحافلة بلحيته، تمكن (عماد) من كتم تلك المقدرة الإلهية التي رافقته يومئذ..

ثـم تراءت نظرة حانية شـاردة فـي بصره لما راوده ما يشـابه الرؤى، حول ذكريات اكتشافه خطوط أقداره التي قام بتغيير مجراها للأبد..



الفصل الثاني

لم تلفت تلك اللوحات الملطخة نظر (عماد) يوما..

كانت مجرد مشاهد حياتية ذات رتابة خانقة بالنسبة له، وارتبط تبدل الطقس لديه أربع مرات بالمشاعر البشرية الثلاثة التي لا يدرك سواها.. ضحك، غضب، حزن..

بالنسبة للشعور الأول، يكاد (عماد) يقسم أن الكل فقد ميزة وأسباب الضحك بأسرها، حتى الصغار كفوا عن الضحك منذ مدة طويلة، لمح عددًا من الابتسامات لكنها تشي بالمرارة فحسب، لا توجد سعادة حقيقية تستوجب الضحك بصفاء..

لم يقم باحتساب ضحكات الأطفال الأشقياء الذين ينفذون لهوًا تخريبيًا بقصد الإيذاء، كره تشبيههم ب»الملائكة الصغار»، وقطعا كره



نعتهم بالحيوانات التي يراها أرفع شأنا، خصوصا وأنهم يعشقون إيذاء جميع أنواعها، فلم يرحب سوى بتشبيه «الأبالسة الصغار»!

وحتى الرجل الذي سمعه (عماد) بوضوح وهو يتلقى التهنئات المتجهمة من أقرانه بمناسبة مولوده الأول لم يكن سعيدًا بتاتا، فكان أن رسم على شفتيه بسمة عابسة رافعا سبابة مُسبحة بالحمد.. لسان حاله يقول: "كيف يتأتى لي الإنفاق عليه؟ قد أتى في غير ميعاده!"

لكن عمادًا لم يشفق على حاله، رمقه بازدراء متسائلا عن الميعاد الأنسب للإنجاب إذن والأسباب التي تدفعهم للزواج.. الجنس؟ هو تمكن من السيطرة عليه منذ زمن كراهب بوذي يهوى التأمل أسفل شلال ثائر بارد المياه.. صحيح أن العادة السرية ليست حلا جذريا، ولا حتى حلول جدته المشعوذة كوصفة قطف البابونج فجر عيد القديس يوحنا، وشرب نقيعه على الريق كون ذلك يبعده عن الزنا لعام بأكمله، الجموح الجنسي تولد لديه كسائر الخلق في سائر أعضائه الحسية، وكديدنهم بحث في الملذات السرية تلبية لنداء الحاجة، خصوصا وأن المحيط من حوله بدا متعنتا لدرجة لا توصف حين يتعلق الأمر بتلك الحاجة المُلحة، ضغوطات بيئية هائلة صدرت عن العائلة والمدرسة بضراوة وبصورة أخف في الشوارع، مشاكسات ثقيلة الوطء أشعرته بلهيب قاس في الظل المهمش..



في الصغر، مازحته والدته حين سألته عن مواصفات «فتاة الأحلام“ لديه، فقال لها مهموما:

- «لن أتزوج.. نهائيا!»

فضحكت وهي ترد عليه:

- «أنت حر.. أنت الخاسر!»

وحين كبر لم تمازحه، سألته بجدية وبسحنة مكفهرة هذه المرة، فكرر إجابته القديمة بإصرار وبرودة:

- «قلتُ لن أتزوج.. نهائيا!“

فجن جنونها، وشتمته في طريقة تفكيره وحتى في رجولته، الكل يطلب الزيجة، فلِمَ لا تصنع مثل الأشخاص الطبيعيين؟ فلم يرد، فكر فقط في أنها قد حاولت نزع رداء المصداقية الذي لطالما حاول التشبث به!

ولكن، كانت هنالك طريقة جيدة دفعته لتناسي بلبلة الجنس التي لا هوادة فيها، وذلك حين اقتنى (جيبسي)..

في صغره، كتب لائحة بكل الأشياء التي يرغب باقتنائها أو بفعلها، ومن ضمن تلك الأشياء تصدر اقتناء كلب لائحته..

كانت هنالك جارة طفلة شقراء تسخر بطريقة محببة من أذنيه الغليظتين كتبت لائحة مماثلة أسرت بها إليه قبيل رحيلها النهائي عن



حياته، وقد احتلت رغبتها باقتناء مهر المركز الأول في لائحتها، ولربما كان السبب هو عشق الفتيات الفطري للخيول، لكن (عماد) رجح الكفة لتلك الحكاية العجيبة التي سردها والدها عليهما، في أمسية انتهت بوجبة عشاء جماعية بمناسبة سفر تلك العائلة اللطيفة في اليوم التالي إلى ألمانيا للعيش هناك بصورة نهائية..

تدور الحكاية حول حصان أشهب من الإسطبلات الملكية الأردنية، كانوا يستخدمونه في لعبة "البولو"، وقد أطاح ذلك الحصان بالجوكي الخاص به ولاذ بالفرار منه ومن التدريبات القاسية التي أجبره عليها وأصابته بكدمات مؤلمة في ساقه، فقصد الشاطئ، وسبح مئات من الأمتار في مياه البحر الأحمر غربا، حتى بلغ ميناء "إيلات" المحتل في تلك الحقبة، وهناك، استولت عليه الحكومة الإسرائيلية!

كانت حكاية حقيقية وعجيبة، وحين يتذكرها (عماد) في الوقت الراهن يشعر برغبة في الضحك لسبب هو نفسه يجهله!

بالنسبة ل(جيبسي)، فقد كان كلبا من نوعية "جيرمان شيبرد"، ومنذ يومه الأول انطلق بمرح جرو عفوي داخل المنزل، مما أدى لتحطم فازة قبيحة وهامة من البورسلين، فطردته والدته وحرمت دخوله من الآن فصاعدًا..



ثم أصيب شقيقه الأصغر بحساسية مفرطة في جلده، وذلك إثر تربية (جيبسي) في حديقة المنزل، وخروجه أحيانا للهو معه رغم اعتراض صاحبه..

وحتى عندما ذكر الطبيب سبب تلك الحساسية، رفض (عماد) وبشدة التخلي عن كلبه قائلا بعناد:

- «شقيقي هو السبب، وإذا أراد ألا يتعرض للحساسية فليبتعد هو عن (جيبسي)!»

ثم أردف بتصميم:

- «إن (جيبسي) لكلب طيب، وهو لا يؤذِ أحدًا بقصد، فما بالكم بغير قصد؟»

❊ ❊ ❊

استقبله الطبيب البيطري بعد أن ظل مدة جالسا في غرفة الانتظار متصفحا بعض مجلات الموضة الأنثوية، قبل أن تدخله الممرضة مع (جيبسي).. مسح الطبيب على رأس الأخير متفاديا لسانه الذي يتقاطر لعابا كإسفنجة مبلولة، ومتسائلا عما هنالك..

أطلعه (عماد) على المشكلة.. (جيبسي) يا دكتور لا يأكل، بتاتا! ويخيل إليّ أنه منطو وحزين لأبعد الحدود، لا يتحرك بحماسة الكلاب



ونشـاطها المعهود إلا لو زارنا ضيف، يسـكت حينا وينبح بجنون حينا آخر..

ليس هذا فحسب، إن كلبي (جيبسي) يلهو مع القطط بطريقة عجيبة تبدو شـاذة للغاية، ينام معها ليلا بدعـة تارة، ويحاول تارة أخرى خنقها بالعض على أعناقها أو نتف فرائها بمخالبه..

- «قد يصير وحشا يترقب زهق الأرواح!»

كذا أضاف بسحنة مكفهرة..

هـل يمكن أن يشـعر الإنسـان بالكلب؟ وهل بالإمكان أن تتسـاوى حياة الكلاب مع حياة البشر؟ في تركيا يؤمنون بذلك!

فكما يوجد في عالمنـا المدلل والمضطهد، يوجد ذلك في عالمهم أيضـا.. ولكن ليس بالنسـبة لقطط وكلاب الشـوارع هنـاك، فهي الجنة بالنسبة لها، لن تجد هناك قطا مفقوء المقلة، أو كلبا راقدًا بثلاث سيقان أو بذيل محترق!

هـي حكايـة خارقة للعـادة أو مـن حواديت ألـف ليلة وليلـة عندما يتعلق الأمـر بالعوالم الإسـلامية المتجهمة، كحكايـة مدينة "الخليل" الفلسطينية التي لا يجوع فيها أحد على سبيل المثال..

تمتم الطبيب معاودًا تفحص الكلب:

- «وقد يكون متضايقا من الوحدة فحسب!»



فكـرة ابتياع رفيقة لـ(جيبسـي) لم تفارق ذهن (عمـاد)، لكنه ماطل متحججـا ببحثه المتمهـل عن رفيقة مناسـبة ونظيفة مـن ذات فصيلته، وسعرها يناسب جيبه وهو الأهم!

يقول الطبيب البيطري باسما لطرافة ما سيقوله:

- «هنالك كلاب ينتابها الضجر، فتجدها تستمتع بمشاهدة محطات التلفاز تماما كالبشـر، لدرجة تدريبها على اسـتخدام جهاز التحكم عن بعد "ريموت كنترول"! أتعلم أن ثمة سلسلة فنادق ذات رفاهية مفتوحة للكلاب؟ وكذلـك جمعيات للدفاع عن حقوقهـا؟ إلى جانب عيادات خاصة؟

ناهيك عن جوازات سـفر خاصة بها.. الكلاب تتحول تدريجيًا إلى بشر!"

«الكلاب أفضل من البشر»! كذا فكر (عماد)..

ويستكمل الطبيب حديثه وهو يخلع نظاراته عن مقلتيه:

- «سـمعت بحكاية كلب «ميلانو»؟ في تلك المدينة الإيطالية كلب أسـود يسـتقل بلا صاحـب الحافلة رقـم ٥٤ وبصورة منتظمـة، وذلك لزيـارة حديقـة المدينة، وهو يسـتقل الحافلة في حال راقه السـائق وإلا لبـث بمكانه، فإذا صعد على متن الحافلة أخيرًا نزل في الحديقة لقضاء سويعات فيها، قبيل عودته لمحطة الحافلة مجددًا!"



راقت تلك الحكاية لعماد وبشدة.. وتمنى لو نعم (جيبسي) بركوب الحافلات وارتياد الحدائق بسلام.. بلا متاعب من البشر..

كان كلبه عبارة عن مجموعة متراكمة من المتاعب، ليس بآخرها استئصال خصيتيه درءًا لإصابته بالسرطان..

فعندما كان (جيبسي) حيوانه الأليف طاردته سلسلة من المشكلات، بدأتها حساسية شقيقه الأصغر..

ومن ثم أتت الشرطة..

بدأت أعراض عصبية على (جيبسي) - وهو ما نجم عنه عملية الاستئصال لاحقا-، فهو ينبح بخبل كلما رأى شخصا غريبا، هو كلب مسالم حقا لا يهاجم أحدًا، لكنه ينبح بجنون صاخب إذا ما أبصر شخصا غريبا يمر من أمامه..

هكذا، أرعب ضيوف ذويه، وبالذات صغارهم الأبالسة، هنالك من قاطعوا زيارتهم كون: «الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة أو تماثيل أو كلب"، وقد أتت الشرطة عقب شكوى تقدم بها الجيران، فهم خائفون على أطفالهم الأوباش الأشقياء..

كان الحوار ما بين (عماد) ورجل الشرطة مخزيا لحد بعيد، خصوصا وأن الرجل البدين صاحب النظرة الخاملة تطرق لأمور لا شأن لها مطلقا بالموضوع الذي أتى لأجله:



- «لمن هذه المنجرة الملاصقة لداركم؟»

المنجرة الملاصقة لدارهم.. منشارها الكهربائي يعمل طيلة اليوم مُقطعا الخشب اللازم للأبواب والأثاث، وأحيانا لمحملات الأكفان..

بسبب ذلك المنشار انتابه الأرق، وحتى عندما لا يعمل، يسمع صوته مضاعفا عبر أذنيه وبين أروقة دماغه..

والغريب أن الجيران لم يشتكوا يوما من ضوضاء المنجرة!

- «يمتلكها والدي، أحيانا أساعده..»

- «تبارك الله.. اعلم يا بني أن ابن آدم إلى زوال، فإن استطعت استعراض ما حباك الله به اليوم من هبات فلن تستطيع ذلك غدًا، وسينتهي بك المطاف ذليلا مشردًا ترتكب الأفعال الشائنة، فاجعل أملك بالله دائما، وكن على يقين من أنه مقسم الأرزاق على عباده..»

- «آمين!»

كذا ردَّ زميله الهزيل بخشوع تبدى مصطنعا!

تفكر (عماد) بتلك النوايا الحسنة التي تظل عادة صفحة مخفية وغيبا محجوبا في الضمائر، ولا يدري سوى الله حقيقة الدوافع المستترة وراء انتشار ظاهرة الخير الاستعراضي سواء بالمال أو باللسان، ومن ثم قال متصنعا التأييد هو الآخر:

- «ونِعمَ بالله..»



- «ما اسمك يا بني؟»

- «(إدريس)..»

- «(إدريس) ماذا؟»

- «(إدريس أحمد)..»

- «مسلم يا (إدريس)؟»

تبسم (عماد) لحماقة الرجل الواضحة مجيبا:

- «ولله الحمد..»

- «الحمد لله حمدًا كثيرًا.. صليتَ العصر يا (إدريس)؟»

- «صليت..»

- «في المسجد؟»

- «لا..»

- «ألا تواظب على الصلاة في المسجد يا (إدريس)؟»

- «لا..»

- «ألا تخجل من نفسك يا بني؟ الصلاة عماد الدين، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد، والملائكة لا تدخل بيتا فيه لوحات أو تماثيل أو.."

- «أو كلب.. أعلم ذلك!»



- «إذا كنت تعلمه فلماذا تفعله؟ هذا حرام يا بني!"

ذكر الشرطي الهزيل المرافق للبدين شيئا عن وجوب قتل الكلاب في الإسلام، فسارع البدين إلى تأييده مرددًا كلاما مبتذلا عن العفاريت التي تتنكر على هيئتها.. ما يعرفه (عماد) أن الإسلام نهى عن قتل الكلب، وعده ذنبا جسيما - اللهم إلا لو كان مسعورًا-، لكنه سمع محاذير عن الكلب الأسود الذي يحمل بقعتين بيضاوين فوق مقلتيه لأنه عبارة عن شيطان متنكر!

جدته المخرفة رددت كلاما مشئوما عن نذالة الكلاب وخستها، كما سردت قصصا عجيبة عن التهام الكلاب للحوم البشر، لدرجة نبش القبور والتهام بقايا الموتى!

في العديد من البقاع الآسيوية والغربية، تجد للكلب كرامة وحكايات لا تحصى عن وفائه وإخلاصه، أما في البقاع العربية فهو خسيس نذل، يلتهم لحوم الموتى، ويترك العفاريت تتلبسه أو تتنكر على صورته!

سأل مرة شيخا كان يثق بآرائه إلى حدٍ ما، فرتل الشيخ الآية ٢٥ من سورة المعارج التي تقول: ((والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم))

قال الشيخ بأن المقصود من المحروم في الآية هو الكلب!



أحب تلك المعلومة التي استقاها من أسطورة صينية، والتي تؤكد أن للكلب سبع حيوات، تماما كما للقط سبع أرواح!

كل تلك المعلومات جميلة وقد تكون مفيدة، لكنه لم – ولن- يجادل الشرطي السفيه وزميله الأبله..

عموما، رحل الشرطي مع زميله مكتفيا بتهديد مخفف.. إذا اشتكى جيرانك مجددًا فسنرسل البلدية لأخذ كلبك..

كما طلب منه الالتزام بصلاة الجماعة في المسجد!

في حين، راقب (عماد) رحيلهما بسخط، مرددًا العبارة التي قرر حملها معه للقبر:

– «مناجاتي الذاتية مع الله لهي أصدق من صلوات الرياء خاصتك.. يا أحمق!»



الفصل الثالث

وضـع (عماد) كلتا يديه على المقعد الجلدي العريض، ونفذ ببصره من خلال زجاج النافذة المستطيل الملوث بآلاف البصمات، كي يهرع به بعيدًا عما يدور بالداخل..

كان ممن يطيلون النظر إلى بقعة بعينها لمدة قد تطول لثمان وأربعين دقيقة أو أكثر قليلا، دون التزحزح قيد أنملة، ودون أن يطرف له جفن..

أحيانـا يحلـم أحلام يقظـة مبهمة، غالبيتهـا في عوالـم غائمة أقرب للسريالية الباهتة، حيث يجد نفسه يخوض مياه نهر أصفر وهو راقد في طوف عبارة عن تابوت من خشب السنط، وقد طلي بالذهب من طرفيه الداخلي والخارجي، ومسانده كذلك سنطية ومعشقة في حلقات ذهبية بدورها مصبوبة بجوانب التابوت..



هندامه الذي طغت عليه الزرقة لا يليق به، يظهره كمشرد مبعثر الهيئة عثر على تلك الثياب في حاوية للمهملات، فارتداها اتقاءً للبرد أو درءًا للعري، والأسوأ هو لحيته وشاربه غير المشذبين، بالإضافة إلى شعر كفروة خروف أسود جالب للنحس..

كان ممن يحلمون أو يشردون بذهنهم بعيدًا، يرتحل بذاكرة مصطبغة بمزيج من القاتم والداكن إلى مجرة شحيحة بالبشر، يتذكر والده المسلم ووالدته المسيحية وطقوسهما التي كادت تفقده اتزان عقله، والسبب أنهما – اللعينان– قد أحبا بعضهما..

في الصغر، طلب منه والده أن يصلي أمامه، وصفعه حين اكتشف أنه لا يحفظ سوى الفاتحة وبشق الأنفس، في حين، أمرته والدته – بلا ضرب– أن يقرأ صفحة على الأقل من الإنجيل قبل النوم، زاعمة أنه يحوي قصصا مثيرة..

أسمياه عمادًا بالتوافق لما ولد يوم الجمعة المباركة حسب زعم والده، ويوم الأحد المبارك حسب زعم والدته، لم يمتلك والده حكاية مسلية بخصوص الجمعة ولِمَ هي مباركة بالضبط، فقط هي جمعة مباركة لسبب ما يجهله، أما والدته فكانت لديها تلك الحكاية المسلية نوعا عن مواليد أيام الآحاد، وكيف يُعصمون من وقوع الشرور عليهم لأنهم في حماية الرب، حيث يمنحهم مقدرة خارقة تمكنهم من مقارعة الأرواح الشريرة، والانتصار عليها بلا تمائم..



بعيـدًا عن كل تلك الترهـات، ما يدركه كحقيقة موثقة بأنه أقبل على الدنيـا فـي ليلة مـن ليالي مايـو الهلال الخصيـب، وإثر عمليـة قيصرية منهكة إنقاذًا لحياته عقب التفاف الحبل السري حول عنقه..

(عماد).. الأب وجده اسـما عربيا أصيلا لا تشـبه شـائبة، خصوصا وأنـه مذكور في القرآن في سـورة الفجر، والأم – التي اقترحت الاسـم هربا من اسـم زوجهـا المقترح (إدريـس)- قصدت به غسـيل المولود المسيحي بمياه المعمودية..

بالنسـبة له، فلقب «عداس» كان أكثر ما أحبـه في كل الموال اللعين الحاصـل، كونـه يحـب العـدس أولا – لـولا إدراكه للمعنـى الحقيقي لاحقا وهو "كثير الترحال"-، لأنه يعكر مزاجه بطريقة كيميائية سحرية عقـب الانتهاء من تناوله، وثانيا لتهيـب جدته المخرفة من أكلة العدس والإفراط بتناولها..

– «إيـاك وعض شـقيقك بنابيـك اللعينين لـدى انتهائك مـن تناول العـدس المقرف! فهو ينقلب سُـمًا فتاكا في اللعـاب عقب هضمه، كل من يعض أحدًا عقب أكل العدس يُميته خلال ثلاثة أيام!"

إذن، فلديه سلاح فتاك يقتل كالأفاعي كونه ووالده يحبان العدس..

يهدد شقيقه بألا يمس (جيبسي) بسوء وإلا عضه عقب أكلة عدس بنابيه



اللعينين، ولربما يفعل والده – الذي ورَّثه طول الأنياب– ذات الشيء مع والدته التي ورَثت بعض الخرافات من عقل والدتها المخرف..

وحين عضه أخيرًا عقب مشاجرة وقعت بينهما بسبب استخدام شقيقه لدراجته دون إذن منه، تبدت العضة داكنة ومخيفة لدرجة عرض الصبي المتألم على طبيب، وقد فحصه الأخير شاكا بأن حيوانا قام بعضه، وأكد أنه لو انغرست الأنياب أكثر لاخترقت دون شك وريده، وبكل سلاسة!

عقب العضة المفترسة، تنفس (عماد) بعمق مرات عدة، وقد شعر بسكينة تسري في عروقه مع تحسن حالته الذهنية أكثر، فبدا متقبلا للعقاب الآتي لا محالة دون توجس أو تبرم.. لطالما هدده والده بالحزام الجلدي الأسود كما لو كان حزام لاعب كاراتيه شرس، لكن العقاب هذه المرة مرحب به ما دام قد داوى بعضا من غليله مع شقيقه المستفز..

جدته نفسها كانت تهدده بأشياء جدُ غريبة، إذ تلوح بكيس قماشي ضئيل أمامه قائلة بازدراء:

– «أتعلم ما بداخله؟ إنه حبلك السري! أجل! لقد احتفظت به! أتعلم ما سأصنع به؟ سأطعمه لكلبك اللعين كي يستسيغ مذاق أحشائك، وبذلك يعضك يوما.. ولربما يفترسك كذلك كي يريحنا منك!»



كانـت امـرأة – إلى جانب قبحهـا– مخبولة بالفعل، وقـد زاد نفوره منها عقب ذلك التصريح الشـنيع الذي يناسـب مشـعوذة لا جدة! بحق السعير.. كيف تحصلت على حبله السري؟

والـده وسـيم، والدته جميلة.. لكنـه احتقر قصة غرامهمـا، ازدراها رغـم إن والـده سـرد مقتطفـات منهـا بتأثر واضـح.. تحـدث عن ولع الشـعراء القدامـى بالتغـزل فـي ذوات البشـرة ناصعـة البيـاض، «رداء حسن» كما يقول أو كما يقولون.. على عكس المطربين الذين ينتحبون بمواويـل رديئة عن السـمراء المتداولة، واتخذ مـن)كارم محمود(و) فهد بلان(و(نجاح سلام) أمثلة، ثم شتم كل مطرب عربي جاهل قصير النظر تغزل بفتاة سمراء..

شـقيقه الأصغـر جاء ليزيح عـن كاهلـه اهتمامهما الزائد به لحسـن الحـظ، ولكي يظفـر كذلك باسـم (إدريـس).. وعقب حادثـة العض، انتابتـه الرغبـة لتكرارها عدة مـرات، خصوصا وأن شـقيقه لم يتعظ من المرة الأولى، فكان يردد لنفسـه وهو يتحرك بعصبية وسـرعة مستذكرًا الحزام الجلدي الأسود:

– «اخـرج من منـزل الهموم، ابتعـد عن مصدر الإغـراء، اذهب في نزهـة على الأقدام أو اركب دراجتـك المتهالكة، وانطلق نحو منطقتك السرية المفضلة في الخرائب!»

***



- «أين أخذتك أفكارك؟»

نظر (عماد) للشـخص الذي كان يجالسه، فتأمل سحنته الداكنة، ثم أطلـق تعليقا قصيرًا عن مدى احمرار شـفتيه دافعا إياه لإطلاق ضحكة مجلجلة..

ثم سأله بجدية:

- «هل بإمكانك دفني؟»



الجزء الثاني

نهر الموتى





الفصل الرابع

مَسَّ (عوال شاني) أطراف أنامله الداكنة محاذرًا أن يشبكها ببعض، وطفق يتأمل أظافره المقلمة ببصر غير شارد..

كانت تلك عادته كلما افتتح محادثة.. تلك، ومسح صلعته الملساء البراقة براحة يده اليسرى المزينة خنصرها بخاتم من حجر الأوبال الملون، كأنما يتفقد تسريحة شعر لا وجود لها، رأسه بأسرها شبيهة ببيضة نعامة مصبوغة بالكستنائي الداكن، فتجد ارتداءه كذلك بذلة فاحمة منظرًا باعثا على الكآبة والتشاؤم..

ثمة عادة أخرى لديه، وهي إضافة قشر البيض المبشور لقهوته، يقوم بتقشير البيض وطهو القشر لمدة ربع ساعة، ومن ثم يضيف المسحوق لكمية البن أثناء تحضير القهوة، فيظفر عندئذ بمذاق له نكهة فريدة من نوعها..



لـم تكن حياة (شـاني) المهنية مضبوطـة على الإيقـاع الذي يحبذه كقهوته، لم يفكر وبكل تأكيد بسـبل مفروشـة بالورد، أراد سـبيلا وعرًا متعرجـا لا يخلـو كذلك مـن ورود – ذات أشـواك- بالإمـكان قطفها، ولكـن، أن يكـون السـبيل بتلك الوعورة وتكون أشـواك الـورود بتلك الحِدة؟

لـم يكـن يتفكر أو يسـتحضر ذكريات كثيـرة، دفنها مـرارًا في حفرة النعامـة في أعمق أعماق مؤخر رأسـه، كي لا يستشـعر الوخز المعذب الشـبيه بوخـز إبر الحياكـة في بطيـن القلب مـرارًا وتكرارًا بـلا هوادة، خصوصا حين تصير الأقصوصة الحياتية بتلك الصورة هائلة الابتذال.. أب عربيـد، أم ممزقـة الشـفاه متورمـة العيـن اليمنـى يومـا ويومـا آخر اليسرى، إثر لكم وركل زوجها المتكرر لها بتسلسل زمني شبه دقيق..

حين قدم للمدينة من قريته تأمل العالم من حوله بمقلتي الاستغراب والانبهار، كأبناء جحا حين زاروا المدينة..

ولكـن عقب مدة زمنية قصيرة من التعود مع فسـحة من التأقلم، شـعر بالاشـتياق لأجواء القرية، وانتابته مشـاعر جديدة شـديدة الاختلاف عن تلك التي حملها لما غادر قريته، إلا إن الجو المدني خطفه تماما، فلم يعد بمقدوره سوى الاشتياق وتخيل كيف أضحت قريته في الزمن الحالي..

***



احتمل (شـاني) لقبه غير العائلي بسبب الفكاهة الوحيدة التي يتندر بها وسـط أقرانه لدى سـؤاله عـن كنههـا، وعندئذ، يمرر بصمـة إبهامه بجذل على شـفته السـفلى، ويهمهم بنبرته الوقورة والشبيهة باعترافات خاطئ يعي ذلك تماما:

- «إنـه ولع أصحـاب البشـرة الداكنة اللعيـن بكل ما يُحمر الشـفاه واللسـان! والنكتة بأن لقب شـاني قد التصق بي كالغراء، بسبب إدماني المتعنت للمشـروب الغازي القرمزي الذي بتُ أمقته الآن، واستعضت عنه بالقهوة.. فعندما كنتُ أحرص على شـربه، أصير أشبه بمهرج داكن حين أضحك ليبرز لساني شديد الاحمرار مع شفتيّ!»

هنـا، وكأن شـيئا ذا بال طرأ فـي ذهنه المتقد، حرر (شـاني) أطراف أناملـه مـن عملية التلامـس التي يقوم بهـا، فاحتفظ براحة يده اليسـرى ذات خاتـم الأوبـال على منضـدة الطعام، ورفع اليمنى مسـددًا بسـبابة متأرجحة ذات جذل..

صوبهـا للأمـام، قائـلا بابتسـامة متسـعة أبـرزت نواجـذه العاجيـة مستذكرًا:

- «أنـت أول مـن نادانـي ب(عـوال الوعل)! وذلـك لالتصاقي بك عرضـا في طابور المقصف أيام المدرسـة، حسـبتني أحـاول التحرش بك.. كانت بداية مشاجرة عنيفة انتهت بصداقة وطيدة!



كان ذلك مزعجا بطريقة ما بالنسبة لي آنذاك، ولكن حين أتذكره الآن أجده بالغ الطرافة.. هل تذكر؟"

تأمل (عماد) صديقه القديم بصمت باسم مُعدلا من وضع النظارات الشمسية الداكنة على عينيه..

- «ألا زلتَ تهوى تربية الكلاب؟"

ردَّ أخيرًا بتساؤل مماثل وبنبرة مهمومة:

- «وأنت يا عزرائيل.. ألا زلتَ تتعهد بدفن الموتى؟"

- «إنه عملي..»

- «ويا له من عمل! أولم تجد غيره؟"

- «لستُ الأعظم لكني أعظم من كثيرين، ولستُ الأسوأ.. لكني أسوأ من كثيرين!»

- «مجرد النظر إليك يقشعر بدني ويشعرني بدنو ميعادي معك!»

- «إذن، دعني أنا أنظر إليك!"

- «هلم.. ها؟ كم تبقى لي في هذه الدنيا؟»

- «طرفة عين يا جناب المرحوم!»

- «يا لك من طير شؤم لعين!»

عاود (شاني) مَسَّ أطراف أنامله متصنعا الجدية، ثم تفلسف قائلا:



- «حقيقة أن الموت مميت!»

- «ليس بإمكان أحد معارضة ذلك، وإن بدا كمقولة مبتذلة للفاتنة (بروك شيلدز)!»

- «أو للمخبول (غطاس).. هل لا زلتَ تذكره؟"

- «رحم الله أيامه المثيرة..»

- «الوغد المختل كان طموحا، أين تراه اليوم؟ أحققَ ما يصبو إليه وتزوج بفتاة أجنبية غنية كما كان يحلم دائما؟»

- «ربنا أعلم بأراضيه..»

ووجم، فوجم صاحبه معه برهة..

- ألهذا سألتني عن الدفن؟"

هنا، تخون الإجابة صاحبها، الذي شعر بظروف عصيبة تسودها حلوكة ولا أعظم، في مرحلة ما تحتاج الجراح - ولا بد- للبلسم، مثلما تحتاج الأجواء للرطوبة أحيانا، وعلائق الجوار إلى الترميم..

- «أراك لم تعتبرها مزحة..»

- «أنا أعرفك، ولهذا أنا قلق!"

- «إذن فأنت تعرفني حقا، دونما رياء!"

- «ما الحكاية؟ أنرني هنا..»



- «أريدك أن تدفنني..»

- «حيا؟»

- «كلا! أريدك أن.. أن تزيّف موتي!"

- «هربا من الديَّانة؟»

- «لا أديـن لأحـد بمال لحسـن الحظ، اللهم سـوى فاتـورة جوال مستحقة الدفع.. وعموما، فقد رميته منذ مدة طويلة.."

- «إذن.. ما الفكرة هنا؟"

- «الهروب.. من كل شيء!"



الفصل الخامس

مـن بعيـد، راقب (عماد) أمـور جنازته ليتأكد من سـيرها كما يحب ويشتهي..

قـام (عـوال شـاني) بعمـل الترتيبـات اللازمـة، من غسـل وتكفين للجثمان المجهول، وتجهيز المحملة الخشـبية للمسـجد حيث سـتتم الصلاة عليه، ومن ثم نقله للمدافن..

لـم يقم بذلك كله إكراما لصداقتهما قطعا، فقد اضطر (عماد) لملء جيبـه بمبلـغ فادح لم يكن ليدفعه في ظروف طبيعية، (شـاني) قال بأنها مجازفـة خطيرة، ولكن، ما إن أبصر المبلغ حتى همس ببسـاطة مرتزق محنك:

- «مجرد جنازة لصديق غريب.. اللهم اغفر له وارحمه!»

- «آمين أيها المتحذلق.. تبدو معتادًا..“



- «صدقني.. لستَ الأول ولا الأخير!“

كان حَمَلة الجثمان أغرابا، فلم يلمح ولو وجها واحدًا يألفه، لا قريب ولا صديق.. اللهم سوى (شاني) نفسه الذي ظل يتثاءب طيلة الجنازة..

شقيقه الأصغر لم يحضر، خطيبته لم تحضر، كان ذلك مفهوما بالنسبة إليه، فالأول أظهر كراهيته له علنا، واتهمه بأمور مبتذلة وسخيفة لأقصى حد كالاستيلاء على منزل الأسرة الذي يحق له نصفه، كما اتهمه بالسير في طريق يجلب الشبهة، وإن لم يحدد ماهيته بالضبط..

لكن الجفاء بدأ بينهما قبلا، منذ الصغر، وازداد مذ بدأ شقيقه يتحرش بكلبه الراحل، كأنما يحاول استفزاز شقيقه الأكبر على الدوام..

وأما الثانية، من تزعم أنها خطيبته المُحِبة، فقد لاحظ سؤالها المتكرر عن صديقه صاحب معرض السيارات.. ولطالما كررت عبارات بعينها عن مدى طموحه وبراعته يوم ذهبت لابتياع سيارة جديدة من عنده، كما أنصت لذلك الصديق المزعوم وهو يحادثه بحماسة عن مدى لطف ولباقة خطيبته الحسناء..

كان صديقه المزعوم يتحدث فحسب عن خططه المستقبلية لتطوير تجارة عالم السيارات، وعن الاتصالات والاتفاقات لشرائها وبيعها ومدى التهافت على ذلك، يتحدث عن البيئة المناسبة للسيارة، وكيفية



الحفاظ عليها، ويستخدم تشبيهات مبتذلة عن الرجل الذي يبدو كسيارة الدفع الرباعي، والمرأة التي تشبه سيارة رياضية براقة اللون..

رضا الله ورضا الوالدين.. سنة الحياة.. تحمل المسؤولية.. لم يكره مسألة الأبوة تماما، فقد كان يحلم بابنة يصادقها، شريطة أن تكون شقراء جميلة ومثقفة.. كان يخطط للزواج بأجنبية، ألمانية على الأرجح كونه يجدهن فاتنات، ومن ثم يعيش معها في ديارها – أو في ديار تتشاطر الحدود مع ديارها– للأبد، حيث يقتنيان كلبا أو عدة كلاب وينجبان البنت الشقراء المباركة، بعيدًا عن كل ما يسقمه هنا.. سَجّلَ كل تلك الأحلام في لائحته التي ابتدأ يكتب فيها منذ الصغر، تلك اللائحة التي دوَّن داخلها أولى أمنياته التي حققها لاحقا، وهي رغبته العارمة باقتناء كلب من نوعية "جيرمان شيبارد"..

ورغم ذلك، تورط مع فتاته المتكبرة ثقيلة الظل، والأسوأ هو كونها لا تطيق الحيوانات خصوصا الكلاب، خطبها كارها، وبمباركة لزجة من والدته بالذات كونها ابنة صديقة عزيزة عليها..

كانت خطيبته غير راضية طوال الوقت، مستنكرة دائما.. عقب مصارحتها له بوقوعها في غرامه منذ النظرة الأولى، توالت طلباتها كالشلال، جوال جديد، سهرة عشاء في مطعم يجب حجز مقاعده قبل عدة أيام، سفرة سياحية في شهر العسل المرتقب إلى إسطنبول – التي تحسبها البلهاء لليوم عاصمة تركيا–، أو لجزر المالديف..



الطمـوح الـذي يجـب ألا يكـون أقل من طمـوح صديقـه المزعوم صاحب معرض السيارات..

لم تفسخ الخِطبة بينهما، لكنه ليس بحاجة للتأكد بأن موته المفاجئ سيكون مفاجأة سارة لخطيبته وصديقه سوية، وحتما لن يضيعا الوقت!

بإمكانهمـا الآن الارتباط داخل سـيارة رياضية أو ذات دفعي رباعي مندفعة نحو وادي سقر، فالأمر لم يعد يعنيه أو يهمه..

مـن ركن ما، أصغـى بأذنيه الكبيرتين الغليظتيـن إلى تلاوة ارتفعت بربـع إجـادة، نظر فأبصر عددًا من الأشـخاص يلتفون حول شـاهد قبر وأحدهم يرتل بركاكة:

- ((ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر..))

تنفـس بعمق، وعـاود مراقبـة عملية دفنـه الدائرة على قدم وسـاق، وتبسـم بخـواء لحيـن إتمـام العمليـة، دون قـدوم وجه مألـوف واحد لحضور المراسم..

ثم لاحت بشائر الليل..

❋ ❋ ❋

تلمـس (عمـاد) ذقنه الحليقة وشـعر رأسـه المصفف الآن، سـاهما وهو ينطلق على قدميه مهرولا في الشارع الخالي من المركبات والبشر قاصدًا محطة الحافلة..



لمح اقتراب الجسر المؤدي للطرف الآخر من المدينة، حيث أقسم يوما على مغادرته للأبد، لكنه اليوم يعود إليه..

الطرف القبيح النتن والعتم، حيث الشحاذين يهاجمون كل سيارة تقترب كي يعرضوا أطرافهم المبتورة على سائقها عله يجود عليهم بشيء، حيث باعة البضائع المهربة الصغار كالسغائر، وحملة الموازين لمن يرغب بتفقد وزنه بشلِن، حيث تتسكع القاصرات وحتى المُسنات لعرض البضاعة الوحيدة التي بإمكانهن المتاجرة بها، بالقرب من دار سينما عتيقة للأفلام الإباحية..

توقف هنيهة، وأطلق بضع تنهدات مطالعا جريان مياه النهر الشحيحة في الأسفل، مرتكنا لحاجز الجسر بذراعيه..

تذكر تلك الحكاية التي سردتها جدته المخرفة عن مغارة "رأس النبع" الواقعة على أحد جانبي جبل الشيخ المغذي لنهر الأردن أيام كان فياضا مدرارًا، حيث كانت تقام مراسم وثنية في يوم عيد معين ترمى فيه ضحية مذبوحة في مياهه، وتلك الضحية تختفي بطريقة عجيبة، بقوة الشيطان شخصيا!

دندن في ذهنه - وبذات السحنة الخاوية- كلمات «أنا لن أعبر نهر الأردن وحيدًا»، تلك الأغنية الخلابة التي أهداها الراحل (جوني كاش) لوالدته:



عندما أجيء إلى النهرِ في نهاية يوم..
عندما تعصف الرياح الأَخيرة للحُزن..
سيكون هنالك شخص ما ينتظر لإنارة دربي..
أنا لن أَعْبَرَ الأردن وحيدًا..

المسيح مات وكل ذنوبي قابلة للتعويض..
في الظلام أرى.. بأنه سينتظرني..
أنا لن أَعْبَرَ الأردن وحيدًا..

في أغلب الأحيان أشعر بالإرهاق والاضطراب والحزن..
في حين يبدو بأن أصدقائي يمتلكون المرح كله..
ثمة واحد منهم فكر بتحميسي وجعل فؤادي مسرورًا..
أنا لن أَعْبَرَ الأردن وحيدًا..

مع ذلك أمواج المشكلة والحزن قد تتلاطم..
والمسيح المنقذ سيهتم بُملكهِ..
لدى نهاية رحلتي سيحتفظ هو بروحي..
أنا لن أَعْبَرَ الأردن وحيدًا..

***



حين أسند جبهته على زجاج الحافلة التي استقلها، انتابته مشاعر ابن المدينة الذي شهد ضراوة شوارعها وصلادة أبنيتها أسفل سمائها المكفهرة، في عالم مكفهر بدوره لا سكينة فيه، كل بناء يجاوره منزل ناتئ، وكل تلك المنازل أفواهها أبواب وأعينها نوافذ..

لم يأسف على رحيله عن عالمه الذي ولد فيه، فهو لم يعشق يوما أجواء المدن في أي جزء من العالم، ثمة مدن جميلة، مدن شعر أنها جميلة من الصور، لكنه فضل شيئا أكثر بساطة، إما على شاطئ البحر، أو في قلب غابة كالمتنزه الهادئ، أو حتى عند سفح جبل، حلم العزلة في الجزيرة المجهولة الذي لطالما انتاب ثلة من المكتئبين انتابه كذلك، لكن من كثرة ما تمنوه، شعر أن تلك الجزيرة المنعزلة باتت الآن مزدحمة بدورها!

كان يفضل غرف الفنادق في المدن، تلك الجزر المنعزلة والمنفردة حيث بإمكانه إيجاد راحة نسبية، فإذا احتاج رفقة خفيفة مؤقتة استخدم هاتف خدمة العملاء لطلب فتاة بلا أصل أو فصل، لا أكثر..

- «جنة بلا ناس ما بتنداس!»

أكان ذلك تناقضا؟ ربما..

الحافلة منطلقة بسرعة متوسطة في جنح ليل سدل نقابه..



لكم كره الترحال لأي مكان نهارًا، فإذا نفدت سجائره انتظر الليل، بإمكانه الصبر على مخزونه الدخاني شريطة ألا يلتهم طعاما ثقيلا أو يشرب سائلا ساخنا دسم الكافيين أو يعاشر معاشرة موفقة، وإلا انتابته شهوة السجائر عقبها مباشرة..

هنالك نهار يناسبه للخروج، وهو النهار حيث تتوارى الشمس وتبدأ مملحة الثلوج بنفض محتواها على الرؤوس، إن نفناف الثلج يستحق المشاهدة دائما، وحتى المطر المنهمر دونما هوادة يستخدمه أحيانا للاستحمام المرتجل..

كان مرور الحافلة باللافتة التي تقول: "ستون كيلومترًا" سريعا، فلم يلمح سوى الرقم، أما اسم المكان فلم يتمكن من التقاطه، فعاود ركن جبهته على زجاج النافذة، مستغرقا في المشاهد الخارجية المتلاحقة بخواء..

لربما انتقى هدفا رائقا يمتلك مصدًا طبيعيا ضد سكان المدن الذين يتحركون كروبوتات باردة مزودة بجوالات ذات شاشات قابلة للمس، لا بد من مكان يحسب أهل المدن سكانه من المخابيل، إذا خمنوا أنه مرتع للقتلة فذلك أفضل كي يبتعدوا بترهاتهم، لكن الصحافة قد تشن حملات شعواء عليه طيلة الوقت لاقتناص خبر ما أو صورة، ماذا لو التقطوا له صورة عابرة ونشروها في الجرائد؟ سيلاحظ أحدهم أنه على قيد الحياة رغم جنازته التي انتهت قبيل سويعات..



ثم يُطمئن نفسه ببعض المنطق معاودًا تحسس ذقنه وشعر رأسه، لم يحضر أحد أساسا دفنه، فلِمَ يشرعون بالبحث عنه الآن؟ ألأجل فاتورة المحمول مستحقة الدفع؟ هنالك التجنيد القسري، لكنه لا يعد تهربا كون الحكومة أوقفت هذا النظام عقب توقيع اتفاقية وادي عربة مع الإسرائيليين عام ١٩٩٤، وبسبب ارتفاع تكلفة تجنيد الشباب، ولكن ماذا لو قامت الحكومة بإعادة تفعيل الخدمة لاحقا؟

قد يفعلون وقد لا يفعلون، لِمَ كل ذلك القلق؟ ثم إن وجهه من تلك الوجوه المستنسخة ملايين المرات، فلا سحنته لمطرب ولا لممثل، أو حتى لأديب!

لربما قرية على نهر أو بحيرة، أو مزرعة للأبقار يحرسها كلب قوقازي، مقاطعة هادئة في بلد أجنبي، اسكتلندا على الأرجح كونه يعشق مناظرها الطبيعية، بعيدًا عن سلطة قانونية صارمة ودخان عوادم السيارات الخانق، وبلا شائعات عن وجود شيء كسفاح متسلسل أو شبح متسكع لإبعاد الفضوليين، المهم ألا يكون المكان عبارة عن صروح شاهقة تمتص الأوكسجين بمداخن عملاقة تصنيعا لشيء لعين ما ليس بحاجته.. ثمة علاقة وطيدة بين مستوى التلوث والمشاكل النفسية والتنفسية!

- «هيدروجين الماء اللعين!»



قالها مبتسما كالمغيب، كما لو كان يستحضر ذكرى محببة لنفسيته..

ثم عاود التنهد بكآبة لما أبصر سيارة شرطة تمر إلى جوارهم بسرعة جنونية..

في يوم ماطر خرج فيه لابتياع علبة سجائر، أوقفه شرطي مرور أمره بإبراز رخصة قيادته، وقد لاحظ ارتباكه وهو يبحث عنها في صندوق "تابلوه" السيارة، فاستخرج دفتر مخالفاته ملقما قلمه سن الحبر الأزرق بتأهب..

هو بحاجة للابتعاد عن مثل تلك النوعية من الأشخاص المتعنتين، يؤدون واجبهم، دائما ما يؤدون واجبهم وبمنتهى الحماسة حين ينتمون لتلك النوعية من الوظائف الحكومية المقبضة.. رجل القانون اللئيم.. لو كان نجارًا أو خبازًا يقدم خدمة إنتاجية بحق لما أدى واجبه بذات الحماسة..

إذا كان للمدن مسمى واحد فقط فهو الاختبار، المدن سلسلة متواصلة من اختبارات القدرة على التأقلم والتحمل، لذا، عليه بالهرب السريع إلى حيث الطبيعة هي سيدة الموقف..



الجزء الثالث

غابة الضاحية





الفصل السادس

سـرعة الحافلة تباطـأت، رغم إطاراتها الأربعة التـي لا زالت تنزلق بتهور على الطريق السريع..

وحين سكنت تماما مع إصدار محركها صخبا كأصوات المفرقعات، ارتفعت الأصوات المحتجة والمتذمرة بتمازج ذكوري وأنثوي منفر..

- «في كل مرة لعينة!»

كذا تأفف السائق..

نهـض (عمـاد)، واختـرق الازدحـام الثائـر قاصـدًا بـاب الحافلـة الضائق، سـمع كلاما عـن التأخر ومـدى بُعد المحطة من أفـواه متباينة كريهـة الرائحة غير خجلة، مـع معارضة فردية من سـائق الحافلة الذي ذكـر ما هو واضح مدافعا عن نفسـه: "المحرك تعطل يـا غجر! اهبطوا



مـن الحافلة كي أتفقده يا أوباش! وإلا سـأضطر للاتصال بالمحطة كي توفد لنا حافلة أخرى..»

ثم اسـتخدم شـتيمة كادت توقعه بمشـكلة حقيقية، إذ نعت الركاب بأبنـاء الكلب، هنا، تفجر الغضب عارما في الوجوه المسـتنكرة سـلفا، وكادت ملحمة بالقبضات والأقدام تقع، يبدو وأن شتيمة "ابن الكلب" العتيقـة صامـدة حتـى يومنا هذا كنعـت اسـتفزازي يغلي الـدم، خلافا للغجر والأوباش!

لم ينتظر لرؤية النتيجة، ما إن خرج حتى اسـتخرج سـيجارة أشعلها بهـدوء.. تأمـل المكان حولـه، فوجد خضـرة داكنة ممتـدة على منتهى بصـره، وعلـى جهـة اليمين من الطريـق السـريع، تبعد مسـافة كيلومتر واحد..

نظر للوراء، فوجد الكل يزاحم الكل، تذكر مشهدًا مماثلا في حديقة الحيوان، في قفص السـعادين تحديدًا حين تشرع بالتناسل، الكل يثرثر ويتلاصـق ويتواثـب بلا هوادة، وحيـن تمكنوا من الخـروج أخيرًا أخذ بعضهـم يتدخل زاعما إلمامه الشـامل بمحـركات الحافلات كي يعيق عمل السـائق، البعض الآخر اكتفى بالاسـتناد على بـدن الحافلة متأففا ولاعنا "العيشة" كالمعتاد..

همس باسما وهو يواصل امتصاص الدخان من العقب:



- «ولكن.. لِمَ لا تغادرون ببساطة؟»

لـم يسـمعوه لحسـن الحـظ وإلا لتشـاجروا معه هـو الآخـر، كانوا يتشـبثون بالحافلـة رغم تعطلها وكأنها من ممتلكاتهم الشـخصية، وبدا وكأنهـم لن يبارحوا أماكنهم، كما لو كانت مسـابقة سـخيفة من نوعية: "عليكم بوضع أياديكم على بدن المركبة، والشـخص الأخير الصامد هو من سينالها!»

اكتمال نصاب القمر منحه رؤية أوضح ومنظرًا أجمل، الشجر البعيد كان شاهقا، تخللته الغيوم بضبابية كنسيج العنكبوت..

- «الفضول قتل القط..»

- «ماذا؟»

- «الفضول قتل القط.. أراهن بأنك لا تعلم مصدر هذه الأمثولة!"

لم ير منه إلا ظهره ريثما يعيد دفتر الرسم العريض لحقيبته، ومن ثم اعتدل ليتبدى شخصا ممتلئ البدن، احتفظ بسالفين كثين كنوع مألوف من السـعادين، وقد ارتدى سـترة قديمة كحلية مطعمة بقطع من الجلد الأسـود المصقول، نبرة صوته جافة حتى وهـي تنضح بالتهكم، وكلما رفع أصابعه بسيجارة تمكن (عماد) من تبيان مدى قذارة أظافره الطويلة المسودة في البنصر والخنصر والوسطى..



ضجر من مواصلة تأمله، فأعاد بصره لحيث الشـجر البعيد المتعانق مدمدما بشرود:

- «أوليست مسرحية ل(شكسبير)؟"

- "أوه مثقف! بل هي مسرحية شارك بتمثيلها شخصيا، لكن المقولة تـرددت إثـر تجربة عالم فيزياء كان لديه قط حبسـه داخـل صندوق مع عبوة غاز سـام كافية لقتله، ونظرية ذلك العالم أنه ما لم يفتح الصندوق فهنالك احتمال ٥٠٪ بأن القط لا يزال على قيد الحياة، وهنالك احتمال ٥٠٪ كذلك بأن القط قضى نحبه إثر تسرب الغاز السام، الفضول هنا هو فضـول العالم، وليس القط البائس الذي سـيحتمل عاقبة ذلك الفضول البشري!»

تأمـل (عمـاد) محدثه الفيلسـوف بغير فضـول، وخمن أنـه بانتظار سؤاله عن اسمه بغية التعارف..

لـم يعجب كثيرًا بتلك المحادثـة القصيرة، تبدت له مفتعلة، لا تمت للواقع بصلة، كما لو كانت نصًا من سيناريو فيلم أو مسرحية..

قـرر تجاهله عله يضيق بذلك ويرحل، فلـم ينجح في إبعاده، بل دنا الفتى اللحوح أكثر، ليقول ببصر متسـع جذل رامقا منتهى بصر (عماد) حيث الشجر الكثيف كغابة:

- «هناك!»



- «ماذا هناك؟»

- «ألم تسمع ما قاله السائق؟»

- «في كل مرة لعينة!»

- «أوه.. متنبه للتفاصيل! ألم تسأل نفسك عم يتحدث بالضبط؟"

- «محرك الحافلة يخونه ككل مرة!»

- «وعلى هذا الطريق تحديدًا!"

- «وما المميز بهذا الطريق كي تتعطل الحافلة كلما مرت به؟»

- «الضاحية.. النبع الأصفر!"

- «يا له من اسم طريف!»

- «ويا له من مكان لتتعطل الحافلة عنده.. ككل مرة!»

- «لِمَ؟»

- «الفضول قتل القط.. ماذا قلنا؟»

تبسم (عماد) بسمة مستهجنة، ثم تحرك في ذلك الدرب متجاهلا صيحة الفتى المتسائلة:

- «إلى أين؟»

لاحظ أن باقي الركاب قد طفقوا يحملقون به مستغربين، فأرجح كتفه مجيبا بلامبالاة:



- «الحافلة لن تتحرك من مكانها كما يبدو، وعليه..“

- «واضـح أنـك لسـتَ من هذه الأنحـاء.. تبينتُ ذلـك من لهجتك العجيبة!»

ابتسـم (عمـاد).. هكذا، وبكل بسـاطة، تحـول إلى غريـب يمتلك لهجة عجيبة..

- «إذا كان لديك ما تود قوله فقله، وإياك بترديد أمثولة قطك اللعين الذي قتله الفضول البشري!»

تأمل الفتى الفيلسوف نظرات الركاب الفضولية، ثم سارع بالالتصاق بعماد متشبثا بعضده وجارًا إياه جانبا، وهو يسارع بالقول ببصر ضائق:

- «المسـألة أقـرب لهاويـة معتمة.. حكايـات لعينـة ومتضاربة عن جسـر الانفصال البرزخي الذي تجتـازه أرواح الناس، فيمر من كان في سكينة بهدوء، في حين، يتعرض كل مذنب إلى رجفة الفزع الكبرى!“

- «كان يتوجب عليهم تسميته بجسر دانتي!»

- «طريـف! لكن تلـك البقعة المهمشـة تعتبر مهـدًا للانعزالية، كثر اختـاروا الابتعاد عـن الجميع ونبـذ الحيـاة الاجتماعيـة ببيروقراطيتها وقوانينها التعسـفية، ومؤسسـاتها وأوراقها الثبوتية وضرائبها وتواقيعها وأختامها، وسـبلها وسـننها الحياتية من زواج وإنجـاب ووظيفة للظفر



بلقمة العيش والصرف على الزوجة والنسل، تلك البقعة فردوس للبعض وسعير للبعض الآخر!

ألم تسمع يوما بمؤامرة "بيلفيلد"؟

- «لا.. سمعتُ بنظريات المؤامرة!"

- «هي حقا من نظريات المؤامرة! يقال بأن مدينة بيلفيلد الألمانية - وعدد سكانها حوالي ربع مليون نسمة- ليست متواجدة على خرائط أرض الواقع! حيث أشيع بأن ثمة مؤامرة لإقناع الناس بتواجدها! جذور تلك المؤامرة - أو النظرية- اعتمدت على طرح ثلاثة أسئلة منطقية: هل تعرف أحدًا من مدينة بيلفيد؟ هل ذهبت من قبل إلى مدينة بيلفيد؟ هل تعرف شخصًا - على الأقل- ذهب إلى مدينة بيلفيلد؟

أترى؟ من يتمكن من الإجابة على سؤال من تلك الأسئلة الثلاثة بالإيجاب فسيُتهم من قبل السائلين بأنه جزء من تلك المؤامرة! كل ذلك يحدث رغم أن المسألة بدأت كمجرد دعابة طريفة، حين قام صديق لطالب ألماني بإخباره أنه قابل شخصا من مدينة بيلفيلد، فشعر الأخير بالاستغراب كونه لم يقابل أحدًا من هناك قبلا، حيث قال مستغربا: «لكنها مدينة غير متواجدة!».. هكذا، وفي عام ١٩٩٩ عقب انتشار تلك الدعابة التي تحولت لاحقا إلى نظرية مؤامرة جدية، أعلن



مجلس مدينة بيلفيلد أنها حقا متواجدة، ولكن – ولسوء حظهم– كان إعلانهم يوم الأول من أبريل، فبات الاعتقاد السائد أنها كذبة أبريل!»

ثم أشار للبقعة الخضراء الغامضة قائلا بهمس:

– «إذا تفهمت هذه الحكاية جيدًا فقم بقياسها على تلك البقعة العجيبة ومن ثم اجتهد!»

تصنع (عماد) عدم الاهتمام، لكنه أصغى بحدس مرهف فعلا، فهذا الكلام جديد عليه!

تساءل:

– «أهي بقعة مهجورة أم..؟»

– «ستجد بشرًا لكنهم انعزاليون..“

– «تبدو كفردوس، ألا يتوجب أن تكون مزدحمة؟“

– «البشر خصوصا في المجتمعات الشرقية يبغضون ما لا يدركونه، كما يبغضون العيش بانطوائية من دون مشاكل حقيقية شائكة، وإن زعموا خلاف ذلك!»

– «وهل يتعايشون مع أسطورة غريبة ومخيفة بهذا الشكل نوعا؟»

– «ليس تعايشا بالضبط، يكتفون بترداد الحكايات، إذ يستمتعون بذلك.. نحن لا نمتلك سوى الأغاني الشعبية المزعجة والدبكات



الصاخبة، ومخزون الحكايات التي نحسبها ميراثا يستحق أن يمرر للأبناء والأحفاد..

كل ذلك ابتدأ مع ذلك الشخص.. المشعوذ الذي شاب شعر رأسه.. شاب باكرًا!

حكاية أخرى لعينة.. ألا تبا!

- «حكايته شهيرة، فقد كان مزيجا من رجل أعمال ناجح ومشعوذ أريب جعبته مفعمة بالحيل، خصوصا لاشتهاره بحجره الكريم الذي كان دائما يحمله حول عنقه كقلادة، لإبعاد - حسب زعمه- المخاوف والأشباح وحتى الغم، وبشرابه الذي يصنعه والذي يجعل البهائم العقيمة ناسلة، وحتى السموم ذات المصادر النباتية، كان بإمكانه جعلها غير ضارة!

زار تلك البقعة، حيث اشترى أرضا هناك بغية بناء بناية عريضة وشاهقة كي يؤجر شققها الكثيرة، متجاهلا حكايات غريبة عن أولئك الذين فقدوا لدى ولوجهم تلك الضاحية المشؤومة، تحدثوا عن عفاريت تقطن الضاحية، فزعم بأنه الوحيد الذي باستطاعته طردهم إذا ما كانوا متواجدين حقا..»



وتلفت الفتى حوله، فضاقه أن وجد سائر الركاب يحاولون التلصص عليهما للإصغاء إلى ما يتهامسان بشأنه، فدمدم بعصبية متنحيا بعماد أكثر:

- «تبا للفضول البشري! الفضول قتل القط.. قتل آلاف القطط.. المهم، عقب تقصيه البقعة التي انتوى البناء عليها، لاحظ رجل الأعمال المشعوذ منازل موحية بالهجر، نهارًا لا يجرؤ امرؤ عاقل على ولوجها، فما بالك بمخبول يقرر المبيت فيها ليلا؟

وهذا ما صنعه رجل الأعمال المشعوذ، انتقى منزلا مهجورًا حين حلّ الليل وولجه، تجاهل حكايات الناس عن الشياطين المتنكرة في أزياء النساء والرجال وحتى الحيوانات، وحين تحدثوا عن مقتل من يجسر على اقتحام المحظور، تساءل متهكما عن الجثث التي لم يتم العثور عليها، والأهم، عن المصادر التي استقوا منها تلك الحكايات بالضبط ما دام الكل لا يجرؤ على زيارة تلك الضاحية!»

- «ومن أين استقيتَ أنت مصدر حكايتك الدقيقة هذه بالضبط؟"

- «ملمٌّ بالتفاصيل! لا يهم مصدرها، ولا يهمني ما إذا صدقتني أم لا.. المهم، اعتمد رجل الأعمال المشعوذ على الشموع، فقد كان كارها للتكنولوجيا، لا يحمل جوالا أو حاسوبا نقالا، لم يجلب حتى كشافا، لم يكن يحمل سوى علبة شموع ملونة خاصة بأعياد ميلاد الأطفال!»



- «ملمٌ بالتفاصيل!»

- تهكمك طريف.. المهم، أشعل رجلنا شمعة وابتدأ يخط شيئا في مفكرته، ملاحظاته وانطباعاته عن المكان لربما.. لسويعات طالع ودوَّن حتى تثاءب، وما إن انتصف ذوبان الشمعة وكذلك الليل، حتى انفتح باب الدار التي اختارها بغتة، واقتحمتها شلة من أشخاص طوال القامة في ثياب حالكة السواد!

يقال أن شعر رأسه شاب من تلك الحادثة، لكن الحكاية التي أصدقها بشدة أنه لم يتزحزح من جلسته كما لو كان من كهنة "زن"، ظل صامتا وساهما متجاهلا جلوسهم بالقرب منه، تظاهر بعدم رؤيتهم رغم تواجدهم الملحوظ، خصوصا حين صنعوا دائرة بالقرب من شمعته وطفقوا.."

- «طفقوا ماذا؟»

- «هل تلعب الورق؟ أتعرف البوكر؟ حسنٌ.. كانوا يلعبون البوكر كل ليلة كما اتضح لرجل الأعمال المشعوذ من أحاديثهم! يلعبون ويقامرون بزجاجات عرق وعلب سجائر!"

- «الحكاية اتخذت منحنى باعثا على الضحك.. ألا ترى ذلك معي؟"



- «ربما.. المهم أن رجل الأعمال المشعوذ أخرج مرآته البيضاوية من جيبه..»

- «مرآة؟ ولماذا يحمل المرء مرآة معه إن لم يكن أنثى أو من المخنثين؟»

- «لأنه مشعوذ! يحمل شموعا ومفكرة ومرآة! لا بد للمشعوذ من مرآة كتب عليها بدمه أسماء الملوك المجوس الثلاثة، فهي تمكنه من مشاهدة مكان وزمان وكيفية موته!»

- «عجيب.. وهل أبصر كل ذلك في مرآته تلك يا خبير الشعوذة؟»

- «بل أبصر في المرآة انعكاسا لشلة من الكلاب السود وهي تلعب البوكر!»

- «تماما كلوحات (كاسيوس مارسيلوس) الشهيرة؟»

- «بالضبط!»

- «واضح أنك كنتَ معه! أعني مع المشعوذ، ولربما كنتَ واحدًا من تلك الكلاب التي تلعب البوكر كل ليلة.. المهم، ماذا صنع؟ أراهن بأنه لم يلذ بالفرار..»

- «بالطبع لا! ظل يحدق في المرآة التي عكست حقيقة تلك الشلة وراءه، ثم تجاسر على حمل الشمعة والتظاهر بأنه لا يراهم، فبدأ يروح



ويجيء في الغرفة متظاهرًا بمطالعة مفكرته وتدوين بعض الملاحظات فيها، ثم دنا أكثر من الشياطين المقرفصة..

هنا، قام بغرس لهيب الشمعة في عنق أحدها، وعندئذ، أطلق الشخص/ الكلب صيحة ألم جامعة ما بين النباح والصراخ البشري، واشتعلت فيه النيران ناشرًا رائحة الشياط وسُحُب الدخان، فسارع رجل الأعمال المشعوذ بإخراج مطواته من جعبته..»

- «مطواة كذلك؟ يا له من رجل أعمال مشعوذ صعلوك!»

- «أجل مطواة! لِمَ أنت مستغرب؟ استخرج نصلها الزنبركي بضغطة زر ودفعه في أمعاء الكلب الأسود، فسقط صريعا، في حين، لاذ البقية بالفرار!"

- «وبهذا.. انتهت الحكاية الطريفة بانتصار رجل الأعمال المشعوذ، صاحب الشموع والمفكرة.. والمرآة والمطواة! قل لي، أليس من المفترض أن تكون مُسنا أميًا في الستين أو السبعين لا يتحمس إلا لدى سماع الحكايات السخيفة والأغاني الشعبية المبتذلة؟"

اغتصب الفتى قهقهة، قبيل تساؤله ببصر متسع ونبرة جذلة:

- «والآن، ألا زلتَ ترغب بالذهاب للضاحية عقب سماع حكايتها الشنيعة؟"

- «يا لك من أحمق!»



الفصل السابع

أقر (عماد) لذاته بأن الضاحية مخيفة..

عقب تركه للحافلة المعطلة، قام بشق طريقه شاعرًا أنه في رحلة سافاري، لم يحبذ الوصف الذهني خصوصا حين لم يسمع صوت عواء لذئب أو حتى أزيز جدجد ليلي، فأحال الوصف للسياحة البريئة على الأقدام، هي جنة خضراء منسية فحسب، وهو سائح أقرب للانتماء غاب عن تلك الجنة الأخاذة مطولا..

الغابة تبدت لناظريه في الليل عالمًا محتشدًا بالأسرار المثيرة، لم يستطعم يوما النهار، لكنه كان يشعر بأن لليل طعم مستساغ خصوصا وسط الخضرة الطبيعية، كل تلك الأشجار شديدة الخصوصية، لا مجال للأعين الفضولية إذا ما أراد المرء تلبية نداء الطبيعة بالسبل البدائية..



شـجرة جوز ذات جذع عريض مبتور، استوقفته حين أراد الجلوس عليها لالتقاط أنفاسه..

كان مـن الممكـن ألا تلفـت نظـره لـولا ما ارتسـم عليها مـن أرقام بطبشور أحمر، تزداد كلما دنت من اللب، أو تتقلص كلما ابتعدت عنه، الخشـب المبكر يحمل الرقم سـبعة والمتأخر سـتة، أما خشـب القلب فيحمـل الرقم ثمانيـة، لكنه ليس بالضبط تسلسـلا، فحلقة النمو تحمل الرقم ثلاثة..

علـى اللحاء الخارجي أرقام ثنائيـة وثلاثية دونت بالطبشـور مرارًا وتم مسحها، قلب النواة مباشرة يدل على سنة الزراعة الأولية للشجرة، منطقة الخشب المبكر تدل على مواسم المطر، والمتأخرة على مواسم الجفاف، ثمة ندبة سـوداء في تلك الرقعـة كذلك تدل على حريق قديم وقع..

- «ما هذه الشعوذة؟»

قالهـا بعفوية، ثم تسـمر مفكرًا، حديث فتـى الحافلة يتكرر في ذهنه مجددًا وبإصرار، وفي هذه المرة ينصت باهتمام أكبر..

ثـم لـم يلبث أن نهـض شـاعرًا بالضجر، واصـل تحركه متناسـيا ما أبصره، فلم يمض على مسـيرته سـوى نصف ساعة، بعدها، وجد نفسه يخرج من معمعة الشجيرات والأغصان والشوك للضاحية مباشرة..



منازلها شحيحة، متباعدة تارة متلاصقة تارة أخرى، مهجورة حتما، لذا أيقن أن فتى الحافلة كان يهرف بما لا يعرف، إذ تحدث عن بشر اعتزلوا الناس هنا.. مستحيل طبعا.. وإلا أين هم بحق الله؟ يتوارون كأهل الكهف؟

تذكر تلك الحكاية التي طالع عنها، وهي أقرب لأمثولة تقال في دحض الشائعات.. دع شخصا يهمس بحكاية مُبسطة في أذن شخص آخر، ثم دع الشخص التالي يهمس بها للثالث، وهكذا دواليك وصولا للعاشر، وعندئذ دع الشخص العاشر يجاهر بالحكاية، ستجد حينها أن الحكاية مختلفة كليا ولا تمت بصلة للحكاية التي همس بها الشخص الأول!

شعر أنه يخادع نفسه، فتلك الأرقام المدونة بالطبشور على الجذع المبتور لم تكتب نفسها بنفسها، لكنه عاد وألح بشيء من عصبية على آلية دفاعاته النفسية.. ماذا لو كان مجرد عابر سبيل مولع بالألغاز الرياضية من دوَّن تلك الأرقام فحسب، قبل أن يلبي نداء الطبيعة ومن ثم يواصل سيره؟

المنزل قبالته مباشرة كان الأكبر، يبدو متماسكا لا يمت بصلة للخرائب المتناثرة حوله والتي لا تُحمس المرء على اقتحامها، فلا يوجد حتما غير الحطام المتداعي للجدران وبقايا النوافذ، هنالك منازل لم تعد كذلك، إذ انبعجت جدرانها وانهارت أعمدتها مهشمة



طبقاتها فوق بعض، وأخرى توقف سقوط السقف فوقها على ارتفاع متر أو نصف متر..

شق طريقه نحو المنزل المنشود، وأمام واجهته بحث - بتهكم- عن تعاويذ مرسومة على جدرانه الخارجية أو محفورة على إطارات نوافذه الخشبية فلم يجد، ولما دلف وجد المكان مغبرًا بشدة كالمتوقع..

نظر للجدار على الجهة اليسرى، فأبصر رسما لصبي يرفع بكلتا يديه عاليا، وقد ارتسمت هنالك أرقام لم يتمكن من مطالعتها بسبب عدم وضوحها..

شرد ذهنه في آفاق ذات سمو أقرب للروحانية، كما لو كان يتخيل حلا للمعضلة.. يحاول مقابلة ذاته المتعمقة كي يستخدم الطريقة الإسقاطية لتحديد الدوافع المكبوتة والمتعمقة داخل النفس، والتي لا يمكن معرفتها من خلال المسوح الرسمية، بل من خلال تتبع سبل غير مباشرة ذات حرية غير محددة بقيود ذهنية، وفي مقابلة غير محددة الأسئلة أو الأجوبة، بهدف تدوين كافة الإجابات التي قد تصلح لحل معضلة لب جذع الشجرة المبتور والمزود بأرقام، ولربما هذا الرسم العجيب!

"أنام.. أنام تحت شجرة جوز..

فأمكنني ذلك أن أرى في حلم..



كل ما سيصادفني..

خلال العام..

من خير أو شر!"

لم تكن أنشودة يتذكرها، بل كان هذا الكلام المدوَّن على الجدار الأيسر بطبشور أحمر.. عابر السبيل المولع بالألغاز الرياضية - والآن بالأناشيد- قد مرَّ من هنا كذلك!

تنهد بتماسك، وشعر أن عليه الاستعداد في حال خرج له شخص شائب الشعر، يحمل مرآة بيضاوية وشموعا ملونة ومطواة، أو عددًا من الأشخاص على هيئة كلاب سود أتت للمقامرة عبر لعب البوكر!

ركل الإفريز فتداعى التراب السميك، وتأمل غرفة المعيشة شبه الخاوية حوله، اللهم إلا من باب خلفه خزانة مقفلة لم يتحمس لتفقدها وأريكة ذات حاشية مشققة، ثم تفقد باقي الغرف ليعثر على مطبخ وحمام، لا كهرباء ولا ماء طبعا..

صعد لفوق، فعثر على غرفة نوم مزودة بسرير قديم، تفقده ليجد نوابضه صدئة ذات أزيز مؤرق، فعاود الهبوط مستريحا نوعا للمكان الذي سيبيت فيه ليلته..

***



لـم ينـم على ذلك السـرير فـي غرفة النوم فـوق، بل اختـار الأريكة تحت في غرفة المعيشة..

أصيب بتوجس من غرفة النوم تلك حين عثر على ذلك المنبه الرقمي العجيب داخل «كومودينو» بجوار السرير، إذ كان متوقفا على توقيت لا يمكـن إلا أن يكون عطلا، ورغـم ذلك أثار رهبته لمدى غرابته، فالمنبه كان عالقا على الساعة الحادية عشرة وإحدى وستون دقيقة!

كانت نومة تعج بالكوابيس في غرفة المعيشـة، فالمبيت هنا أشـعره برهبـة من نوع غريـب، أولا المنبـه التالف وتاليا السـقف المهدد، فنام وهو يتساءل ما إذا كان المكان سينهار على رأسه وهو نائم أم لا..

كان تقديره الأعظم بأن ذلك لن يحدث، فالهيكل المنزلي صمد كل تلك السنين.. فقط ليختار هذه الليلة كي ينهار على رأسه؟

ثم يعود فيفكر.. لِمَ لا؟ أوليس منحوسا كديدن الكل؟ ويتخيل وقوع ذلك كوسـواس قهري مؤرق، فيرتاع لفكرة الدفن أسـفل طبقات هائلة من الحطام، والأسوأ تهشم أوصاله في حال وقوع ذلك، فلا يتمكن من تحريك قدمه اليمنى أو ساقه اليسرى مع تهشم ذراعيه، ويظل راقدًا في وضعية الجنين ومدفونا على قيد الحياة!

كان يسـدد ببصر شاخص للسقف، حيث خيل له رؤية نور من أعلى منعكسا على سحنته، تخيل نفسه مدفونا في الظلمة ويزحف زحفا شاقا



لحيث ينبع نور الحياة، أو ذلك النور الذي وصفوه بأنه يقبع في آخر النفق، بدنه يتجرح من الزحف، لكنه يواصل في ثبات دون التوقف ولو هنيهة لاستجماع شتات ذاته..

أحيانا يتردد صدى نباح، فترتجف أوصاله متذكرًا (جيبسي)، كحلم شاق غلب عليه الضيق..

لم يمت من جراء حادثة، في يوم من الأيام تفقده ليجده راقدًا في الحديقة ولسانه خارج حلقه وقد اسودَّ وجفَّ تماما، لكنه لم ينفق على الفور.. كان يتعذب أثناء الاحتضار..

لو كان كلبه على قيد الحياة لعثر عليه ولو وسط أنقاض هيروشيما، ولأنقذه بكل همة ووفاء ولو كلفه ذلك جره مسافة سباق ماراثون، فإذا توقف فلِينبحَ بجنون كي يلفت أنظار أحدهم، وليس لالتقاط أنفاسه!

كلب الإنقاذ يصنع ذلك، يشم رائحة الشخص أسفل الأنقاض، فما إن يجده حتى يطلق النباح المظفر المفعم بالفرح، ولكن إذا ما وجد الشخص ميتا يطلق عواءً حزينا، حتى وإن كان ذلك الشخص غريبا عنه!

واصل التخيل، أو الكابوس كلاهما سيان.. فلاح النور المبهم بضعف أحيانا، وفي ذلك مدعاة للزحف بسرعة أكبر وإلا دُفن حيا للأبد، يتابع دبيبه، وعلى بعد أقدام، يعيق تقدمه لوح إسمنتي تمازج مع قضيب غليظ من فولاذ..



يتمكن من تجاوزهما بصعوبة وعندئذ، يخرج للنور وقد شعر بالخلاص، تماما كالخارج من رحم والدته.. لقد ولد ثانية ومُنح حياة جديدة!

ثم ارتفع صوت رنين الهاتف..

أهو حلم؟

لم يحلم منذ مدة.. لم يكن يحلم مؤخرًا سوى بأحلام يقظة، آخر حلم طبيعي يتذكر رؤيته كان غريبا بحق، إذ حلم بنفسه واقفا أمام غطاء مفتوح لسيارة خضراء عتيقة وسط غابة معتمة محاولا إصلاح محركها بيأس، حين بوغت بوالده يمر من وراء السيارة دون الالتفات إليه، وقد ارتدى قميصا قطنيا تلوث ببقع من سائل قد يكون زيتا أو شرابا من نوع ما، ثم توقف، ورمى بحفنة ملح - أو سكر- تحت قدميه، ومن ثم تلاشى!

تنهد..

نظر للسقف فوجد النور متلاشيا، اعتدل متأملا سماءه الشخصية غارقة في العتمة، ورغم ذلك هنالك ما عاد بحوزته من عالم الأحلام.. صوت رنين هاتفي يسمعه بتلك الأذنين الغليظتين اللعينتين وبكل وضوح!

- «بحق الله!»



هبـط من علـى الأريكة مصغيـا وشـعور التوجس ينتابه بـلا هوادة، وتتبع الصوت الواهن، إلى أن وجده ينبعث من باب تفقده سـابقا ليجد وراءه خزانة لم يرغب بتفقدها..

ولكن ما إن فتح باب تلك الخزانة، حتى أبصر على أرضيتها هاتفا ذا خضرة زيتونية باهتة، من صنف عتيق مزود بقرص دوار شفاف..

لـم يكف عن الرنيـن ككابوس، وعقب برهة صعبة التقط سـماعته، وبتثاقـل رفعها لإسـماع طبلة أذنـه اليمنى، حيث تـردد صوت ذكوري منهك بهمس:

- *«أسفل الأريكة.. (١٨).. شهرته (المختل)!»*

- *"آلو؟"*

- *"أسفل الأريكة.. (١٨).. شهرته (المختل)!"*

- *"من معي؟"*

- *"أسفل الأريكة.. (١٨).. شهرته (المختل)!"*

- *"أتمزح بمثل هذه الساعة أيها.."*

بوغـت بالطـرف الآخـر يقفل الخط، وتـردد صوت طويـل لصافرة دفعته لوضع السماعة بمحلها بفكر مبلبل.. ما كان ذلك؟ شفرة من نوع ما؟ هل صار المكان وكرًا لعصابة مخدرات؟



ترك الهاتف الزيتوني في محله منسحبا لغرفة المعيشة، حيث جلس على الأريكة متفكرًا، أثمة من يراقبه؟

لا بـد وأنه فتى الحافلـة اللعين صاحب القطـط الفضولية ونظريات المؤامـرة.. حتمـا تتبعـه، ثم ابتـدأ يمارس عليـه ألاعيـب صبيانية بغية إخافته!

لقد أخطأ الوغد، اختار أسـوأ ضحية على الإطلاق.. اختار شخصا يكتـم غضبـه بسـهولة، كي ينتقـم لاحقـا ببـرودة أعصـاب لا مثيل لها كالجمل..

وارتسـمت بسـمة قاسية على شـفتي (عماد) حين تخيل وقوع ذلك العابث بين يديه، حتما سيدفعه لإغراق ثيابه الداخلية..

فكـر بذلـك وهو ينهـض لتفقد الأريكـة، وأزاحها بفصـام ذهن غير طبيعـي، يفكر بالانتقـام من العابث الصبياني وبضـراوة مطلقة، وبذات الوقت يتفقد الأريكة تماما كما سمع في المكالمة الهاتفية العجيبة..

ولكن وحين أزاحها، تسمر بمكانه شاعرًا بالحيرة..

خدعه الـدرب متضامنا مع العتمة للوهلـة الأولى، فالأرضية كانت تحـوي فراغا يقـود لحفـرة عميقة، كلاهما يتسـع لمرور شـخص بالغ ممتلـئ البـدن ولكـن ليس بـذات التسـاوي، على عكس تشـكيل تلك



الحفـرة مع الأرضية، إذ بدا متناغما كأنمـا اقتطع كجزئية تخص ديكور مسرح، أو موقع تصوير تم تجهيزه لتصوير فيلم سينمائي..

انثنى متشـبثا بحواف الفراغ، وتدلى لحيث الحفرة باحثا عن أرضية للاستقرار، والغريب أنه قرر المجازفة عندما لم يجد..

وثب كاتما شـهقته، فاسـتغرق مسـافة غيـر هينة قبل سـقوطه أرضا أخيرًا، شـعر بـآلام مبرحة فـي ركبته، حركهـا قليلا فتـأوه راضيا كونها رَضة وليسـت كسرًا، ثم عكف على تحسس أنحاء ظهره وباقي أطراف بدنـه.. وفي النهاية، رفع أصابعه كـي يتأملها، فوجد أربعة أصابع مغبرة والخامـس مبقع بلطخـة دم قانية إلى جانب الغبار، فلم يجزع أو يشـعر بالألم، بل انتابته خاطرة عجيبة أشـعرته بالامتنان لتواجد خمسة أصابع فـي يده، فكر أنه لو كانـت زيادة عدد الأصابع مماثلـة لنقصانها لكانت الحيوانات التي لديها أكثر من خمسـة أصابع منتشـرة في الطبيعة، تذكر مـا طالعه عن حيوان الباندا الذي يمتلك خمسـة أصابـع، إضافة لباطن يده التي يتشبث بسيقان البامبو بها!

نظـر للأمـام فخيل لـه أنه يحلم، بل هو حتما سـجين حلم سـخيف سـواء أكان حلما طبيعيا أم حلم يقظة، اللهـم إلا لو أصابه جنون العزلة في بقعة مهجورة..



ففي الممر الممتد أمامه، أيقن أنه قد سقط في جوف بناية هائلة ذات شقق متعددة، وذلك من ضروب المستحيلات طبعا.. فهل تبنى بنايات الشقق أسفل منزل مهجور وتحت الأرض؟

لم يفزع، ولكن ما إن تحرك ذلك الشيء بداخله كحية تسعى حتى تبسم بشحوب، وكأنما خسر رهانا لتوه ومن ثم تقبل خسارته بروح رياضية.. إذ كان فضوله البشري متأججا!





الجزء الرابع

حارس الرحلة





الفصل الثامن

استفاق (غطاس)..

نظر لشاشة التلفاز البلازمي المثقلة بالغبار، حيث الداعية الكهل داكن الجبهة لا يزال يصرخ كالمخابيل..

دعك جبهته هو شاعرًا بصداع ينهش خلاياه كالضواري، تثاءب إرهاقا وإعياءً، ثم نظر من حوله متسائلا..

لا يزال داخل شقته التي تحمل الرقم (١٨)، في جوف بناية عملاقة آيلة للانهيار..

التلفاز بمحله، الثلاجة، رزم المجلات العلمية والبوليسية القديمة من الثمانينيات، الحاسوب المحمول مفتوح ومغبر كالعادة، حيث ملف لأغنية واحدة فقط دائرة طيلة اليوم داخله.. أغنية فرقة "الكاذبون" الهائمة: "الجانب الآخر لنوبة الجبل القلبية"..





أنا لن أرحل بعيدًا..

أنا لن أرحل بعيدًا..

أنا لن أرحل بعيدًا..

يمكن دائما إيجادي..

يمكن دائما إيجادي..

إذا احتجتني..

إذا احتجتني..

يمكن دائما إيجادي..

يمكن دائما إيجادي..

إذا أردتني أن أبقى..

إذا أردتني أن أبقى..

سأظل إلى جانبك..



سأظل إلى جانبك..

أنا لن أرحل بعيدًا..

أنا لن أرحل بعيدًا..

أنا لن أرحل بعيدًا..

يمكن دائما إيجادي..

سأظل إلى جانبك..

وأنا أريدك أن تجدني..

لذا سأظل إلى جانبك..

الصداع يفترس خلاياه بضراوة، لكنه راض كل الرضا عن رحلته..

يا لها من رحلة غريبة عجيبة!

ماذا عن واحدة أخرى؟ الآن وحالا؟

ماذا لو غيَّرَ وجه الأرض في القرن الحادي والعشرين مثلا؟

هو.. العاطل الذي تخرج بشهادة بالية في علوم الحواسيب اللعينة، عرضوا عليه وظيفة في أرض العدو! كره تسميتها بذلك فهي ليست



أرضهـم حتى، لكن المسـمى فرض نفسـه بنفسـه إثـر الواقـع الذي لا يهادن..

لكـن لا.. ليس هـو.. ليس معهم.. أولئك الذين تسـببوا باستشـهاد شقيقه الأكبر وشقيقته الصغرى..

ثم تذكر أنه لم يتخرج من الثانوية حتى، وبأنه يقطن قطرًا عربيا غريبا عنه، وبدون أشـقاء أو شقيقات أساسـا.. فضحك من وطنيته المزعومة منتشيا!

تذكـر كذلك نصيحة منسـية من والدٍ منسـي، إذ قال لـه بنبرة وعظية زاعقة كما لو كان يمهد للبصق عليه:

- «آمـن - يا ابن الكلب!- بقيـم الحياة تمنح حياتك معنى ما، وكن أقوى من جميع الصعاب التي سـتحاول دوما اعتراضك، سـتدهش من مقدرتك على تذليلها، ليس بعضها بل كلها، إياك ونسيان الأخلاق فهي أهم شيء..»

قـال كل ذلـك إثـر عثـور والدته علـى مجلة إباحية أسـفل سـريره، فهرعت بها مذعورة لرب الدار كي يسارع بإنقاذ ابنهما من ارتكاب مزيدٍ من المعاصي المودية لسـعير جهنم.. ثم كانت القاصمة.. سيجارة يوم ميلاده في الخرائب مع صديق قديم، اسـتلمه والده عن طريق الشـرطة



عقب أن كادت تلك السيجارة الملوثة تذهب بحياة صديقه الذي رقد على إثرها في المستشفى.. ثم طرده من المنزل بلا رجعة..

لم يحزن حين هامَ على وجهه في الشوارع كمشرد بلا ملجأ، فكر بتأدية خدمة العلم رغم أنه وحيد والديه، حتى وإن أحالته لوحش لا يرحم أو إلى مخبول عاجز حتى عن التفكير المبسط.. لكنه لم يتمكن من الالتحاق كون خدمة العلم مرفوعة منذ توقيع اتفاقية السلام مع الإسرائيليين منذ عام ١٩٩٤ ، ولعدم توافر مخصصات مالية تدعم التجنيد الإجباري، وتخفف من وطء البطالة المنتشرة..

ألا تبا! سيكون الشخص الذي يغير وجه الأرض في القرن الحادي والعشرين..

لا لكونه أول من يبحث في كواليس العقل المنيع بتلك الطريقة المتطرفة، بل لأنه يغوص في عقلية يظن أنها لأمكر مخلوق على وجه الأرض! وفي رحلات لا تبحث عن المبررات بقدر ما تبحث عن الأسباب، فليبحث هو عن معتقدات وسلوكيات وتناقضات روح وعقل المرء في لحظاته الأخيرة، فليجرب المرارة السريالية، مشاهدًا بأم عينه المحمرة انهيار أحلامه السوداوية لحظة بلحظة..

- "المتوحد يلتهم نفسه في العزلة، وفي الحشود تلتهمه أعداد لا متناهية!»



ماذا عن تعذيب بعض ضعاف النفوس والأبدان؟ حيث تمثل الإنسانية والشفقة على المساكين بالنسبة له مجرد هراء ديني ضد الطبيعة وسنة الحياة المبتذلة؟

- «هنالك شخص واحد لم يذق طعم الفشل في حياته، وهو الذي يعيش بلا هدف!»

يروي ذهنه الملتاث تلك المقتطفات "النيتشية" بقناعة فيلسوف متعصب يعي ما يقوله وببساطة تامة كأنها أمور بديهية، قبل أن يتحول ذلك الجبروت الواثق بداخله إلى مزيج من غضب ومرارة تدميان كيانه وجوارحه.. تذكر الإصلاحيات والسجون والأزقة التي آوته، فنبض فؤاده بحنين جارف لتلكم السوداويات الحالكة..

- "إني أشتاق إلى الكائنات البشرية وأبحث عنها، ولكنني دائما أجد نفسي فقط، مع أنني لم أشتق إلى نفسي، لم يعد أحد يزورني، ولقد ذهبت إليهم جميعا ولم أجد أحدًا.. رحل الكل بعيدًا.. بعيدًا!"

يتخطى فكرة التقمص الخارجي - والشكلي - ليرقب من الداخل أكثر لحظاته جنونا، محاولا تفهم منطلقات الإنسان في جميع تصرفاته، التي تبدو بالرغم من غرابتها وشذوذها منطقية تماما في كثير من الأحيان..

ثم يتنهد..



الفيلسوف (كرين) – لا (نيتشة)– من قال: «قد تُخدع أحيانا إذا قمتَ بمنح الكثير من ثقتك، لكنك ستحيا تعيسًا إن كنت لا تثق بإنسان..“

تضخم.. تضخم.. ليس في حسابه المصرفي حتما، بل في ثنايا مخه اللعين!

فكر بذلك كله متأملا بنصف عين دامية بقايا البوستر – شبه الإباحي–الملتصق بالجدار أمامه..

***

لا يمكنك الانضمام إلى تلك الشلة الرعناء..

وذلك معناه واضح حتى بالنسبة لقرد: «لا يمكنك الانضمام لتلك الشلة الرعناء!»

إذا كان بإمكانك قبول تحدٍ باجتراع زيت المحركات الذي بطل استخدامه، ومن ثم إشعال سيجارة ”ماجيك“، فأهلا بك!

وإذا بمقدورك احتساء قهوة مصنوعة من الخل بدل الماء باعتيادية يومية، فتفضل!

أما إذا كان بوسعك التهام شطائر مُعدة من السردين والمربى والعسل والزبدة والمخلل وجبنة الثوم بالفلفل الأسود والقرفة دون أن تتقيأ، فهلم!



إذا كنتَ يائسًا إلى أقصى درجات اليأس، إيمانك واهن، وعلاقتك بالمجتمع شبه منتهية.. فلربما بمقدورك الانضمام.. لتلك الشلة الرعناء!

كانت معرفة سيئة الذكر، لا علاقة لها بذكريات الطفولة أو الزمالة المهنية، مجرد تعارف فاتر بداية نشأ عن التوصل لهذا المكان وتحول لاحقا لشراكة..

جَمَعَ بقايا أولئك الشبان الأربعة ما قد يجمع أية شلة مدمنة في ماخور، أو مقهى للإنترنت لحل مشاكل تدفق رسائل الإغراق الالكترونية والدعائية..

هوس الإدمان كان أهم مشاكلهم، إلى جانب القرصنة المعلوماتية واللهو بألعاب الفيديو، وتجارة الممنوعات التي لم يجدوا ضيرًا من الاتفاق عليها من ناحية عملية المبادلات المعمول بها هنا..

وفي شقة تحمل الرقم (١٨) داخل بناية عملاقة آيلة للانهيار، يتم الاجتماع اليومي، حيث قاموا بتعليق مخطط متآكل اصفر وتهرهر، يحوي طموحهم الشاهق الذي انتووا يوما تسلقه قبيل تناسيه ومن ثم نسيانه برمته، ملصق يصور أربع تفاحات حمر، وقد كتب أسفل كل تفاحة العبارات التالية:

التفاحة الأولى:



تفاحة آدم التي أخرجته من الجنة برفقة حواء..

التفاحة الثانية:

تفاحة (إسحاق نيوتن) التي اكتشف بفضلها الجاذبية الأرضية..

التفاحة الثالثة:

تفاحة (ستيف جوبز) المقضومة، التي تمثل شعار شركة "آبل" ..

التفاحة الرابعة:

؟

رزم لأعداد قديمة من مجلات علمية وبوليسية ثمانينية، مكومة على هيئة مكعبات مربوطة بأسلاك كهربائية مقتطعة ذات ألوان متباينة، وملف لأغنية واحدة فقط دائرة طيلة الوقت داخل حاسوب محمول مفتوح ومغبر، لأيام، لأسابيع، لأشهر، كل واحد منهم يحفظ كلماتها جيدًا، بل وأتقنوا غناءها بذات عقيرة مغنيها الهائمة، ولربما بطريقة أجمل وأعمق وحتى أصدق..

لم يتم بتاتا تغيير أغنية «الجانب الآخر لنوبة الجبل القلبية" لفرقة «الكاذبون»، كانت بمثابة افتتاحية اليوم، وأفضل طريقة لإنهائه..

سُبل عيشهم مقززة، إذ لا اكتراث في كثير من الأحيان لمحتويات لثلاجة - ما عدا التفاح-، أو للإضاءة الفاترة المؤذية للأبصار، فالفتية في قعر الهاوية منذ زمن، واتصالهم بالعالم الخارجي معدوم أو يكاد،



لا يعلمون عنه إلا ما تنقله لهم حواسيبهم، ومحادثات بعض من زبائنهم العابرة الذين يلفقون على الأغلب ما يجلبونه من أخبار، ونادرًا ما يفتحون تلفاز البلازما، فإذا ما صنعوا فللهو ببعض ألعاب الفيديو العنيفة أو المرعبة، إما تتحدث عن جنود "مارينز" من أنصاف الآليين يغزون بقعة ما لقتل سكانها بلا هوادة، أو عن أشخاص يتيهون في أعماق الغابات وفي أعقابهم أشباح دموية أو موتى سائرون..

لا يكنون مودة لأحد أو لبعضهم، كأنهم أعضاء طائفة دينية شبيهة بطائفة (كورتيز) في رواية (جوزيف كونراد) «قلب الظلام"، يُبشرون بالرعب منذ الميلاد وحتى اللحد..

بالنسبة للطعام، فقد يجد أحدهم بقايا شطيرة يعلم الله من أعدها وما محتواها، أو نصف حبة "سنِكرس" ملقاة لا أحد يعلم كيف وصلت لهنا، فيلتهمها متجاهلا الصراصير التي تكاثرت عليها دون أن يجد غضاضة في ذلك.. وكم من مرة التهموا طعاما بائتا في الثلاجة قبيل اكتشافهم أنه فاسد ومتعفن تماما، فلم يتنبه أحدهم لذلك سوى بملاحظة عابرة أثناء الأكل:

- «الطعام مذاقه غريب..»

وقد تجد من يرد منهم على تلك الملاحظة بقوله متبرما:

- «حقا؟ أجد مذاقه عاديًا للغاية!"



- «أتوق إلى تحلية.. بوظة بكداشـية مُصنعة من حليب الأبقار وماء الزهر وثلوج الجبال الدمشقية!»

- «أهي قصيدة؟ وما تكون بالضبط؟"

- «لم تذق بوظة من صالون بكداش العريق في دمشق؟ ضاع نصف عمرك!»

- «لا فارق في ضياع نصفه أو ضياعه برمته!"

- «اشـتقت لصالون بكداش الدمشـقي في سـوق الحميدية، رواده كانـوا يأتون من مختلف البقـاع للتمتع بتراثه القديم، وبأكلاته الشـعبية اللذيذة مثل كشك الأمراء والسحلب والبالوظة..»

- «وما هذا السحلب أيضا؟"

- «أنت تمزح! ألم تشاهد بتاتا فيلمًا عربيا يطلبون فيه السحلب؟"

- «لا أشاهد سوى أفلام البورنو!»

- «السـحلب هو مستخلص من أعشـاب تنمو على رؤوس الجبال السورية والتركية الشاهقة في فصل الربيع..»

- «هؤلاء قوم مخبولون، يصعدون قمم الجبال لجلب مواد لتصنيع البوظة والسحلب بدل المخدرات!"

الثلاجة نفسها مُخزنة بالتفاح الأحمر الذي يحرصون على أن يكون طازجا دائما، يسـتوردونه من البسـتاني قاطن الشـقة رقم (١٢٠)، فهم



على الأقل يحاولون طرد بعض السموم المُخزنة داخل أجسادهم بالطريقة الصحيحة..

***

على شاشة التلفاز البلازمي الذي دُوِّن عليه بعبوة بخاخ «بوية» أحرف عبارة: Dusty Rusty .. قناة دينية معروضة بغير قصد، حيث الداعية الكهل داكن الجبهة يصرخ وهو يهدد بسبابته في وجوه المشاهدين:

- «وقد أعلن الحاخامات اليهود أن "الدش" سلاح هام لتدمير الشباب، لذا أفتوا قبل علماء المسلمين بوجوب حرمانه، وقلما أن يجد اليهودي حاخاما على شاشة تلفازه يظهر لإلقاء موعظة من التلمود، لكن بعضا من علمائنا - سامحهم الله- لا يكتفون بالظهور فحسب، بل وأمام مذيعة لا ترتدي حتما ما يناسب اللقاء!

وفي المدارس أسلحة من طراز آخر.. صارت الهواتف النقالة بمثابة آلات حاسبة، و"المخفي" المعتم على زجاج كل سيارة لكي تقع المعاصي داخلها بكل أريحية، و"الدش" والألعاب الالكترونية المحرضة على الجنس والعنف في كل منزل، و"الشات" في كل حجرة من حجرات مقاهي الإنترنت وغرف نوم المراهقات..



أما الفتى العربي المسلم المثالي الطائع لوالديه وربه، الذي يطالع كتاب الله ويواصل دراسته ويبني مستقبله ويتخرج ليتزوج وينجب، ومن ثم يرقد رقدته الأخيرة راضيا قرير العين، فقد أضحى ضربا من ضروب الخيال، فترحموا عليه، إذ لا بد وأن سلاحا واحدًا على الأقل من تلك التي ذكرناها قد فتكت به!»

الشلة جاهزة للرحلة الجديدة، هربا من كل ما يحيط بها من ترهات..

و(غطاس) ينظر بخواء لشاشة التلفاز البلازمي، حيث الداعية لا يزال يصرخ، فيتناول أخيرًا جهاز التحكم عن بعد، وبضغطة زر أطفأ التلفاز..

- «أشعر بأنه يتحتم عليّ غسل يدي كلما سلمت على إنسان متدين!»

كذا همس بازدراء لنفسه بعبارة "نيتشية" جديدة، كنوع من تطوير الذات..

ثم نظر لأفراد شلته متسائلا بوجل:

- «دور من اليوم في الحراسة؟"



الفصل التاسع

(الـدوك زاهـي) أو (الدوك الأعـرج) كان بارعا عندمـا يتعلق الأمر بإعداد مسـحوق النشـوق الذي يجيد طحنه باسـتخدام خـلاط القرفة، وحاويـا عندما يجهز لفائف سـجائر "ماجيك" المجهزة من الحشـيش الاصطناعـي، التي يخـط على جوانبهـا خطوطا متعرجـة بقلم تخطيط أحمر فسفوريًا، ولما سُئل عن السبب أجاب بعصبية:

- «لكل سـلعة علامة تجارية، وأنا فنـان! لن أترك أعاجيبي ألاعيب بيد كل من هَبَّ ودَب دون توقيع يميزني عن أبناء الكلاب الغوغاء!"

لكن الأهم من ذلك كله هو المادة طبعا، مادة الرحلة المحتوية على أعشاب مجهولة، يضاف لها مواد كيماوية عالية السمية أبرزها الأسمدة والمبيدات الحشـرية، وينتج عنها تفاعلات تعطي تأثيرًا مخدِرًا قاسـيا، وتروج في أكياس بلاستيكية صغيرة..



يحققون أنفسهم بها، وحتى مسدس الحقن كان هو المسئول عن إعداد إبره الفولاذية المجوفة وتعقيمها للاستخدام الآمن..

(الدوك زاهي) يرتدي نظارة طبية معدنية، إثر ذلك صنعت له شمس الماضي بأشعتها - التي يفتقدها أحيانا- نظارة أخرى أزلية باهتة على وجهه الأسمر، فكلما خلع نظارته استغرق الرفاق في الضحك لمنظره الذي يذكرهم نوعا بدب الباندا، خصوصا وأن (الدوك) على شيء من الاكتناز..

***

(الكينغ).. كالعادة كلٌ له لقبه المعروف به وبخاصة في عوالم تجارة المخدرات وقرصنة الحواسيب، فقد ضاعت الأسماء الذكورية الحقيقية منذ زمن، حتى الجوازات والهويات مفقودة حقيقة لا مجازًا، فلا أحد من تلك الشلة يعلم أين جوازه أو بطاقة هويته بالضبط!

(الكينغ) كان الشيف الخاص بالشلة.. هو الذي يخلط الطعام كيفما اتفق، ثم يناول كل واحد شطيرة وتفاحة مع قدح مشروب ساخن، كي يسد فاه الجوع المغفور على الدوام عقب كل جلسة..

كانت بدايته موفقة في تحضير الطعام، ولاحقا، امتزج الملح مع السكر، السردين مع المربى، والقهوة مع الخل، لكن الشلة لم تمانع ما



دام "المزاج" أنجع عون على ابتلاع تلك النفايات، فالمسألة في النهاية "ترميم عظم"!

يزن (الكينغ) ١٥٩ كلغم، وذلك بسبب الحالات العصبية التي تنتابه فتؤثر في غدده، ممتلئ شحما فوق المعدل لشدة إفراطه في الطعام وقلة ممارسته للرياضة، شديد العصبية والتحفز في جلسته، فلا يكاد جفنه الأيمن يكف عن الرف، ولا قدمه اليسرى عن الاهتزاز كذنب حية الجرس..

لديه مشكلة تسرب في اللعاب، كماسورة مياه مكسورة، لا يستطيع نطق كلمة دون أن يلطخ شفتيه بلعابه الرغوي المقزز كأنما يغرق..

❊❊❊

(صفصاف) يمد الشلة بالمؤن اللازمة لإعداد جلساتهم الخاصة، على صلة وثيقة بتجار البناية الهائلة، وينجح بمكاسرتهم دوما في عمليات التبادل التجارية، كما يدبر الزبائن من الشقق الأخرى على خطى مندوب مبيعات محنك، فيقصدون بعدها شقة الشلة للاتفاق على الجرعات العجيبة، كيف يريدونها وما الكمية المطلوبة بالضبط..

يجيد كذلك العزف على الغيتار الالكتروني.. يستخدمه أحيانا كي يشارك فرقة «الكاذبون» أغنيتهم الهائمة..



امتلك آثارًا لتشوهات عبارة عن بقع بنية غير منتظمة لا تحوي حُفرًا أو ندبات على رقبته وكتفه، وذلك إثر سقوط إناء ماء حار عليه وهو في السادسة من عمره، ودائما ما يظل على قميص قبيح من قمصان هاواي البيضاء ذات الفسائل القرمزية – أم تراه العكس؟–، وهو غير مُحتمل حتى بالنسبة لباقي الشلة، إذ لا يكاد يغير قميصه رغم بقع العرق البارزة على الدوام أسفل إبطيه..

***

(غطاس) وشهرته «المختل» كان سيد الشقة..

أبيض البشرة، حليق الرأس، ينظر للأمام نظرة شامخة، فيلوح كقائد اعتاد إلقاء الأوامر، وقد عصم رسغه بساعة سميكة على شكل إكليل جلدي، تلك الساعة التي تتألف من طبقتين، واجهتها العليا ساعة رقمية، والسفلى عبارة عن بوصلة مختلة دوما..

كانت حدقتاه محمرتين، على الدوام، ولا يكف عن دعكهما ليزدادا بذلك احمرارًا وتنفيرًا..

تعلم الصنعة من مُعلم محنك من مجرمي العالم السفلي الذين يمتلكون اسمًا وهميًا، كان يطلق أسماء براقة على صنوف المخدرات لتلاقي الرواج بين فئة الشباب، مثل «سبايس» و«جوكر» و«دريم»، يروج على أنها قانونية، فهي تدخن على شاكلة سيجارة تولج المتعاطي



في سبات عميق، تسبقه حالة من الهذيان وفقدان الاتصال بالواقع الذي يحاولون الفرار منه بشتى السبل..

أدى ذلك الحشيش الشنيع إلى ارتفاع حالات الوفيات، ما أرغم السلطات مؤخرًا على تصنيفها ضمن المواد المخدرة الممنوعة، التي يحاكم مروجها أمام محكمة أمن الدولة بتهم قد تصل - حسب المادة الثامنة من قانون المخدرات والمؤثرات العقلية- للمعاقبة بالأشغال الشاقة المؤبدة لمدة لا تقل عن خمس عشرة سنة، وبغرامة لا تقل عن عشرة آلاف دينار..

المُعلم المحنك لم يكترث لتلك القرارات والعقوبات، مع إدراج الحشيش والماريغوانا ضمن المواد الممنوعة في البلاد، قام هو بإدخال بضاعته المصنعة محليا للأسواق.. مواد كيماوية ذات سمية مرتفعة وقاتلة، على اعتبار أنها مواد غير مدرجة ضمن قائمة الممنوعات، لعبة داهية من ثعلب ماكر مثله، فتلك مواد لا يعرف متعاطيها سميتها وآثارها الجانبية المدمرة..

قال لغطاس وهو يفرك المادة في طبيعتها الأولية بين أصابعه ببطء:

- «مخدر «جوكر» يحوي أعشابا مجهولة تنبت في أرجاء الضاحية المهجورة، ولا زالت مختبرات الأجهزة المختصة تعمل على تحليل المواد المضبوطة وإرسال عينات لمختصين، في محاولات يائسة



لمعرفة ماهية الخلطة لصناعة هذا المخدر.. السر أننا نضيف لها مواد كيماوية عالية السمية، أبرزها الأسمدة والمبيدات الحشرية وسموم الفئران التي بالإمكان تدبرها بمنتهى السهولة، ينتج عنها تفاعلات تمنح تأثيرًا مخدرًا شديد القوة، وتروج في أكياس بلاستيكية صغيرة، وبأسعار مرتفعة تتراوح ما بين ٢٠ إلى ٢٥ دولارًا لأربع غرامات، مقارنة بتكلفتها المتدنية التي تقدر بنحو دينار واحد! يرغم معها مُصنعها على تغيير المعادلة الكيماوية في كل عملية إنتاج جديدة، بحيث تكون المعادلة الجديدة غير مدرجة ضمن المواد الممنوعة قضائيا..»

- «ماذا عن المخدرات الاصطناعية يا مُعلم؟»

- «المخدرات الاصطناعية صنفتها دول على مستوى العالم من المواد المخدرة المحظورة ذات السمية العالية؛ بسبب استخدام مواد كيماوية كفيلة بإدمان متعاطيها من المرة الأولى، فيتحايل مصنعو المخدرات الصناعية بإضافة المواد الكيماوية للتمويه على إدارة مكافحة المخدرات بغية الإفلات من قانون العقوبات، رغم إن خطورتها الرئيسية باحتوائها على مواد سريعة الذوبان في الدهون والنسيج الدماغي، تتسبب غالبًا بضرب الجهاز الدماغي وإحداث جنون مؤقت إلى جانب الشلل..»

كان يفسر كطبيب بارع، وذلك أكثر ما كان يبهر (غطاس)..





للأسف، قبض على مُعلمه المحنك إثر قيام قوات الأمن العام في «إربد» بمداهمة وكر لعصابة صغيرة كان يترأسها، وبحوزتهم مواد خام في إحدى الشقق غير المسجلة، حولوها لمصنع صغير مهمته إنتاج كميات متوسطة من مخدر "جوكر"، لترويجها في الجامعة الأردنية، خصوصا وأن الأسعار بمتناول أياديهم، إذ يصل سعر ست سجائر "جوكر" إلى حوالي ثلاثة دنانير!

حكم عليه بالمؤبد، ووجد (غطاس) نفسه وقد هام على وجهه مجددًا، محتفظا بمعرفة عظمى لا بد من استغلالها بطريقة أو بأخرى..

طاف بالمساجد باحثا عن مكان للمبيت، واضطر للإنصات إلى خطب الأئمة التي استفزته، خصوصا عقب تدشينهم حملات توعوية لمكافحة تلك الآفات على حسب قولهم، رافقتها حملات أمنية ضارية نفذتها إدارة مكافحة المخدرات دفعته للتواري بخوف، استهدفت فيها عشرات المصانع البدائية لتصنيع الحشيش الاصطناعي..

وفي النهاية، لم يجد ملاذًا آمنًا سوى في الضاحية المهجورة نفسها، حيث تنبت الأعشاب المجهولة التي تستخدم في تصنيع مخدرات الحشيش الاصطناعي كما أطلعه مُعلمه، وهي منطقة لم تحاول قوات مكافحة المخدرات يومًا اقتحامها لسبب ما مجهول..

على ذراعيه أوشمة عجيبة لزخارف سوداء أفعوانية مبهمة، وعلى ظهره، دق وشما أسود طوليًا فوق عاموده الفقري مباشرة، يقول وبالانجليزية من الأعلى للأسفل:



When you stare into the abyss.. the abyss stares back into you..

"عندما تحدق في الهاوية.. فإن الهاوية بدورها ستحدق فيك.."

وهي مقولة شهيرة للفيلسوف الألماني الصارم (فريدريك نيتشة)، الذي يستلهم منه (غطاس) دائما، ويقتبس غالب الأحيان من مقولاته في حواراته اليومية، كي يتسنى له تطبيقها في حياته الغارقة في الفوضى أساسا..

كأنه مثل أعلى أو قدوة، لدرجة تعليق صورة هائلة الحجم على الجدار لوجهه حاد النظرات وشاربه الشبيه بفرشاة عريضة لصقل الأحذية.. وإلى جوار تلك الصورة الطولية التي استقاها من الإنترنت بمسافة، ألصق زميله (صفصاف) بوستر عرضيًا تمزق مرارًا وألصق بشريط شفاف مرارًا للممثلة الكندية ضئيلة الشهرة والقوام (سارة غادون)، ساقها اليسرى ذات القدم الحافية والأصابع الدقيقة مرفوعة لفوق..

قال (غطاس) لصاحبه متبرما من هوسه بمحبوبته الخيالية:

- «النساء يرفعن ما هو مرتفع أكثر وأكثر، ويزدن ما هو منخفض انخفاضا!"

لم يفهم (صفصاف) شيئا كديدنه، لكنه خمن بأنها مجرد مقولة أخرى لعينة لفيلسوف (غطاس) المفضل (نيتشة)!



الفصل العاشر

كل ليلة، يتم الإعداد للجلسة بعناية أدق وأهم من أي شيء آخر..

النوافذ مقفلة بإحكام كي لا يثب أحد أثناء رحلة التيهان في غياهب فانتازيا المواد المخلوطة، وقد تعلموا من البرامج والأفلام الغربية القديمة بأنه يتحتم على واحد منهم أن يظل مستفيقا لحراسة البقية، كي لا يصنع أحدهم بنفسه أو بالآخرين كارثة ما..

كذا ذكر لهم (غطاس) وهو يشعل سيجارة "ماجيك" فوق ما يشعر به من صداع:

- «يسمونه (مراقب الرحلة)، أو (حارس الرحلة)، الأجانب الأوباش أبناء الكلاب.. يفكرون بكل شيء، ولديهم دائما الحلول لأي شيء!"



ذات مـرة، أفاقوا ليجدوا (الكينغ) قد أشـعل النار في السـتارة! كان واقفا هنالك بلا تعابير في سـحنته، وممسـكا بمجلة ملفوفة ذات طرف علوي محترق، رفعها كما لو كانت شعلة الحرية!

كادت الشقة تحترق، ولم يتعلموا الدرس إلا في المرة التالية عندما أفاقوا، ليجد (الدوك) نصل سكين مغروز في قدمه!

لم يشـعر بالألم إلا لاحقا، لكنه بات الآن يسـير بعرج وغل، وذلك سبب تلقيبهم له ب(الدوك الأعرج).. الأدهى ألا أحد منهم يعلم لليوم من منهم قد صنع ذلك.. أم تراه أصاب نفسه بنفسه؟

هكـذا، ارتأى (غطـاس) بألا تتم جلسـات المـزاج إلا بواحد منهم لا يزال مسـتفيقا، ولقي قـراره تأييدًا من الجميع، فـلا أحد منهم يرغب بالإفاقـة مـن رحلته السـريالية التالية كي يجد نصلا مغـروزًا في قلبه أو معدته أو مواضعه الحساسة هذه المرة!

***

والآن، يجلـس (الـدوك الأعـرج) علـى مقعـد بالعكـس بذراعيـن معقودتيـن على مسـنده، مراقبا بسـأم رحلات رفاقه الثلاثة، وسـيجارة "ماجيك" مجعدة متدلية من شفتيه الداكنتين..

تم تقسيم أيام الحراسة على الجميع تباعا، هو الأول، يليه (غطاس)، ثم (الكينغ)، وأخيرًا (صفصاف).. وهكذا دواليك..



لا يشـاهد سـوى خلجات طفيفة في أيام مراقبته، فلا يفهم لِمَ كانت تلـك الحـوادث اللعينة تقع فقـط عندما كانـوا يرتحلون سـوية، فحتى الرفـاق لـم يروا شـيئا مثيـرًا للاهتمـام أثناء نوبـات مراقبتهم، باسـتثناء (صفصاف) الذي سـخر من (الكينغ) مرة، يوم شـاهده وسـمعه ينادي والدته بلوعة وهو يمص إبهامه، قبل أن يبلل ثيابه الداخلية كالأطفال!

اسـتخرج (الدوك) من بين شفتيه ثلاث حلقات دخانية، أخذ يرمقها شاردًا وهي تتداخل، محاولا تصور خط سير رحلات الرفاق الثلاثة في الجانب الآخر..

(صفصـاف) علـى سـبيل المثـال، كان يسـتكمل ميعـاده اللذيذ مع (سـارة غـادون).. يراهـا - ككل ليلة يتخـدر بها- وهي تغمـز له غمزة مثيـرة من على البوسـتر الضخم قبالتـه.. تضحك كأنما سـمعت لتوها نكتـة، فيتبسـم بولـهٍ أبله، تمنحـه قبلـة هوائية، فيحـاول تلقيها بشـفتيه اللاهثتين الظامئتين..

ثم تبدأ الإثارة بالتصاعد، ويبدأ قلبه بالخفقان عندما تمد سـاقا بضة ذات أصابـع أقدام جميلة ودقيقـة يحلم بلعقها وبكل بذاءة، تهبط تاركة أريكتهـا الخمريـة المريحة في البوسـتر، تقترب منه فيكاد يشـم شـذى عطرهـا المدوخ، لا يقوى على النهـوض، ولا على إغلاق فمه، يتنفس بصعوبة وهي تدنو منه أكثر..

(الكينـغ) لا يحلم بالفتيـات.. رحلته أكثر بسـاطة، التلفاز البلازمي يشـتعل بغتة ومن تلقاء نفسـه، ليبدأ عرض رسـوم "عائلة سيمبسـونز" The Simpsons القديم والمفضل لديه..

لكـم يسـتمتع بمشـاهدة رب العائلـة البديـن أصفـر البشـرة (هومر سيمبسون).. يحبه كطفل لأنه يذكره بنفسه!

(هومـر) لا يجـد بيـرة «داف» في الثلاجـة، فيصيح صيحتـه الأزلية الطريفة:

- «دوه!»

و(الكينـغ) يقهقه ببلاهة، فيبدأ اللعاب الرغوي اللزج بالتسـرب من طرف فمه شبه المفغور!

أمـا (غطاس) فلـم تكن رحلاته موفقـة على الدوام، وكثيـرًا ما كان يفيق باكرًا قبل الجميع.. كأنه أرق لعين ما، حتى في مسألة الإدمان!

ولعل هذه الرحلة كانت الأسـوأ، إذ ابتدأت بشيء لزج يسيل بطريقة كريهـة ونتنـة علـى جبهتـه.. حسـب أنه صـدم رأسـه الحليقة، ومسـح بإصبعيه الوسـطى والسـبابة عله يرى الدماء فوقهمـا، لكنه وعوضا عن ذلك، أبصر - مشـدوهًا- في المرآة نصف المهشـمة قبالته مشهدًا راعه وبشدة..



كان مخه يسيل كقطران من فرط السخونة! والأسوأ أنه بدا كمخلوق لزج بشع محمر، وليزيد كم الشناعة، خيل لغطاس أن مقلة ضبابية لعينة قد نبتت لمخه! في حين، بدا وكأن الشق الحافل بقطع ضئيلة كأسنان مصفرة عبارة عن فم يتلمظ جوعا! وقد تيقن (غطاس) بأنه كذلك حين لمح شيئا خارجا منه.. قد كان عقب سيجارة "ماجيك" ماركة "الدوك".. يدخنها مخه كما لو كان منتشيا!

***

في تلك الليلة، طرأت مشكلة عويصة أخرت ميعاد الرحلة الجديدة..

فصفصاف يرفض القيام بمهمة الحارس رغم أنها نوبته، وقد تبدت في عينيه الجاحظتين نظرة نهمة آثمة مطالعا بين الفينة والفينة ملصقه الممزق والمتلاصق لمحبوبته الكندية الشقراء (سارة غادون).. وبدا كأن قوة على وجه الأرض لن تتمكن من دحر تصميمه المباغت..

تساءل متضرعا:

- «طيب نجازف هذه المرة فقط؟»

سارع (الكينغ) بالرد وبصره آخذ بالاتساع ممهدًا لإسماعهم مصيبة:

- «لا ينبغي لك قول ذلك! لا مجازفات.. سمعتم بما أصاب (مهدي) من شقة (٦٩٠)؟"



- «لا.. ماذا أصابه؟»

- «ابن الكلب انتحر بإلقاء نفسه من النافذة! وقبلها حاول الانتحار كذلك بقطع شريانه، لكنه نجا لما أفاق ليجد سيجارته لا تزال مشتعلة، فأغمد جمرتها في الجرح.. يبدو وأن رحلته في المرة الثانية لم تكن موفقة كذلك، المادة كانت أقوى منه، لقد رمى بنفسه في العتمة عاريا كما ولدته أمه ليستقر في القعر!"

- «لا شأن لمحاولته الأولى أو الثانية بالرحلة، لطالما كان مشوشا ومكتئبا للغاية، كما سمعت بأن عشيقته تركته عائدة إلى شقة شقيقتها الصغرى دونما رجعة.. تذكرونها؟ تلك المليحة القاصر صاحبة الأنف المفلطح!"

- «أذكرها بالطبع، كان أنفها عيبها الوحيد!"

- «كانت مفعمة بالعيوب، لكن عيبها الأبرز كان أنفها المفلطح.. لن يصمد مقارنة بأنف العذراء قاطنة الشقة رقم (٤٣).. ألا زال الرهان بصددها قائما؟»

- «بالتأكيد.. ولا زلتُ موقنا من ظفري بها في نهاية المطاف!»

- «أنت؟ يا لك من..»

- «حجر ورقة مقص!»



راقبت الشلة سحنة (غطاس) بانعدام فهم كلي، ودمدم (الدوك الأعرج) بكلمات متهكمة عن مدى خبله وجمله الجنونية التي يتفوه بها طيلة الوقت..

لكنه أفهمهم بأناة أنها لعبة رهان كانت تمارس في زمان غير زمانهم، أو إنه كان زمانهم قبيل صدمة الدنيا لهم بالكبر، فالأطفال مارسوها قبل أن يكبروا ليتناسوها..

وبتمثيلية سريعة وضح لهم:

- «الورقة تهزم الحجر، الحجر يهزم المقص، المقص يهزم الورقة!"

راقهم ذلك سريعا، فقرروا تنفيذ اللعبة بحماسة..

المشكلة أنهم كانوا أربعة، ولدقائق مارسوا اللعبة غير فاهمين لشيء، وتصايحوا في كل دور بأن ثمة فائز له مبرراته: «ألم تقل أن الحجر يهزم المقص؟ الحجر يهزم الورقة أم تراه العكس؟»

أثناء ذلك الصخب، تصاعد صوت جرس الباب الشبيه بأزيز ضار لدائرة كهربائية قبيل احتراقها..

تحرك (الدوك) بخطواته العرجاء أخيرًا وبضجر صوب الباب ليرى من هناك، فشاشة المراقبة معطلة، ولم يكلف أحدهم نفسه عناء إصلاحها لعدم جدوى ذلك..



كانوا لا زالوا يتجادلون بشـأن اللعبة السـخيفة، عندما عاد (الدوك) وهو يشير للخلف بإبهامه، مخاطبا (غطاس) بجفاء:

- «ثمة (عماد) على الباب يسأل عنك!»

- «ماذا قلت؟»

- «(عمـاد).. لعلـه زبون.. ولكن يبدو وكأنه يعرفك، إذ سـأل عمن يدعى ب"المختل".. ألا تعلم من يكون بحق السعير؟»

- «أتساءل عن طريقة سير الأمور في تروس مخك الصدئة!»

- «دعـك من تروس الأمخـاخ الصدئة وقل لي.. هـل توصلتم إلى نتيجة؟»

- «بشأن ماذا؟»

- «بشأن حراسة رحلة الليلة..»

- «أخبرتكم أن الورقة تهزم الحجر..»

- «وأنا استخدمتُ مقصا يهزم ورقتك اللعينة.. «

- «هآي.. ماذا عن ذاك المدعو (عماد)؟"

- «عن أي (عماد) تهرف؟»

- «ذاك الذي ينتظرني عند الباب يا أحمق.. ماذا يبغي؟»

- «وما أدراني ؟ اذهب واسأله!»



- «أوف! الرسـالة لهي زيارة غير معلنة، وسـاعي البريد هو رسـول المفاجـآت الفظـة، عليك أن تخصص سـاعة واحدة في الأسـبوع فقط لاستلام الرسائل، وعقب ذلك عليك بالاستحمام!»

- «بحق جهنم.. بم تهرف بالضبط؟»

- «أو كما ذكر (نيتشة)! لا عليك.. أيها الأحمق عديم الجدوى ابن ال..»

وبخطـوات متثاقلـة وأناملـه لا تـكاد تتوقـف عـن دعـك مقلتيـه الملتهبتين، سار (غطاس) نحو الباب مقررًا طرد الزائر بأقسى ما لديه.. حتما هو مجرد زبون مزعج آخر..

كان البـاب مواربا، ففتحه (غطاس) وكأنـه ينتزعه من محله انتزاعا، قائلا بأقسى نبرة وهو يسدد ببصره نحو الزائر دونما اكتراث:

- «نعم؟"

❊ ❊ ❊

جل ما يعلمه (عماد) حاليا أن ضالته المنشـودة في واحدة من شـقق هـذا الممـر الطويـل جدًا والقـذر لهـذه البنايـة الهائلة الآيلـة للانهيار، وتحمل الرقم..

- «١٤. ١٥. ١٦. ١٧..»

وتوقف..



الشقة رقم (١٨).. هذه هي أخيرًا!

ضغط زر جرس الباب بسبابة مصرة وبإلحاح جنوني..

هنا، انفتح باب الشـقة ليظهر على عتبته فتى على شيء من الاكتناز، يرتدي نظارة طبية معدنية..

- «ماذا تبغي؟ ألا تعلم كم الساعة الآن؟»

- «أبحث عن شخص ما..“

- «لم أسمع به..!»

- «انتظر، لم أذكر لك من يكون! عموما.. شهرته (المختل)!“

- «ومن حضرتك؟ صديقه المقرب؟»

- «تقريبا! أدعى (عماد).. فقط أخبره..»

- «لحظة..»

قالها بتنبلة وغاب مدة..

كان الباب مواربا، ومن ثم تصاعد أخيرًا صوت خطوات تقترب..

واتسـعت فرجة الباب بعصبية وكأنه ينتزع مـن محله انتزاعا، ليظهر شـاب حليـق الـرأس أبيض البشـرة عـاري الجـذع حافـي القدمين، لا يرتدي سـوى سـاعة سميكة على شـكل إكليل جلدي، وسروالا جلديا أخضر، وقد وشـم أجزاء من ذراعيه وجسـمه بعبـارات بالانجليزية مع



بعض الزخارف الفنية المبهمة الأخرى، قائلا بأقسى نبرة وهو يسدد ببصره المحمر نحو الزائر دونما اكتراث:

- «نعم؟»

ولم يسترسل أكثر..

لم يقدر على الاسترسال حتى وإن أراد، إذ أفعم نور أبيض ساطع أرجاء المكان حتى أيقن من فقدانه لبصره تماما!

لم يكن أبيض كاملا، فقد تخللته درجات متباينة من الوردي والزهري، شرح ذلك متعسر، فلو كان فتاة لأدرك الفارق، فهن يصنفن درجات تلك الألوان بمسميات يألفنها.. الذكور يرون تلك الألوان إما وردية أو زهرية، أما الإناث فلديهن مسميات عجيبة لكل درجة باهتة كانت أم داكنة.. «روج»، «فلامينغو»، «ويلزي»، «نحام»، «كورال»، «سلمون»، «خجول»، «مرجان»، «خوخ»، «شليك»، «خف باليه»، «ليموناضة»!

- «أنت؟!»

- «أنت؟!»

- «يا له من حلم! أنت؟ عقب كل تلك السنين الطويلة؟»

- «أهي صدفة فحسب؟»

- «هنا؟ لا أظن!»

تذكر (عماد) لائحته الخاصة بأمنياته، تلك التي دوَّنَ فيها رغباته المتعلقة باقتناء كلب، والزواج بألمانية، وإنجاب طفلة شقراء مثقفة، والعيش في معزل طبيعي عن باقي البشر، في اسكتلندا على الأرجح.. كان قد دوَّنَ في تلك اللائحة كذلك رغبة متعلقة بإيجاد صديق الدراسة القديم والشقي يوما!

- «هل بإمكانك دعوتي للدخول؟"

أفاق (غطاس) من الذهول ومن دوامته متباينة الألوان، ثم وبشرود ذهن تام دمدم مجيبا لا أحد:

- «تفضل!»

ثم ألقى برأسه للوراء، هاتفا كالمغيب ولعابه يسيل في خط متعرج على ذقنه:

- «زبون جديد يا رفاق!»





الجزء الخامس

ذاكرة الدخلاء





الفصل الحادي عشر

حلاقات غالبية الطلبة تبدت أقرب للألعاب الأولمبية، حيث تفننوا برسم أشكال كالشعارات الرياضية على رؤوسهم بأمواس ومكائن الحلاقة، كانت رؤوسًا شبه صلعاء بكتابات من الشعر..

- *«يوما ما، سنجد الطالبات يرتدين في مدارسهن كما لو كن من الناشطات في مظاهرة من مظاهرات "بيتا" العالمية..»*

- «بيتا؟»

- «ستروقك حتما! تلك الجمعية تمثل كل شخص إنساني يطالب بالمعاملة الأخلاقية للحيوانات، عشرات منهن ارتدين في إحدى مظاهراتهن ما قل ودل من الملابس، وقد غطين رؤوسهن بقبعات ضئيلة أو ضخمة من الفرو الصناعي، بعضهن اكتفى بالصدريات الملونة، والبعض الآخر ظل من دونها!»



- «سيكون مشهدًا جميلا ومسليًا لو حصل على أرض واقعنا المضجر!"

لا زالت أفواج الطلبة محتشدة في الأروقة، يتسكعون في نهار لا يمتلك مذاقا طبيعيا لشدة كآبته، المدرسة تبدت كاملة العدد، ومئات الطلبة يترددون هنا وهناك كالمعتقلين، في الفصول يبحثون عن مقاعد شاغرة لاجتماعاتهم غير المتعلقة بالدراسة، والكل يُظهر حماسة عجيبة، كما لو كان ثمة تعايشا بين كل تلك الفئات المتباينة..

المكان لا تكفي كلمات لوصفه، ليس لأنه معجزة أخاذة تدفع رسامًا لتجهيز أدواته كي يخلده في لوحة، اللهم إلا لو كان رسام جداريات من نوعية "غرافيتي"!

تساءل (غطاس) متفلسفا وأنامله المطبقة على عقب السيجارة الملفوفة يدويا تُناولها بطريقة مهزوزة قليلا ل(عماد):

- «لماذا هيدروجين الماء؟"

أظافر (غطاس) كانت مسودة بصورة لافتة، وقد تأملها (عماد) شاردًا وهو يلتقط طرف عقب السيجارة بحذر، مصغيا بنصف ذهن لثرثرة صديقه:



- «هيدروجين الماء اللعين، لِمَ ندرسه بحق السعير؟ نعيد ونكرر بعدد حبيبات التبغ داخل هذه السيجارة المُسقمة، ونؤكد بأنه سيكون العنصر المؤدي لمصدر الطاقة التالي..»

- «مصدر الوقود الجديد، لا طائل من الطاقة الشمسية رغم كثرة المزاعم بشأنها، ووداعا عما قريب للنفط!»

- «والأستاذ (باهي) يتحمس كلما شرح طرائق إدخال مادة لعينة محفزة في الماء، لإحداث تفاعل كيماوي عن طريق التعرض لأشعة الشمس المبتذلة، لاستخلاص هيدروجينه اللعين القابل للاشتعال..»

- «لربما يحلم بالوقود الهيدروجيني اللازم لتشغيل سيارته الخردة!»

- «أتعلم ما أتمنى دراسته؟»

- «ماذا؟»

- «تخيل معي سؤالا كهذا في الامتحان النهائي: ماذا يمكن أن يحدث لو إن أحدهم قام بقتل شخص هو في الواقع أحد أجداده؟ هل سيولد ويخرج لهذه الحياة السقيمة؟ أم سيُحدِث خللا زمنيا خطيرًا يدفعه للتلاشي؟»

- «سؤال عظيم، لكنه مخيف.. وعموما فقد أجاب عنه كتاب الخيال العلمي، ليست إجابة قاطعة حتما لكنها تفي بالغرض..»



- «ألا وهي؟»

- «ظهـور خط زمني جديد، تدور فيه أحـداث جديدة، بغض النظر عما ارتكب!»

- «يا للإجابة المتقاعسة!»

- «إذن، أحسب أنه سؤال سيدفعنا للرسوب كذلك!»

- «لكنه سؤال رائع.. ولربما كانت دراسة إجابته لأمتع بمراحل من معلومة واحدة تخص هيدروجين الماء اللعين!»

***

اعتبر (عماد) صديقه (غطاس) الطرف الأهم الذي يراسـله برسائل تعبر عن شعوره، سواء أكان رأيًا، أو اتجاهًا، أو حقيقة، ويرغب بإيصال تلك الرسائل إليه كاملة كي يدرك ما يشعر به بالضبط..

وقـد كان (غطـاس) يقـوم بتلـك المهمة علـى أكمل وجـه، كما لو كان عقلـه يقوم بإجراءات وضع الأفكار المرسـلة إليـه على هيئة رموز سـريعة، ومن ثم يختار الأسلوب الأنسـب للتعبير، عبر كلمات وجمل أو حتى إشـارات بتلويح اليد وأرجحتها كلغة الصم والبكم، ولربما من طريقة نفثه لدخان السيجارة..

ثم يقومان سـوية بترتيب الأفكار والخواطر بصورة متسلسـلة، لكي تتكون لديهما رسـالة جاهزة لما يفكران به، وما إذا رغبا بتنفيذ خطة ما،



كما صنعا حين كانا في الفصل، وتبادلا إشارات خاطفة بالنظر والأيادي من وراء ظهر الأستاذ (باهي)، مفادها الفرار من المدرسة اليوم عقب حصة الهيدروجين شديدة الإملال!

تبادلا رموزًا مفهومة ومألوفة لديهما، وبدا التفاهم كاملا، لم ولن يجازفا يوما بملحوظات مدونة على الورق كونها أدلة ذات إدانات ساحقة..

عقب انتهاء الحصة هرعا لدورة المياه، فخيار تسلق جدار المدرسة ليس متاحا نظرًا لدوريات المراقبة المؤلفة من المدرسين المتفرغين بقيادة نائب المدير، ثمة رقابة شديدة أقرب للحراسة الأمنية الخاصة بمعتقل سياسي، لذا توجب عليهما استخدام نافذة دورة المياه الضائقة..

انحشر (غطاس) كما هو متوقع، كان يماثل عمادًا في البنية الجسمانية الناحلة نوعا، لكن أكتافه أعرض، وحين ابتدأ (عماد) بدفعه من الوراء اشتم رائحة نفاذة لعطر ما بعد الحلاقة وقد خالطه عرق غزير، فهمس محاولا كتم صوت قهقهته:

- «بتَ تحلق ذقنك؟»

- «بل رأسي! ليس هذا وقت التفكه.. أخرجني بسرعة من هنا!"

- «انطق كلمة السر..»

- «بسرعة يا مغفل!»



- «سمعا وطاعة!»

تحـرر (غطاس) بمشـقة، واندلق (عمـاد) من النافذة الشـبيهة بكوة بكل يسـر بعدمـا رمى بحقيبتـه وحقيبة صديقـه عبرها، كان قلقا بشـدة على مجلاته البوليسية بداخل الحقيبة والتي واراها بحرص بين الكتب الدراسـية، وتنفـس الصعداء حين مر مـن النافذة ليجـد (غطاس) يرفع الحقيبة على ظهره برفقة حقيبته..

تناولهـا منـه بامتنـان، ثـم ابتعدا مسـافة عن أسـوار المدرسـة وهما يتبـادلان أطـراف الحديـث عن مـدى الفـارق الكبير في مـذاق كل من القهـوة الايطاليـة المُركـزة الغامقة والأمريكيـة ذات النكهـة المخففة، وكيفية قيام (عماد) بتمزيق كل الإعلانات من مجلاته البوليسية، شاتما تلك الفكرة الحمقاء التي تفسد عليه متعة المطالعة..

لم يرتديا تلك الأزياء الموحدة اللعينة لحسـن الحظ، زي المدرسة الرسـمي كان أسـود مرصعًا بـأزرار كثيرة بيضـاء، ياقته بيضـاء كذلك، وقماشـته من "البيكيه" المخطط، والسبب هو تساهل الإدارة معهم في الأسبوع الأخير من العام الدراسي، قبيل بدء امتحانات آخر السنة..

ذكـر (غطـاس) بتفلسـف متصنعـا الرزانـة مصطلـح "المتغيـرات الديموغرافيـة"، وحيـن سـأله صديقـه عن ذلـك، أجابه أنهـا متغيرات تخـص العمـر والجنس وحجـم الأسـرة والوظيفة ومدخولهـا، وحين



سـأله عن علاقة ذلك بالإعلانات في المجلات البوليسـية، صدع رأسه بنظريـة أخرى أقـرب لنظريـات المؤامرة، عـن دراسـة الحكومة لتلك المتغيـرات بهـدف دس الإعلانـات في كل شـبر، حتى فـي المجلات البوليسية ومجلات الأطفال..

- «ألا تعلم أن ثمة صلة وثيقة ما بين سياسـة الحكومة، والمقومات الديموغرافية، ومعجون الأسنان كولغيت؟“

- «لا أعلم، ولا أريد أن أعلم..“

- «الجاهـل عدو نفسـه.. وهذا زمـن صعب، زمن تافـه، يمر بحالة اكتفاء ذاتية من التافهين والجهلاء!“

ضحك (عماد) قائلا وهو يضرب كفا بكف:

- «لا أستطيع فهم أسباب صعوبة عيشك في زمن التفاهة..

اللهم إلا لو كنتَ تمتلك عقلا رصينا!»



الفصل الثاني عشر

امتلك (غطاس) تاريخا أسود مع التسمم العرضي..

ففي صغـره، ابتلع كثيرًا من المواد الكيميائيـة المنزلية، كالمنظفات وسـوائل الوقـود والدهـان والمبيـدات الحشـرية وقاتلات الأعشـاب الضارة والأدوية، إذ أراد الظفر بموهبة ما خارقة!

ظفـر عوضا عن ذلك بعـددٍ لا يحصى من عمليات غسـيل المعدة، كان كابوسا متواصلا بالنسبة لوالديه، وبسببه اضطرا لابتياع خزانة متينة لاحتـواء المـواد الكيماويـة، ذات قفل غير هين الكسـر كـي لا يرتحل وحيدهمـا للعالم السـفلي إثر حماقاتـه المتكررة التي واصـل ارتكابها ما بين الشـهر التاسـع والسنة الخامسـة من عمره، ولحسن الحظ أنه لم يتناول شيئا من منظفات المصارف الكاوية..



شعرت والدته أن لديها واجبا على درجة عالية من الأهمية والخطورة، وهو ألا تدير ظهرها للحظة واحدة أثناء استخدامها للمنظفات المنزلية، وإلا التفتت لتجد ولدها وقد تسلل بخفة لص من دون أن تشعر، وعكف على اجتراع قنينة منظفات تستخدمها لتنظيف بقع السجاد!

إذا تركته وحده في المطبخ وهرعت للباب استجابة لصوت قرع الجرس أو لرنين الهاتف في غرفة المعيشة، ومن ثم عادت، وجدته وقد مدّ يده الصغيرة - آنذاك - لأية قنينة منظفات على الطاولة أو علبة دواء، لم يتعظ رغم عشرات عمليات غسيل المعدة، ورغم شعوره بحرقة شديدة في فمه وحلقه ومعدته إثر ما قام به من حماقات، وعقب انقضاء سنوات من آخر حادثة، احتاج لجلسات متعددة من المعالجة الطبية، تخللتها عملية إنزال أنبوب مطاطي في حلقه المتخرش، للحيلولة دون انغلاقه وهلاكه اختناقا..

كبر (غطاس) وقد كف أخيرًا عن ابتلاع تلك السموم المنزلية، لكنه عانى من احمرار ظل حول فمه وسيلانا لعابيا وتعسرًا في البلع، وباتت السموم الوحيدة التي يتناولها محتشدة في سيجارة يقوم بلفها بنفسه، وحين يأخذ حاجته منها يقوم بتمريرها لصديقه (عماد)..







بالنسـبة ل(عمـاد)، فقد اكتسـب معرفـة صديقه إثر حادثـة تعاطف جمعتهما في فسحة المدرسة في السنة الإعدادية الأولى، حيث أخرجه أسـتاذ الرياضيـات لحل مسـألة علـى السـبورة قبيـل دقائق مـن انتهاء الحصة، فابتدأ (عماد) يكتب بصعوبة وقد عجزت أصابعه عن التشبث بالطبشـورة الحمـراء، لم يكن فاشـلا فـي الرياضيات بـل على العكس تمامـا، لكـن رهبته من الأسـتاذ وكل تلك الأعين المسـلطة على ظهره أصابته كعددٍ من السـهام القاتلة، فتبـدت الأرقام مهزوزة ويده لا تكف نهائيا عن الارتعاش..

اكتملـت المأسـاة فصولا حيـن ضحك الطلبـة وأطلقـوا عليه لقب "رعشة"، كانوا يطلقون على الجميع ألقابا، لا فارق بين طالب وأستاذ، أسـتاذ الرياضيات نفسـه نـال لقب "الموزة" نسـبة لعصاه التـي لطالما احتملهـا كطفلة مدللة ولفها بشـريط لاصق مصفـر، وهنالك طلبة نالوا ألقـاب أكثر عجبا، مثل "الإبـط النتن"، و»المنخر النـازف»، و»الرأس المصروع"، فتشعر أنهم قبيلة مهتاجة من الهنود الحمر!

لم يعاقبه الأستاذ لأن الحل كان صحيحا، بل استخدم أسلوبا بغيضا حيـن أمره بفتـح يده، إذ قرر معاقبتـه بكل الأحوال كما لـو كان يحاول إرضاء تلك الزمرة من طلبته الصعاليك الذين أرادوا رؤية شـيء مسل بحق، وتحجج بأن قال مستهترًا:

- «حتى لا ترتعش أمامنا في المرة القادمة!»



كان لذكـر "أمامنـا" تلـك وقـع المـرارة في نفـس (عمـاد)، كما لو كان مدرسـه وأولئـك الطلبـة - الذين مـن المتوجـب أن يكونوا زملاء متعاطفيـن- زمرة واحدة، هدفها السـخرية منه وإحالة حياته الدراسـية لجحيم..

في الفسـحة، دنـا (غطاس) من الفتـى المرتعش، وبتؤدة قدم نفسـه بطريقة جد لافتة:

- «لا تتضايق كثيرًا وكن مسـتهترًا، قم بعـزل كل الأحداث البغيضة عن ذهنك، وكوِّن اتصالا من تلكم الاتصالات المباشرة التي قد تحدث بين شخصين أو أكثر نتيجة ارتباطهما بعلاقة اجتماعية.."

- «ماذا؟ كالصداقة؟»

قالهـا (عماد) كما لـو كان يبصق بازدراء، فابتسـم (غطـاس) مردفا بثقة:

- «بداية لا بأس بها ولا ضير منها، لسُـت من أتباع المؤسسـة، ولن أستفيد فائدة مادية منك أو حتى جنسية!"

- «ماذا تعني؟»

- «تناسى الجزء الأخير، ونصيحة مني تذكرها بجل الاهتمام، حين تقصد دورة المياه في هذه المدرسة تأكد من خلوها..»

- «خلوها من ماذا؟»



- «مـن الصراصير.. مـن أبناء الكلاب بالطبع! ماذا كنت تحسـب؟ كما يتوجب عليك الحذر من ذاك الفتى!"

وأشار إلى طالب أسود عكف على تجرع مشروب "شاني" الغازي من عبوة معدنية حمراء بنهم، ومن ثم، تجشأ بعقيرة ضوضائية لا مثيل لقوتها!

قـال (غطـاس) مـا قاله بجديـة مسـتخرجا من جيبـه عبوة مـن علكة "مينتوس وايت" الخالية من السكر، عرضها على (عماد)، فتناول حبة..

- «شكرًا على النصيحة.."

- «لا شكر على واجب.. هل لي أن أسألك عن حيوانك المفضل؟»

- «أستميحك عذرًا؟"

- «حيوانك المفضل.. ما يكون؟»

- «أحس أنه الكلب!»

- «خيار جيد.. أنا من أولئك الذين يستخدمون شتيمة "ابن الكلب" كثيـرًا، أجدهـا مرضيـة لـلأذن جـدًا، علـى الأقل هـي أرحم مـن "ابن الساقطة».. أرجو ألا يكون ذلك مزعجا بالنسبة إليك..»

- «لا عليك..»

- «أفضـل القـرش علـى الكلب.. ليسـت أسـماك القـرش الحالية الضئيلـة، بل تلك - مهيبة الركـن - التي غزت المحيطات يوما بأحجام مهولة قريبة من أحجام الحيتان.. هل شاهدت فيلم الفك المفترس؟"



- «لا.. لكنني شاهدت فيلم «كوجو».. كان بالغ الرداءة، خصوصا وأنه يسيء للكلاب بشدة!»

- «شيء طريف يا محب الكلاب.. انصت، أترغب برؤية شيء مثير؟"

- «أظن!»

هنا، استخرج (غطاس) لسانه الطويل عن آخره، فتقلصت ملامح (عماد) اشمئزازًا وانبهارًا بآن واحد، إذ كان اللسان شبه مسود!

رشق ذهنه بخاطرة كالسهم، عن الطبيب حين كان يطلب منه في العيادة إظهار لسانه للتأكد من مدى قرمزيته، وبذلك يتأكد من حالته الصحية إن كانت سليمة وطبيعية.. اللسان الشاحب ينم عن وجود فقر دم، أما الملتهب بحمرة قانية فقد ينبئ بداء "البلاغرا" أو الحصاف، ولحسن الحظ أنه مرض نادر غير معدٍ لأن اسمه مفزع بما فيه الكفاية..

أحيانا، يظهر لطخ أبيض على اللسان وسببه الخمج الفطري، وأحيانا تظهر بقع شعرية بنية تكون ناجمة عن التدخين، وتلك الأخيرة كثيرًا ما كانت تظهر له..

لكن اللسان المسود كان شيئا فريدًا ومختلفا، ولم يكن (عماد) بحاجة لأن يكون طبيبا كي يخمن أنه شديد السوء كذلك، وتساءل - في سره- عن كيفية نطق زميله بلسان مفزع كهذا دون أن يتلعثم بحرف واحد!



الفصل الثالث عشر

أسدل (عماد) غطاء السترة فوق رأسه المغطاة بقبعة حارس المرمى سلفا، وعَـدَّلَ مـن وضعيـة النظـارة السـوداء علـى عينيه، ثـم وبعقيرة متماسكة ترنم بالانجليزية:

- «أولئك الذين يتمنون اتباعي..

أرحب فيهم بكلتا يديّ..

والشمس الحمراء تغرق أخيرًا نحو التلال الذهبية..

والسلام لهذا المحارب اليافع من دون دوي الأسلحة..“

التقط (غطاس) طرف الخيط، فأسرع يترنم بحماسة محتدة كمطربي الراب وهو يلوح بإبهاميه وسبابتيه مقلدًا:

- «إن كنت أقدر على تذكر ما قبل أيام الحي..

فسأجلس وأستغرق مفكرًا في نعمة الأيام الخوالي..

أتوقف وأنظر نحو اليافعين..



فؤادي معهم، فهم يعانون الضغوطات..
وفي هذه الأيام الأشياء تغيرت..
الكل يخجل من الشباب لأن الحقيقة تبدو غريبة..
وبالنسبة لي فالأمر معكوس..
تركنا لهم عالما ملعونا، وإن هذا المؤلم..
لأنهم في أي يوم سيضغطون الزر..
وجميعكم مدانون.. مثل (مالكولم إكس) و(بوبي هوتن).. ماتا للاشيء..
ألا يجعلك ذلك دامع العينين؟ العالم يبدو كئيبا..
وعندما تمسح عينيك سترى ذلك بوضوح..
لا سبب هنالك للخوف مني..
إذا أخذتَ وقتك للإنصات إليّ، لربما ستتعلم كيفية تشجيعي..
إنه ليس عن الأبيض والأسود، لأننا بشر..
أتمنى أن نبصر النور قبيل تهدم كل شيء.."
ثم صاحا سوية وبعقيرة مشتركة حماسية:
- «إنجيلي الخاص بالغيتو!»

❋❋❋

يعشقان سماع أغاني مطرب الراب الراحل (توباك شاغور)، لكنهما يكثران التجادل بشأن كيفية رحيله عن عالمنا.. (عماد) يعتقد أنه قتل



في صراع عصابات معتاد، أما (غطاس) فيؤكد أنه قتل لأجل قضية عادلة، وبأن عملية قتله كانت مدبرة، تماما كما وقع مع (مالكولم إكس) و(مارتن لوثر كينغ)..

- «هل تعلم بأن رماد جثة (توباك) تم مزجه مع الماريغوانا وتدخينه من قبل أعضاء من فرقته؟"

- «هذا.. مقزز!»

- "بل شاعري.. إنجيله الخاص بالغيتو.. كان (توباك) يسوعًا أسود البشرة!"

- «هذا تجديف!»

- "تبا لك ولمن يكرر مثل تلك المصطلحات المستفزة! المناجاة الذاتية مع الله لهي أصدق من صلوات الرياء.. يا أحمق!»

أحيانا، يسترسل (غطاس) في تحليل التجزئة الاقتصادية بحسب الطبقات، لدرجة تقييمها من ناحية سلوكيات الشراء، يمتعض حين يطرح أمثلة من نوعية أنثى مترفة على رأس المقياس الاجتماعي تميل للأناقة الباهظة، أو مترفا يبتاع أو يبدل كل سنة سيارته، حيث يقارن الطبقة المترفة مباشرة بالمسحوقة التي تعاني شظف العيش، دون المرور بالطبقة الوسطى حتى، كما لو كان نصيرًا للعدالة يحاول تبيان مدى الظلم الحاصل بين الطبقة العليا والطبقة السفلى..



- «قد تسخر مني لكننا في متاهة، من بناها انتوى منع التنمية الاقتصادية للكل، فمتاهته عبارة عن حلقات مفرغة للتخلف، متجسدة في تفاعل قوي ومستفز على نحو دائري، وذلك للإبقاء على الفقر والتخلف بلا مخرج، فخصائص الفقر والتخلف مرتبطة بعضها مع البعض، وتتفاعل فيما بينها بشكل دائري كدوامة لا قعر لها ولا منفذ منها!»

يطرح أمثلة ناضجة لكن بحماسة الشباب، ينتقل من موضوع لموضوع مناصرًا العدالة دائما.. المتزوجون حديثا بحاجة لأثاث كامل بسيط لتكوين عش الزوجية، وفي طبقة أخرى لا ينقصهم حمام سباحة في فيلا على قمة هضبة خضراء، باردة لحد الإنعاش حتى في أيام الصيف!

- «أتعلم ما العلاقة بين الصابون النابلسي وصابون دوف؟»

- «لا..»

- «كلاهما.. صابون!»

يضحك (عماد) لسبب بسيط، إذ حسب السؤال تحليلا طبقيا جديدًا، فلم يتخذها كطرفة بلا جدية..

- «لم أقل ما الفارق، بل ما العلاقة.. معرفة العلاقة أسهل بكثير من تخمين الفارق!"



- «وأنا أقول: كف عن التفلسف وواصل الهدم كالكادحين!»

سال عرق (غطاس) وهو يهوي بالمعول على الجدار متسائلا:

- «ما أسوأ كابوس رأيته؟»

شعره كان مرسلا، لكن غزارة العرق جعلته متجعدًا وقد خالطه الغبار ليبدو كعمال المناجم، في حين، أجابه صديقه لا هثا:

- «كان كابوسا غريبا للغاية، طهاة من مختلف أنحاء الوطن العربي يعكفون على صنع أطول وأضخم ساندويتش في العالم برمته، وذلك كي يسجلوا رقما قياسيا جديدًا يؤهلهم لا حتلال حّيز ضئيل في موسوعة "غينيس" للأرقام القياسية!"

- «هذا كابوس؟ هذه نكتة!»

- «صبرك عليّ.. الطهاة كانوا بالعشرات، يحشون بحماسة جوف الشطيرة بمختلف أنواع الخضراوات، وبكافة صنوف اللحم والدجاج وحتى التونة، ثم يصبون غالونات من.. من.."

- «من؟»

- «من المايونيز!»

- «يا للقرف!»

- «ليس هذا فحسب! فحين فرغوا أخيرًا من إعداده، دبت فيه الحياة! في الساندويتش البالغ طوله أكثر من ٤٧ مترًا، تحرك كثعبان



أناكونـدا لا مثيل لطوله وعرضه، وابتدأ يلتهم جميع الطهاة الذين قاموا بصنعه!"

- «كابوس مضحك!»

- «لـم يكن كذلك، قد يكـون الوصف مضحكا، لكن صدقني، كان منظـره مرعبا، خصوصا بكل ذلك المايونيز المتسـاقط من أحشـائه، إذ كان يعمل كسائل حمضي يُسرع من عملية الهضم!"

وتوقف (عماد) لالتقاط أنفاسه قليلا متسائلا:

- «ماذا عنك أنت؟»

- «لم يكن كابوسا بالضبط، لكنه أخافني لغرابته.."

- «أثرتَ فضولي.."

- «كنتُ أرتدي حلة سـهرة شـديدة الأناقة، وقد تأبطت ذراعي فتاة سمراء شديدة الحسن.."

- «لا توجد سمراء حسناء، الحسن للبيضاء دائما!"

- «من العبقري الذي قال ذلك؟»

- «والدي..»

- «والدك أحمق! المهم، سرنا سوية على سجادة المشاهير الحمراء ليلا، وشـققنا طريقنـا وسـط عشـرات الوجـوه السـينمائية المعروفة،



الغريب ألا صحافة هناك، لا كاميرات تصوير، ولا جماهير محتشدة من المهووسين، كان المكان مهجورًا كهذه الخرائب.. إلا من أولئك المشاهير!

ثم لاحظت تلوث أحذية الجميع والأجزاء السفلية منهم، نظرت للأسفل فوجدت السجادة الحمراء عبارة عن مسحوق رملي أحمر يميل للصفرة قليلا، كان هذا قبيل تحوله إلى سواد بترولي تفوح منه رائحة حمض كبريتي نفاذة، وتصاعدت الأبخرة قبل أن تبدأ أرجل الجميع بالغوص داخل تلك المادة الكريهة، ولحسن الحظ أنني أفقت قبيل غرقي مع الجميع، إذ تصايحوا برعب لا مثيل له، ونظرت لأجد الفتاة السمراء قد غرقت، فلم يتبق منها سوى يد مرفوعة ومفتوحة لفوق، ميزتها على الفور كونها مرتدية سوارًا فضيا رفيعا!"

- «كل هذا الرعب ولم يكن كابوسا بالضبط؟»

- «كان غريبا..»

- «بل كان مخيفا يا صاحبي.. كان مخيفا!»

***

تباشير الصيف..



رغم حرارته يحبذان استكشـاف مكان مهجور معزول، تركه البشـر هربا من شـيء ما مجهول، فلا اكتـراث لحرورة الطقس ورطوبته، فبين أي جـدران مهجـورة مـلاذ بطبيعة ظليـة، والأحضـان الجدارية نصف المتهدمة كفيلة بعكس مسارات أشعة الشمس اللاهبة..

لم يقصدا خرائب تلك المدرسة المهجورة على الفور، لأن (عماد) لم يسمع بها قبلا..

أطلعـه (غطـاس) علـى بعض مـن أسـرارها، فخياراتهمـا محدودة فـي هذا التوقيت الدراسـي، ليـس بإمكانهما قصد السـينما مثلا فهي لا تعرض أفلاما الآن، والعودة للمنزل ليس خيارًا متاحا حتما!

إمضـاء الوقت لحين انتهاء الدوام الدراسـي، ثلاث سـاعات متبقية يجب أن تمر بوسـيلة ما دون أن يلمحهما أحد من ذويهما، سـيارة والد (غطاس) قد تمر بهما، فهو يشـعر أنه منحوس لتلك الدرجة.. في بضع مناسـبات لم يحبذ لقيا والده خلالها، كانت هنالك دائما سيارة خضراء عتيقة تمر به، كي تمنح عروقه دفقة من الأدرينالين وقلبه سرعة أكبر في النبضات!

لم تكن علاقته جيدة مع سكان منزله..



شعر بتعاسة في حياته الخاصة، والدته ثرثارة وحادة اللسان معه ومع والده القمعي، كلاهما دائم الشكوى، وإذا كان لسانها ككرباج يلهب الأنفس، فلسانه كان البذاءة بحد ذاتها..

نشاط (غطاس) نجم عن نبذه المنزل لأطول فترة ممكنة، كما لو كان (سقراط) الذي اعتاد الاستيقاظ باكرًا كي يفر من سحنة زوجته القبيحة وسلاطة لسانها المقذع، فيصحو مع بزوغ أول خيط من خيوط الشمس، ثم يسارع بتناول طعام الإفطار باردًا دون تسخين، ويرتدي ملابسه ويحتمل حقيبته كي يهرع لمدرسته الباعدة مسافة أربعة كيلومترات مشيا على الأقدام، كثيرًا ما يصنع ذلك وهما في السرير يغطان في نوم عميق، فلا يحاول إفاقة والدته لتعد له وجبة الإفطار بل يعدها بنفسه وعلى عجالة، كأنما يخشى أن تفيق لمباغتته..

إذا وجد بابهما مفتوحا كان الإيذان بقرب ميعاد استيقاظ والدته، ثم والده عقبها بساعة كي يذهب لعمله، أما إذا كان مغلقا فستطول مدة نومهما لحسن حظه، كان يعلم السبب وينزعج منه كثيرًا حين يستغرق التأمل فيه، كل تلك المشاجرات الحامية، ثم يقفلان الباب مقرران اللهو ببدني بعضهما، عقب "أهلِك" وأهلَك"، أمسيا - عقب التصالح - في دوري "عريس" و"عروسة"!

وأسوأ ظرف قطعًا حين تنام هي بمفردها في غرفة النوم وهو على الأريكة في غرفة المعيشة، إذ يفيق قبلها ليبدأ استجوابا شديد



الغلظة والسـماجة معه، ابتداءً بأحواله مع المدرسـة، وانتهاءً بمن يرافق بالضبط..

حيـن بلـغ مع رفيقه خرائب تلك المدرسـة، أشـار (غطـاس) بلهفة لعـددٍ يـكاد لا يحصـى من الصخـور متباينة الألـوان، هنالـك الرمادي منهـا والأبيـض والأخضـر والأزرق وحتـى الفضـي، أشـكالها أقرب للمكعبات، أحيانا يلوح بريقها لؤلؤيًا تحت أشـعة الشمس، وقد تبدت خامة غريبة نوعا وغير مألوفة لمستخدمات البناء..

- «ليسـت صخورًا بالضبط، تصنـف كمعادن، إنها مادة "التلك" أو "الطلق"، تتألف من سلكيات الماغنيسيوم المهدرجة!"

عقب (عماد) باسما:

- «مهدرجة؟»

فاكفهرت سحنة (غطاس)، قائلا بعقيرة مهمومة:

- «الهيدروجين اللعين.. تبا له!»

- «أوليس تواجده غريبا في خرائب مدرسة قديمة؟»

- «فعـلا، أكاد لا أجـد سـببا له، أعني أنه يسـتخدم لأسـطح منضدة المختبـر كمادة واقيـة، وللمفاتيح الكهربائية بسـبب مقاومتـه للحرارة والكهربـاء والأحمـاض، وفـي صناعـة كرات السـلة للحفـاظ على يد



اللاعـب جافة، كما تصنع منه الطباشـير الملونة.. لكنـه هنا في صورته المفككة الأصلية لسبب غير معلوم!»

- «كما لو كانت الطباشير والمفاتيح الكهربائية ومناضد المختبرات وكرات السلة قد عادت لأشكالها الأولية!»

- «بالضبط! أوليس هذا غريبا؟»

- *«بل هو مخيف.. مخيف يا صاحبي!»*

لم يكن ذلك ما بث فيهما مشاعر الخوف بالضبط..

- *«أتريد رؤية شيء مخيف بحق؟»*

- *«لِمَ لا؟»*

اقتـاده (غطـاس) بعيدًا عـن الخرائب، قبيـل توقفه مشـيرًا إلى تلك الحفرة باسما..

كانت حفرة عميقة وهائلة الحجم إلى حد ما، غارقة في سائل نفطي أسـود مقزز لا رائحة له لحسن الحظ، وبمنتصف تلك البحيرة الحالكة نبت قرن طويل متعرج، يبدو لتيس أو لمعزة!

- *«الحيوان البائس مات ميتة شنيعة!»*

- *«وما سبب تواجد فجوة نفطية كهذه بالقرب من أنقاض مدرسة؟»*

- *«علمي علمك..»*



- «هـذا يبـدو مخيفـا بالفعـل.. مـا الحكاية هنـا؟ لِمَ تـم هجر هذه المدرسة؟ مذبحة؟ مثل ثانوية كولومبيا؟"

- «ليس لهذه الدرجة مع أنه ممكـن، فلديهم هواية الصيد وإطلاق النـار في الأعـراس ونتائج الثانوية العامة هنا، وشـراء الأسـلحة النارية متاح، خصوصا لدى الشبان من ذوي الدخل المنخفض والأقل تعليما مـن قاطني المناطق الريفيـة.. ربما وقعت جرائم إطـلاق نار، لولا أنها كانت ستدوي كضجة إعلامية لا مثيل لها، وكنا حتما سنسمع بها..»

ثم أشار لحفرة النفط مسترسلا بشغف:

- «دارت غالبيـة الشـائعات عن أولئـك الذين غرقـوا هنا، حوادث بمحـض الصدفة.. هذه الحفرة كالدب الأبيض في إعلانات مسـحوق الغسيل!"

- «دب.. أبيض؟»

- «ماذا؟ لم تستوعب التشبيه؟ الإيحاء العاطفي الذي يدفعك لشراء مسـحوق الغسيل؟ دب لطيف الشـكل لونه الأبيض يدل على النظافة؟ ألم تر دببة عيد الفالنتاين المستفزة؟»

- «كالإيحاء العقلاني؟»

- «أجل.. كالإيحاء العقلاني!"



- «قد يكون شكله بريئا ونظيفا، لكن الدب - على الطبيعة- ليس كذلك على الإطلاق!"

- «إذن، فطبيعته الحقيقية الجبارة العدائية موحية بمدى قوة مسحوق الغسيل، وجعل الثياب ناصعة البياض تماما كلون فروته، مثل رمز للنظافة أو للطاقة العالية!"

- «ما شأن هذا بذاك؟»

- «اقلب الآية! اجعل البياض سوادًا خالصا مع تضمين الإيحاء العاطفي والعقلاني سوية.. هكذا تتوصل لطبيعة هذا المكان ومدى قوته!"

رمق (عماد) قعر الحضرة قائلا بكآبة:

- «شكرًا أخ "مندوب المبيعات"! ما أنا متأكد منه بنسبة مائة بالمائة أن هذا القابع داخل النفط ليس دبا!"

***

الخرائب نفسها كانت مثيرة للخوف..

تحوي رسومات «غرافيتي» عجيبة، وأرقاما أعجب، ليس الأمر متعلقا بتصور هزلي لسحنة شيطان ساخرة مع الرقم الثلاثي ٦٦٦ ، وإنما بأشكال سريالية تلوح كأطفال أو أشباح أطفال، مع أرقام متعددة بلا معنى متناثرة على كل جدار من جدران الخرائب..

- «إذن.. ماذا نصنع؟»

- «نحدث فجوات في الجدران لبناء متاهة طبعا! هنالك عددٌ لا يحصى من المعاول الصدئة هنا..»

- «ولماذا الجهد الذي لا طائل منه؟»

- «تخيله كمقر خاص بنا، منطقتنا السرية! ألا يتوجب أن يكون ثمة منافذ لا يعلم بها سوى الذي ابتناها؟ سيكون من الرائع أن يكون الباني نحن!"

- «لا بأس ما دمنا سنهدم أكثر مما سنبني، وإن لم أقتنع بالفكرة أساسا.."

- «فكر بها كمغامرة تسلق جبل شامخ، أو كالاندفاع بالدراجة النارية عبر منعطفات شديدة الخطورة، فكر بالمشاهد المخيفة والآسرة على شاشة التلفاز للمناظر التي ينتصب على إثرها شعر الرأس ترقبا ورهبة، حين يتزلج أحدهم على الجليد قبيل وثبه الهائل على منحدر مروع، من ذروة عالية إلى حضيض وادٍ مكسو بالبياض، أو مصارعة أمواج الساحل العاتية على لوح تزلج هش، أو التسلق الرأسي على صفحة جبل شاهق دونما سند إلا بقوة الأصابع!"

- «فعلا.. نحن نخاطر مثل هؤلاء.. بصنع متاهة عبر جدران الخرائب!»

أطلق (غطاس) ضحكة استهزاء جامحة، وبجذل قال مؤرجحا يده:

- «إذا لم تجد ما تحب فأحب ما تجد يا أحمق!»



الفصل الرابع عشر

إحساس غريب بالدوار انتاب (عماد)..

وحين سار بضع خطوات، خيل له بأن خطواته مترنحة كالسائقين السكارى الذين يؤدون اختبار السكر بالسير في خط مستقيم أمام شرطي المرور، وقد شعر بطنين مؤلم في أذنه اليمنى..

أسر بما شعر به لصديقه، فقال الأخير بكآبة لا مبرر لها:

- «كثيرًا ما أشعر بذلك، كأن الغرفة اللعينة تدور بي بسرعة فائقة، لدرجة الاستناد للجدار كي لا أسقط، لكن هذا لا يقارن بالشعور المزعج حين لا تحتمل النظر إلى شيء متحرك، ولربما دفعك ذلك للتقيؤ بضراوة!»

- «أقول لك إنني أشعر بالدوار لسبب لا أفهمه!»

- «لربما كانت الشمس، قلتَ أن أذنك تؤلمك كذلك؟»



- «بلى..»

- «أو إن أذنك قد التهبت، إذا انتفخت فقد التهبت، ذلك يجعلك تشعر بالدوار، لدي خبرة لا بأس بها معه من فرط اجتراعي للسوائل المطهرة، لكنني لم أجرب التهاب الأذن من قبل!"

تسمر (عماد) كما لو كان يفكر بشيء، شعر بدوخة حين حاول عمل استبيان حول ماهية حال أذنه الغليظة، شعر بأن المعلومات التي قام بإرسالها لدماغه عن وضع الأذن مغالطة، كما لو كان فيروسا، ولكن وسط هجرة المعلومات من خلال دهاليز العقل ارتسمت صورة كئيبة للخرائب، مع مطالبة عاجلة بمغادرتها، كما لو كان رهابا قاتما للأماكن المهجورة، يجثم على أنفاسه مروعا إياه..

- «يجب أن نرحل من هنا..»

رمقه (غطاس) بنظرة طويلة، لم تكن حاله أفضل، وبتؤدة نهض مجيبا وهو يدعك جبينه بإرهاق جلي:

- «أعتقد أنك محق..»

***

الخرائب نفسها كانت مثيرة للخوف..



(عمـاد) يرمق الجدران من حوله بهلع غير مبرر، كما لو كان مريضا بتلف عصبي دهليزي، في حين، أخذ (غطاس) يتحسـس رأسـه بمشقة كما لو تلقى ضربة موجعة للغاية عليه..

شـعورهما بالدوار مشـترك، وطنت كذلك أذن (غطاس) اليسـرى، لكنه لم يسر بذلك لصديقه، بل قال عوضا عن ذلك متصنعا الثقة:

- «هي الشمس اللاهبة حتما، يبدو وأننا أصبنا بضربة مباشرة منها.. ما قولك بأن نستريح قليلا في الظل؟"

- «أشعر برغبة عارمة في مغادرة هذا المكان الموبوء، لكن لا بأس، فأنا مرهق جدًا.."

- «ذات شعوري..»

جلسـا متجاورين في ظل الجدار الذي يعلوه رسم مبهم لطفل يرفع رقمـا مبهما بدوره، شـعرا بمشـاكل توازنية في أطرافهمـا، والدوخة لم تكِن، لكن الآلام في أذنيهما سكنت لحسن الحظ..

- «أسمعك جيدًا وتلك إشارة طيبة.."

- «إذن فهي الشمس..»

- «تلك اللعينة!»

وتبسم (غطاس) شاعرًا ببرودة مباغتة أدهشته..

- «هل أخبرتك أنه يوم ميلادي؟»



- «كل سنة وأنت طيب!»

- «ألا تبا!»

نظر للسماء، فتوجس من منظر الشمس المواربة بالغيوم، كانت تهمة ظالمة لها ولأشعتها على ما يبدو، فقال كي يتأكد من أن سمعه لا يزال على ما يرام:

- «صداع طفيف، مع رغبة في النوم قليلا..»

- «عجيب.. هو ذات شعوري بالضبط!»

- «أترى المشاهد مقوضة من منظورك؟»

- «نوعا ما..»

- «هي.. الشمس!»

قالها متعنتا وهو لا يكف عن التثاؤب!

نظر (عماد) للأرض، فأبصر حشرة أم أربعة وأربعين تسعى، فكر بدهسها، ثم توقف متفكرًا.. ليس في إبداع الخالق، وإنما في عدم تواجد حشرات أخرى سواها!

- «لا حشرات..»

- «ماذا؟»

- «لا حشرات.. اللهم سوى.. هذه!»



ودفعها للأمام قليلا بطرف حذائه الرياضي، فتنبه لها (غطاس) الذي عاود التثاؤب قائلا:

- «ماذا قال عنها كتاب العلوم؟ حشرة سامة؟"

- «لا أعلم..»

- «أقتلها..»

- «لا أريد..»

- « أتعلم ما العلاقة بين أم أربعة وأربعين والعقرب؟»

- «السم؟»

- «بالضبط!»

- «ولو.. لا أشعر برغبة في قتلها، ربما لأنها ليست عقربا!"

- «الإنسان غريب.. غريب!»

- «بالفعل!»

- «قد يقتل.. فراشة.. ولا يقتل.. عقربا!»

- «هذه ليست فراشة، وليست.. عقربا.. هذه.."

جاء دوره كي يتثاءب، في حين، سال عرق (غطاس) بلا أشعة شمس، ورغم شعوره بالبرودة وهو يحاول الاستناد على المعول، ثم نقر بمؤخره على الجدار متسائلا بتنبلة:



- «أهو أسوأ كابوس رأيته؟»

تأمل (عماد) الجدران من حوله بحيرة حقيقية.. من الجنون أن يتصنع، وإن كان يظهر عكس ما يبطن فهو كاذب:

- «الكابوس حقيقي.. لقد علقنا في متاهة.. ومن صنعنا!"

- «لكن هذا.. مستحيل!»

هرش (عماد) ذقنه متأملا الفجوات التي خلقاها.. كل فجوة مؤدية لحجرة جديدة، ذات جدران ملساء تحوي مزيدًا من رسوم" غرافيتي" لطفل لعين ما يحمل رقما مشئوما..

بدا له المكان المزدان بتلك الرسومات كمعبد لتطبيق طقوس شنيعة، هدفها تمجيد الشيطان بتقديم الأطفال إليه كقرابين عن طريق إغراقهم في تلك البحيرة النفطية الخارجية.. شيطان التعليم! طفت تلك الخاطرة بذهنه، فتبسم رغم دقة الموقف..

تلفت حوله، ثم تنفس بعمق..

- «دعنا نعِد الكرة، بهدوء وروية، لا بد وأن هنالك فجوة أو نافذة على الأقل.. هنالك منفذ حتما!"

- «ما الذي تهرف به؟ لقد طفنا ودخلنا وخرجنا حوالي سبع مرات، فلو كنا في مكة لتقبل الله منا!»

قاطعه بعصبية:



- *«لكن ما يحدث..»*

- *«مستحيل؟ بالضبط! وكابوسي أيضا، ورغم العرق ورائحة الجيفة المتصاعدة لسبب أجهله، لقلتُ أننا لا زلنا نحلم!"*

***

كتائهين حائرين حاولا تدارك ما يدور حولهما، فاستخدما منظورًا مشتركا يحوي عددًا لا بأس به من المعتقدات لتفسير تلك الظاهرة الغريبة والمخيفة..

تلك المعتقدات كانت مختلفة لدى كل واحد منهما، فمنبه – أو محفز – (عماد) بدا فاترًا مع لمسة قلق كفصام من نوع ما، غير قانع بما يدور، وبذات الوقت متفهما نوعا لما يدور، وحسب ما يراه ذكرت له منطقيته ومعتقداته أنه يهلوس فحسب، وتبسم لذلك بارتياح حذر، كما لو كانت آلية دفاعاته الذهنية في أوج عملها، تريحه وتطلب منه الاسترخاء بعمل مساج ذهني لخلاياه المتحفزة والمنهكة..

أما (غطاس) فقد شعر أنه يلج خرافة شعبية، لم يقبل بأي منبه منطقي، ورفض كل دعوات الاسترخاء النفسية رامقا المكان حوله ببصر زائغ وعرق لا يتوقف عن التصبب عبر مساماته، أراد الصراخ طلبا للنجدة، لكن المنبه المنطقي الوحيد الذي اشتعل لديه هو من همس له أنهما في منطقة نائية ذات ظاهرة خارقة، فبدا مقتنعا أن أحدًا لن ينجدهما..



شعر بحاجة كبرى للمعرفة، وفي ذلك عاد (عماد) وشاركه تلك الحاجة، الحاجة للمعرفة والفهم في تلك اللحظة كانت كحاجتهما الحالية والماسة للأكل والشرب والهواء..

تحول المكان إلى متاهة حقيقية ذات خصائص مرتبطة مع بعضها البعض، تتفاعل ككيان موحد فيما بينها بشكل دائري، فحين يطوفان الغرف في حلقات مفرغة، لا يلبث أن ينتهي بهما المطاف إلى ذات الغرف..

تلمظ (عماد) بصعوبة لجفاف حلقه، وقد بدأ صراع الجوع والعطش بداخله، أحدهما يحاول التفوق على الآخر في حرب ضروس، وكفصام لا هوادة فيه أظهرت مخيلته شلال ماء دفع حلقه لأن يئن، قبيل تحليق شطيرة دفعت معدته للتضرع، تستحيل من لحم إلى دجاج إلى تونة - وبالمايونيز-، في سريالية كانت لتكون قمة بالإضحاك في ظروف أخرى!

- *«أنا.. جائع!»*
- *«وأنا كذلك..»*
- *«لا تبدو كذلك..»*
- *«أفكر بأشياء تمنع عني الجوع..»*
- *«مثل ماذا؟ لا تطلب مني وضع حصاة أسفل لساني كالمعتقلين..»*



- «لا، لن أطلب منك وضع حصاة أسفل لسانك، لكن خاطرة طرد الجوع من ذهني لا تلائم ذهنك..»

- «كيف؟»

- «أفكر في القرارات القمعية تحت سيطرة والدي، ومن ثم تلك التي تحت سيطرة والدتي.. بشأن وجبات الطعام!»

- «كيف؟»

أظهر (غطاس) امتعاضا، وتأفف بوهن قبيل استرساله مهموما:

- «كل يوم، يمر والدي بالسوق لا بتياع ما تطبخه والدتي، رب الأسرة الواثق الذي يتكفل بمهمة الشراء، يؤدي دور المقرر والمشتري معا، لكنه ليس من سيطهو الطعام بل من سيختار نوعيته قطعا، ولا رجوع لوالدتي أو لي في تلك العملية.. فنحن نأكل على هواه!»

- «ألا توجد وجبة على هواه تلائم ذوقك؟»

- «نهائيا!»

- «أتفهمك.. والدتي تسألني دائما عما أود تناوله على الغداء، لكن العشاء يكون دائما ما تبقى من الغداء..»

- «هذا أقصى ما أتمناه! وبما أني لا أظفر بما أتمناه أدخر من مصروفي مبلغا مخصصا لتناول شطائر الفلافل أو مناقيش اللحم من المطاعم.. الجوع كافر، لكن الطعام بلا نكهة أكثر كفرًا!»

***



قلب (غطاس) بوهن كتاب "النظرية الاجتماعية" الذي استخرجه من حقيبته، قبيل توقفه صائحا بعقيرة وعظية:

- «لدى (كارن هورني) تلك النظرية!»

- «من؟»

ورفع (عماد) رأسا مثقلة مرهقة، فوجد صديقه يعكف كالثمل على مطالعة كتاب من المقرر الدراسي عليهم، تبسم وقد كاد يضحك لسخرية الموقف، إذ آن الأوان للدراسة تسجية للوقت!

- «نظرية لعينة ما بشأن التوجه الاجتماعي في تحليل شخصية الفرد، إذ تتطور شخصيته عندما يبدأ بمجاراة حالات القلق الناتجة عن علاقة الأبوين مع الأولاد.. أبناء الكلاب يحسبوننا عباقرة!"

- «غريبة، يبدو الحديث هنا مشوقا، في حال أخرى كنت سأستسلم للنوم حالما أنصت لأول مقطع!"

- «لربما كنا عباقرة إذن! أنصت.. لربما لدى الأخ (هورني) الحل!»

- «(هورني)! اسمه (هورني)!»

وضحك أخيرًا، كانت ضحكته كئيبة إلى حد ما..

لم يسترسل أكثر..

لم يقدر على الاسترسال حتى وإن أراد، إذ أفعم نور أبيض ساطع أرجاء المكان حتى أيقن من فقدانه لبصره تماما!

***



بـدا الضوء قويا كأنه على مقربة من أشـعة الشـمس، والصوت يرتد لمسمعه بقوة آذته..

اسـتطاع سـماع صوت جهاز مطالعـة نبضات للقلـب، وعاود ذلك الصوت الأنثوي التردد بلغة فهمها هذه المرة بعدما كانت طلاسـم أول مرة:

- *«احكِ لي حكاية!"*

حكاية؟ لكن.. ليكن!

- *«كان يا مـا كان .. كانـت هنالـك أرض خضـراء شاسـعة زرعها الناس البسطاء بكل أنواع الخضار والفاكهة، زرعوها بالمحبة والإخاء والتعاون، وسماء زرقاء صافية..»*

- *"احكِ لي حكاية!"*

- *«كان يا مـا كان.. كان هنالك فتى صغير يعيش سـعيدًا مع والديه وكلبـه الوفـي، حياتهم هي البسـاطة ذاتها، ونصيبهم مـن الأرض حقل تعاونوا ثلاثتهم على حفره وزرعه وحصاده..»*

- *"احكِ لي حكاية!"*

- *«كان يا ما كان .. كانت هنالك أميرة جميلة.. تدعى.."*

- *«تسارع في دقات القلب! تسارع في دقات القلب!*

عدم استجابة في الحواس، القلب مهدد بالتوقف عن النبض!"



وسرعان ما تردد الصوت الأنثوي بقوة وسرعة أكثر عن ذي قبل مع إصرار مستفز:

- "احكِ لي حكاية! احكِ لي حكاية! احكِ لي حكاية!"

تناهى لمسامعه صوت أزيز عنيف، كما لو كان لدائرة كهربائية ما قبيل احتراقها.. وللمرة الأولى تبدت الصور من منظوره واضحة صريحة..

كانت مشوشة بداية، وكأن شخصا يصوب ضوءًا تبدى كنور فيروزي ساطع إلى بؤبؤه من مصباح كالقلم..

وسعل بعنف حتى سال لعابه وهو يهمس:

- «أين أنا؟»

سمع صوتا أنثويا يقول برقة مؤثرة:

- «أنت في المستشفى!»

أفاق شاعرًا بوهن وتشوش لا متناه في ذاكرته، وأبصر ممرضة بارعة الجمال قاعدة إلى جواره، ترمقه بنظرة ارتياح أشعرته بالارتياح كذلك..

- «حلمتُ حلما فظيعا..»

- «صه..»



كذا قالت مواصلة مهمتها في تفقد نبضه وقياس حرارته، فاستسلم للمساتها برهة، قبيل قوله مبتلعا ريقه الجاف:

- «ماذا حدث؟"

- «هنالك حمرة شديدة في مقلتيك.. أتشعر بألم فيهما؟"

- «لا.. ماذا حدث؟»

اتسعت بسمتها لتكشف عن أسنان لؤلؤية، فكاد يفقد تركيزه حين أجابته أخيرًا:

- «صديقك أفاق من أثر السيجارة التي تبادلتماها، احتملك إلى هنا، ولولا ذلك لأصابك ما هو أشنع.."

- «وأين هو؟»

- «الشقي مع الشرطة، يستجوبونه.. هو في ورطة، ما فعلتماه حماقة يا عزيزي.. وجدنا في جهازك العصبي مواد سريعة الذوبان في الدهون والنسيج الدماغي، يا له من فعل شائن! تلك الأشياء السامة قد تتسبب بضرب الجهاز الدماغي وإحداث خبل مؤقت إلى جانب الشلل لولا لطف الله.. تبدو عاقلا على عكس صديقك الطائش.. أترغب برؤية والديك؟ هما بالانتظار خارجا.."

ارتعد لشناعة الفكرة..

- «أشعر بوهن..»



- «لا بأس.. سأتركك لترتاح قليلا..»

وخرجت تاركة إياه يتلفت حوله، متوقعا رؤية كلب من فصيلة "جيرمان شيبارد" وسماع نباحه السعيد بنجاة صاحبه.. واستغرب حين لم يجده!





الجزء السادس

ناظر البناية





الفصل الخامس عشر

في غرفة صغيرة لا تتعدى أبعادها الأمتار الثلاثة، اجتمعا بمعزل عن باقي الشلة السارحة أساسا في عوالم المادة السامة..

غرفـة مخـزن، تحـوي معدات نظافـة، وسـبورة عتيقـة محطمة من جانبها الأيسر، دُوِّن عليها أحدهم بالطبشور الأحمر:

«توقفت السيارة الخضراء أخيرًا، ولكن لا وجود لشجر على يميني أو شمالي على طول الطريق، لا هضاب قريبة من البصر، ولا مياه خليج فيـروزي تتلألأ تحت أشعة الشـمس، لا سلسـلة لا نهائية مـن الجبال تتوسطها عشرات الوديان الطبيعية لتشكل لوحة فريدة تضع تلك البقعة النائية على قمة المعالم السياحية، إذ لا عجائب طبيعية من أي نوع!»

قال (غطاس) ملتقطا من خلف أذنه سـيجارة يدوية ناولها ل(عماد) الشارد بتلك الفقرة المدونة على السبورة:



- «علينا أن نقصد الناظر في التو واللحظة..“

تنبه رافضا السيجارة بإشارة من يده، متسائلا:

- «من؟ ولماذا؟»

- «الناظر.. لتأمين إقامتك.. والآن أنصت.. أترغب بالسكنى معي والشلة أم تفضل شقة خاصة بك؟“

لم يتردد (عماد)، بل سارع بالقول دون فهم الموضوع برمته:

- «شقة بمفردي.. كم ستكلفني يا ترى؟»

خيل له أن ضحكة صديقه كانت تهكمية لأبعد حد..

❋❋❋

أطلق (عماد) صفيرًا مطولا ما إن ولجا شقة الناظر..

استشعر بأن الفخامة عنوان رئيسي لهذا الناظر المزعوم، بدءًا من السقف المزين بوحدات الخشب، ومرورًا بأرضية الرخام ذات الكلاسيكية العتيقة، وانتهاءً بمفروشات مخملية خمرية عصرية من الجلد الطري..

الديكور مميز، فالخزائن الضخمة تناسقت بجاذبية مع اللوحات الفنية المتعددة للمستشرقين، هنالك عدد لا يحصى من المرايا لعكس صورة كل شيء تكرارًا للجمال واستنساخه مرارًا، أما الإكسسوارات فغلب عليها الطابع المغربي، وقد وزعت بحرص بين الأركان وعلى



الطـاولات، وخلف مكتب المدير سـتائر مطرزة بعنايـة من لون دموي متناسـب مع الأرضية الرخامية، المكتب نفسـه اسـتقر فوق سجادة إما أنها إيرانية أو مغربية..

أما الشيء الذي بالإمكان تخمين عدم انتمائه بسهولة لأبهة المكان، فكان زجاجة العرق الرخيصة من صنف محلي على سطح المكتب!

طـرق (غطـاس) علـى خشـب الأريكـة «البيج»، ثـم قال متفلسـفا كديدنه:

- «من سيقان البامبو!»

- «تلوح من الفورمايكا!"

تسـلق (عمـاد) ببصـره الجـدار، حيـث تعلـق بعـددٍ مـن الرؤوس المحنطة لبعض الحيوانات، وتساءل عن كيفية وصول رأس وحيد قرن "خرتيت" عملاق إلى هناك!

- «لِمَ تدعونه بالناظر؟»

- «هـو القيّـم علـى المبنـى بجميـع شـققه.. عمومـا هـو يدعـى (التطواني)..“

- «أهو مالك البناية؟»

-"كلا، المسـألة أشـبه بتسلسـل المعلومات أثناء محاولة تقديمها في رسائل، كالعلامة التجارية لسلعة، الفكرة هي مدى تقبل الناس لها،



المعلومات الهامة يجب وضعها في بداية أو نهاية تلك الرسائل، ولا بأس بالحشو في المنتصف، لكن الأهم سيعلق في الأذهان والحشو سيترك، ما يهم هو ما سيظل في الذاكرة!"

- «ألن تكف عن التفلسف؟ ما شأن هذا بتساؤلي؟»

ضحك قبيل مواصلته وكأنما راقه حديثه العشوائي:

- "إنه مثل اختيار كل طفل للعبة واحدة يفضلها على باقي الألعاب، ثم يقوم بإنشاء علاقة بينه وبين تلك اللعبة، ذلك قد يساعد الأم أحيانا كي تستكشف شخصية طفلها، فتلك اللعبة بمثابة كنز ثمين، نسخة مصغرة عن كل الشخصيات الحقيقية والأشياء المحيطة بالطفل، وفي الأغلب تتحول تلك اللعبة المفضلة إلى صديق حميم مخلص، والأهم إلى كاتم أسرار يمكن الاعتماد عليه والفضفضة له بكل المؤرقات!"

- «شكرًا.. واضح أنك لم تنضج بعد!»

- «أهذا ما تصبو إليه؟ النضوج؟ ألهذا أتيت إلى هنا؟ لا تقل إنك جئت عن طريق الخطأ، فلا أحد يترك تجمعا من أي نوع للقيام بعملية استكشافية لخرائب مهجورة! ضايقتك جُملي؟ لماذا؟ ألأنها جديدة وغير مستنسخة ومتداولة؟ أما سئمتَ من الجمل المكررة التي يستنسخها الكل وبمنتهى الابتذال؟ من الأخبار؟ من أفواه الأهالي؟ من الكتب الدراسية؟ من الأمثال الشعبية؟ من العرائض وبطاقات



الدعوات؟ من الكتب السماوية وكتب السنة؟ من مواقع التواصل اللعينة والدردشات؟ أتحبذ استنساخ الجُمل عوضا عن ابتكار أخرى جديدة خاصة بك؟ أتخشى بألا يتقبلها أحد؟»

تصاعد من خلفهما صوت نحنحة، فتلفتا سوية..

الرجل كان ستينيًا، شيبته موزعة ما بين شعره شبه المنكوش وشاربه شبه المهذب، هزيلا للغاية وهندامه فوضى لم يفكر يوما بكويه كما هو ظاهر، حياهما بأصابع يده اليمنى المضمومة على سيجارة ممتلئة ذات خطوط حمر، قبيل وضعها في فمه، واقترابه من مكتبه بخطوات سريعة..

- «يا (تطواني)، أقدم لك صديقي (عماد).."

- «أهلا!»

قالها بنبرة عجول وهو يصب لنفسه كأسا من زجاجة العرق الرخيص، ثم عبث بأدراج مكتبه كما لو كان يبحث عن شيء، حتى استخرج عددًا من المسودات المكتوبة بخط اليد، وتمكن (عماد) من رؤية خط رديء مفعم بالأخطاء الإملائية والنحوية..

- «الكتابة.. بنت الكلب! ملتهمة الخلايا النهمة التي تهبط علينا من حيث لا نعلم، فتدمر خلايانا وتحيلها ركاما، ثم ترحل لحالها حتى تدمر الجسد برمته دمارًا مبرما كالسرطان الوبيل!



نصف من يقطن هنا من الكتاب، إذ هربوا طلبا للعزلة والهدوء ولربما الإلهام!“

- «أتكتب؟“

- «رغم أني ظللت أميًا حتى سن العشرين.. نصيحتي أن تحذو حذوي، فهي الوسيلة الأنجع لقضاء الوقت هنا..“

- «أحيانا أكتب شيئا.. عن سيرتي الذاتية..“

- «لا تقل سيرة ذاتية، هذا المصطلح شديد الاستفزاز هنا، قل: أكتب حياتي، أكتب مذكراتي!“

- «عذرًا! هي شذرات حياتية عموما.. للأسف لا أمتلك الورق والأقلام..»

- «هذه بسيطة التدبر..»

عاود (غطاس) النطق بعقيرة نافدة الصبر:

- «يا (تطواني)، نريد تدبير شقة لصديقي..“

- «على عيني..»

همد أخيرًا على كرسيه، وسحب من أسفل مجلدًا ضخما عرضه ككراسة رسم من الحجم الكبير، نفخ فيه فبعثر الغبار في الأرجاء، ثم تناول نظارته الطبية التي تدلت فوق صدره كقلادة، فأعاد تصويبها على مقلتيه..



- «لنر ما بإمكاننا فعله لصديق (غطاس).. شقة (٤٤٦) خاوية على عروشها.. فما قولكما؟»

- «يا (تطواني)، السلالم كثيرة، قربه قدر استطاعتك من شقتنا..“

- «صعب..»

- «همتك معنا ولك مني أثمن تحية..“

- «صنف جيد؟»

- «لن يمسسه سواك..»

- «نحاول..»

تدخل (عماد) متسائلا باهتمام:

- «كيف تم تعيينك يا (تطواني)؟»

- «لـم أعيـن.. كنتُ من أوائـل الذين قطنوا هنا، جئـت ثم تطوعت بتسلم زمام الأمور، شقتي هذه وجدتها هكذا فقررت استملاكها بحكم الأقدمية، ووظيفتي الجديدة تساعد كل وافدٍ جديد..“

- «لا تبدو متأقلما..»

- «بسـبب هيئتـي؟ الحـق معك.. الفقر سـيئ، لكن الغنـى ومن ثم الفقر أسوأ.. لسنا بملائكة!»

- «ومن صاحب المكان؟»



- «لا أعرف.. المكان قديم ومنعزل وهذا يكفيني وزيادة، ولا توجد مشاكل مخيفة هنا تتعلق بالقوانين البشرية البلهاء، لذا تجد كل من قطن هنا كالهارب من ثأر!"

- «أهم كثر؟»

- «لم أتمكن من عدهم، لكنهم كثر حتما، ومن مختلف الجنسيات العربية، أتعرفهم من لهجاتهم، فلا أحد منهم يحمل جواز سفر أو وثيقة أو بطاقة هوية.."

ورفع (التطواني) بصره إليهما، نازعا النظارة عن عينيه بجذل:

- «هنالك قاطن الشقة (٣٥)، من الأوائل كذلك، حكايته حكاية! الرجل كان وافدًا لاذ بالفرار من حياة لا تخرج عن رهاب إضاعة ماله على تجديد إقامته.. ظلت مدة الإقامة تتقلص وتسعيرتها ترتفع، فأصيب بوسواس قهري، وجد إقامته مرتبطة بأي شيء وبكل شيء، إذا انتهت صلاحية هويته بوم! غرامة وبلوك على الإقامة، بطاقة العمل بوم.. غرامة وبلوك على الإقامة! رخصة القيادة بوم.. التوكيل البريدي بوم.. وهكذا دواليك!

وفي النهاية، ضاع ماله كله على التجديدات، لكنه امتلك مجموعة جميلة بحق من كروت الإقامة والهوية وبطاقات العمل الملونة، لقد صنع منها ألبوما تذكاريا جميلا!»



قال (غطاس) بمرح وقد راقته اللعبة:

- «حدثه عن قاطن الشقة رقم.. نسيت رقمها.. الموظف!»

- «الذي اكتشف أن زوجته أم أولاده هي أخته في الرضاعة؟"

- «لا يا مغفل! ذاك الذي بتر إبهامه، كما لو كان عضوًا في "الياكوزا" اليابانية..»

- «أجل.. كالمجالد المهزوم في نزالات حلبات «أرينا" في روما القديمة.. قديما كان عفو القيصر مستندًا على رفعه إبهامه لفوق، أو جعل الإبهام لأسفل تعبيرًا عن حكم الإعدام الذي صدر، ولربما لتقليد حركة غرس السيف في بدن الضحية..

موظفنا هذا كانت لديه تلك العقدة مع مديره، لطالما حلم بالترقية، اشتغل عبدًا لمديره - ابن الكلب!- الذي كان يطمئنه دائما بإشارة العفو أو الرضا في تلك الحالة، وهي كناية على أن الترقية قادمة لا محالة وستكون من نصيبه، وبفضل ذلك الإبهام المرفوع ظل الموظف يشتغل بالسخرة لصالح مديره، إلى أن نفد صبره أخيرًا، وتساءل بإلحاح عن ميعاد ترقيته، وعندئذ.."

أرجح (التطواني) بإبهامه لأسفل بتلذذ، فأطلق (غطاس) قهقهة جذلة!

تساءل (عماد):



- «ولماذا بتر الموظف إبهامه؟ أوليس من المنطقي أن يصنع ذلك بإبهام مديره انتقاما؟"

- «لا أعلم.. بإمكانك سؤاله.. هو يقطن في شقة رقم (٢٢).. على فكرة، الخبز من شقة رقم (٢٦)!»

- «ولماذا تخبرني بذلك؟»

ارتبك (التطواني) قليلا وهو يرد واجما:

- «لا أعلم، خلتك ستسأل وباهتمام كذلك، في العادة أول ما يتساءل عنه الواصلون هو الخبز!"

عاود (عماد) التساؤل:

- «ماذا عن شقة رقم (١)؟»

- «الوحيدة بلا جرس باب، موصدة بالمفتاح من الداخل لسبب لا يعلمه أحد.. يستحيل اقتحامها!»

- «أتراها لمالك البناية؟»

- «احتمال!»

وأشعل (التطواني) لنفسه سيجارة أخرى متسائلا:

- «اسمك؟»

- «(عماد)..»



توقع أن يسأله عن اسم والده وجده وعائلته، ومن ثم عن عمره وديانته واهتماماته السياسية وحتى الجنسية، لكنه لم يفعل، اكتفى فحسب بتدوين اسمه الأول، ثم هتف بأريحية محببة:

- «جميل.. بقي فقط أن نعرف ما ستقدمه لنا..»

شعر (عماد) بقلق مع خيبة أمل طفيفة، فسارع (غطاس) لطمأنته:

- «لا تقلق.. أنا على سبيل المثال وبمساعدة شلتي نمد أصحاب الشقق بالسجائر، هنالك من يمدهم بالأطعمة، وثمة من يمدهم بالفواكه والخضار والبقوليات..»

- «ومن أين يجلبون الأطعمة؟»

- «يصنعونها.. هنالك من يمتلك حوض أسماك في شقته، وهنالك من يربي زريبة للأغنام أو قنا للدواجن، ناهيك عمن يزرعون..»

- «نباتات؟ هنا؟ أوليست بحاجة للشمس كي تنمو؟ ثم من أين أتت الحيوانات؟ ومن أين يجيء الماء؟ وكيف تدبرتم أمور الكهرباء وخطوط الحرارة للهواتف؟"

عبس (التطواني) وهو يرد قائلا:

- «أنت تسأل أسئلة كثيرة أيها الغريب!"

- «غريب؟ حسبت الاستقبال سيكون حارًا أكثر من هذا!"



تبدلـت ملامح (التطواني) لتغدو أكثر بشاشــة، وتبادل مع (غطاس) ضحكة قبيل قوله:

- «يـا بني كنت أمازحك فحسـب! مـن حقك السـؤال طبعا، لكني أفضل أن تتعرف على إجابات تسـاؤلاتك بنفسـك، لهذا أعرض عليك وظيفة شائعة هنا للمستجدين.. ما رأيك أن تشتغل كعامل توصيلات؟"

لكزه (غطاس) بمزاح ثقيل وهو يرد مخاطبا صديقه:

- «لا تكترث لهذا فلا أحسبه مجال تخصصك.. دبره يا (تطواني)، ولكن لا تتعبه كثيرًا.."

- «ما قولك بوظيفة ساعي البريد؟»

- «قلنا: لا تتعبه كثيرًا!"

سعل (التطواني) بغير اكتراث، قبيل دمدمته ببساطة:

- «جميع المشـاكل محلولة هنا اللهم إلا الواسـطة! طيب.. ألديك مشكلة مع وظيفة موظف إحصاء؟"

- «إحصاء؟»

- «ليـس بالمعنـى الحرفـي للوظيفـة.. لا تحليـلات ولا مفسـرات لبيانات معقدة، فقط تقوم بعَدِ القاطنين في الشقق مع أسمائهم الأولية، وتسجل كذلك شكواهم ومتطلباتهم..»

- «أهذا كل شيء؟»



- «أرأيت؟ قمة بالبساطة..»

- «موافق..»

- «على البركة.. ما قولكما في شقة رقم.. (٤٣)؟»

ضحك (غطاس) باستنكار متسائلا:

- «ماذا أصابك يا (تطواني)؟ أنسيتَ من يقطنها؟ بالأحرى من تقطنها؟"

وتشاركا ضحكة جشعة بشيء من مكر وهما يغمزان لبعضهما، و(التطواني) يرد بنفسية رائقة:

- «لا تلمني، هي في بالي دائما!"

- «هي في بال الجميع..»

- «اللهم سوى صاحبك هذا!»

- «قريبا ينضم للقافلة..»

- «أطمح بكسب الرهان عما قريب..»

- «أنت وحظك!»

- «ما علينا، هنالك الشقة رقم (١١).. تمام؟"

- «وأردت نفيه بعيدًا؟ يا لك من.."

- «نحن في الخدمة يا عزيزي دائما.. مرحبا بصديقك في خان الغرباء!»





الجزء السابع

الرسامة المُسنة والطباخ





الفصل السادس عشر

«خواطر مؤرقة في العقل والأوراق»:

(اليوم الأول):

المختل.. أمعقول أني وإياه عدنا أصدقاء كما كنا أيام الدراسة؟

لربما كان التعاطف.. لربما تعاطف معي، ولأجل ذلك قدمني للناظر على الفور دون يسألني حتى عن كيفية وصولي لهذه البؤرة العجيبة، رغم إنها صفة لا أستسيغها بشدة مع البشر بقدر إظهاري لها بشغف مع الحيوانات، وبالأخص الكلاب!

لا أنكر إعجابي به، فلطالما كان (غطاس) فوضويا متمردًا، وها هو يثبت ذلك مجددًا بتوصله قبلي لهذا المكان العجيب.. أشعر ببعض الغيرة منه!



لطالما آمنت أن الفوضى لا يردها إلا الفوضى.. هي الحل في ظل عجز القانون عن رد المظالم بسبب قدرة الفاسدين على تزييف الحقائق والتلاعب بالقانون كما يشاؤون، هي رسالة جريئة ولها مدلولان مختلفان باختلاف المُستلم، فقد يراها البعض رسالة ثورية تصرخ في صمت، وتحارب الخوف، وتحث الناس على تغيير مصائرهم بأيديهم، وقد يراها البعض الآخر رسالة تحذيرية بأن الناس مهما تحملت لا بد أن تصل لنقطة انفجار..

(اليوم الثاني):

حين خرجتُ اليوم للتنزه في ممر الشقق الممتد إلى ما لا نهاية، أبصرتُ سيدة عجوز خارجة من شقتها رقم (١٩) الملاصقة لشقة (غطاس)، وبيدها كيس قمامة..

أسرعت بحماسة نحوها.. للترحيب بالجيران! ومتناولا من يدها الكيس قلتُ بحرارة:

- «مرحبا.. دعيني أمدُ لكِ يد العون يا جدة..»

- «شكرًا لك يا بني، لكن جاري معتاد على الخروج في مثل هذا الوقت لمساعدتي، إنه فتى مثلك، أعني بمثل عمرك تقريبا، وهو طيب ومهذب!»

- «أتعنين (غطاس)؟ هو صديقي.. أنا جاركِ أيضا!»

- «حقا؟ هذا أمر طيب!»

هنـا، فتح باب الشـقة المجاور لشـقة المـرأة، لم أتنبه إليـه إلا لدى خـروج ذلك الرجـل المكتنز رخو الملامـح، الذي لم يلبـث أن اكفهر لمرآي واقفا مع جارته المسنة، نتجاذب أطراف الحديث!

اقترب منا، مخاطبا المرأة باحتداد وهو يسدد نظرات نارية باتجاهي:

- «صباح الخير يا (كاترينيت).. أثمة مشكلة؟»

- «صبـاح الخيـر يا عزيزي (قاقم)، لا مشـكلة علـى الإطلاق، هذا الفتى اللطيف يحاول فقط مساعدتي مع كيس القمامة..»

- «لماذا؟ أين (غطاس)؟»

ونظر الرجل إليّ قبل أن يقول آمرًا:

- «ناولني الكيس!»

تمتمت المرأة:

- «لقد سبقك الفتى الطيب فدعه مشكورًا..»

لكن الرجل خطفه من يدي بخشونة غير مبررة كما لو كان كيس تبر، فاستدارت المرأة عائدة لشقتها وهي تقول بحبور:

- «يا لهذا الجيل الخيِّر! يصطرعون لرمي قمامة امرأة مسنة ووحيدة مثلي!»



(اليوم الثالث):

التمعت فكرة في عقلي لإمضاء بعض الوقت ولممارسة وظيفتي الجديدة..

هكذا، وعقب خمس دقائق تقريبا، كنتُ واقفا أمام باب جارتي (كاترينيت)، حاملا بيدي سلة من التفاح جلبها (غطاس) لي كوجبة مؤقتة..

ضغطت جرس الباب بكل كياسة، ففتح ليطل من فرجته وجه (قاقم) الصارم مُسددًا - كالعادة- نظراته النارية إلي!

- «ما الذي تريده بالضبط؟»

- «ما الذي أريده أنا؟ ما الذي تفعله أنت في شقة الجدة؟"

- «وما شأنك أنت؟ نحن أحرار هنا!"

وقبل احتدام مشاجرة بيننا، سمعنا صوتها من الداخل:

- «دعه يدخل يا (قاقم)..»

احمرت سحنته، ثم دمدم بنبرة غليظة:

- «تفضل!»

تجاهلته ودخلت حاملا السلة بحذر، كانت شقتها نظيفة وأنيقة من الداخل، ولحق بي (قاقم) مهمهما بحنق:



- «من أين جئتنا؟»

أحنقني تساؤله، فكدتُ أصرخ في وجهه: "بل من أين جئتني أنت؟"

فكـرت بإطلاعه على وظيفتي الجديدة علـه يصمت، لكني اخترت مواصلة تجاهله وأنا أبحث عن المرأة، فسمعتُ صوتها يرتفع قائلا:

- «أنا في المطبخ..»

تتبعـتُ الصـوت حتى وجـدتُ مطبخها بسـهولة، كانـت واقفة تعد الشاي مبتسمة في ترحاب، وقالت بحبور ما إن رأت السلة:

- «يا له من تفاح جميل المنظر، ناضج أحمر، يفتح الشهية!"

- «سعيدٌ أنه أعجبكِ.."

- «سـيصنع (قاقم) لنا منه حلوى فرنيه التفـاح، فهو يمتلك المهارة والصبر لخفق الزبدة حتى تغدو ناعمة كبشـرة الطفل، من يده سـتذوق أشهى فرنيه تفاح ذقته في حياتك.."

- «أنا لم أذقه في حياتي أصلا!»

ضحكت مستخرجة سيجارة من جيب مريولتها، فتساءلتُ باسما:

- «تدخنين يا جدة؟ ألا ترين أن..»

- «كفَّ عن الثرثرة يا فتى!»



وأشعلت سيجارتها.. كانت غريبة الشكل ورغم ذلك مألوفة، ممتلئة وقد خط عليها بلون أحمر عريض خطوطا متعرجة على الجوانب..

لاحظت نظرتي الثابتة لسيجارتها، فتبسمت مهمهمة:

- «معذرة، أعاني الأرق، وهذه تساعدني في نيل نوم عميق، أحيانا تسبقه حالة من الهذيان مع حمرة شديدة في العينين، لكن هذا كل شيء!"

دخل المطبخ في تلك اللحظة المدعو (قاقم)، وبوقاحة تناول من السلة تفاحة قضم نصفها بفك كالقرش وبنهم طفل جشع..

- «ما هذا التصرف السخيف يا (قاقم)؟ أرجوك اعذره، فهو يمتلك كبد حمامة ومخ لؤلؤة!"

وحملت السلة طالبة مني جلب صينية الشاي، ففعلت، كان شايا مُعدًا بالميرامية، لم يفتني طبعا بخاره الطيب المتصاعد..

تبعتها إلى غرفة الجلوس، حيث الأرائك المريحة والطاولة الخشبية المزخرفة بإتقان، ولوحة معلقة على الجدار تمثل خطوطا سوداء ورمادية متشابكة على خلفية ذات لون بني..

- «أتعلم من أي فن تنحدر هذه اللوحة؟»

- «لا أعلم، لربما التشكيلي؟"



- «بل السريالي، إن معرفة الفرق صعب بعض الشيء، لأن المدرسة السريالية لا يرسم فنانوها الوجوه كثيرًا، إنهم يفضلون الأجواء الفانتازية والأشجار والبحر، وإن مالت اللوحة لحد ما للفن التشكيلي كما ذكرت أنت.."

نظرتُ للوحة مجددًا، وقلت:

- «أكاد لا أبصر وجها، فقط مجموعة من الخطوط المتشابكة ليس إلا!»

- «ركز في منطقة التشابك الدائري، اقترب منها لترى بشكل أوضح..»

فعلتُ كما طلبت مني، فلمحتُ وجها تصعب رؤيته ما لم تلتصق باللوحة نوعا، وجها شاحبا منهكا بدا وكأنه رسم بيدٍ مهتزة مريضة..

- «هل أنتِ من رسمها؟»

صبت لي ولنفسها الشاي في قدحين، وبتفاخر أجابت:

- «أجل، أرجو أن تكون قد أعجبتك..»

قال (قاقم) حاشرًا أنفه في الموضوع:

- «(كاترينيت) فنانة موهوبة!»

قالها بغضب حقيقي وكأني أهنتها أو أهنته، فقالت العجوز ملطفة الجو:



- «(قاقم) مجرد طفل كبير أبيض القلب..»

- «يمتلك كبد حمامة وقلب لؤلؤة.. أدرك هذا!"

- «بالضبط! لكنه يهوى المشاكسات أحيانا، كان طاهيا ذا سمعة ممتازة، فقد اعتاد تقديم وجبات مجانية من مطعمه للمحتاجين، كان مطعما رائعا قدم عشرات الفرص للعاطلين عن العمل، حيث دربهم عبر دورات مكثفة لجعلهم طهاة عالميين من الطراز الأول، وقد اجتهد في ذلك خصوصا وأنه كان يداوم بنفسه يوميا دون انقطاع لتحقيق ذلك الهدف النبيل.."

تدخل (قاقم) ليدمدم مهموما:

- «الحماس وشغف الطعام!"

- «الشيف (قاقم)! أتعلم أنه كاد ينشئ شبكة متكاملة من المطاعم الراقية، وعلى أسس خيرية لا تهدف للربح المادي؟"

- «وماذا حدث؟»

- «ماذا تعتقد؟ لقد أفلس!»

- «يبدو وأنكما معا منذ مدة طويلة، أقصد كجارين..»

قالت المرأة باسمة بمكر:

- «أمر طبيعي، وذلك ما عجّل بالنهاية السعيدة ودفعنا للزواج!»



كدتُ أشـرق بجرعة الشـاي التي ارتشـفتها، في حين، صاح (قاقم) جزعا:

- «(كاترين)!»

- «ماذا؟ ألم يعد (غطاس) بكتمان سرنا وأوفى بوعده؟»

- «وهـذا الفتى ليس كغطاس! غدًا ينشـر الخبر ويفضحنا عقب كل تلك الأعوام!»

شعرتُ باغتياظ، فقلت له:

- «أتحسبني الجارة الثرثارة التي لا هم لها سوى نشر الشائعات؟ لا شأن لي بكما وبزواجكما، بل وأقول مبارك لكما!»

لقد صار المختل في نظرهما مثالا للصدق والأمانة، أما أنا فأداناني بسرعة البرق!

قالت المرأة العجوز ببشاشة:

- «بـاركك الرب يا بني، لقد أسـاء (قاقم) الظـن بك كعادته.. فعلها سابقا مع (غطاس)، لكن صداقة عجيبة وسريعة توطدت بينهما!»

هتف (قاقم) بغلظة وقد التمعت نظرة مؤرقة في مقلتيه الحمراوين:

- «(غطاس) فتى طيب، لا يمكن أن يكون كفتية هذه الأيام، فهو لا يكذب ولا يفشي السر أبدًا!»



صحتُ محنقا:

- «وأنا كذلك لا أكذب أو أفشي الأسرار! ثم إن (غطاس) صديقي..»

- «الكل يريد صداقة (غطاس)!»

- «والآن تنعتني أنت بالكاذب أو المدعي!»

وضعت (كاترينيت) يدها المعروقة كغصن الشجرة على ركبتي قائلة:

- «دعني أطلعك على أمر، لقد تعذبنا - (قاقم) وأنا بشدة-، لذا أرجوك أن تعذره..»

هدأ (قاقم) أخيرًا، وقال وقد كفَّ عن نبرته المستفزة وعكف على فرك مقلتيه بإنهاك:

- «هربنا لهنا فرارًا من الكل! الكل يحشر أنفه في مسائل الكل! يتساءلون دوما عن علاقتي بكاتي، إنها زوجتي، وأنا لا أخجل من ذلك بل أفخر به، أحبها وأغير عليها، لكنهم يسخرون من زواجي بها ومن غيرتي عليها لفارق العمر الكبير بيننا..»

- «وتعيشان منفصلين عن بعضكما؟ أثمة مضايقات هنا أيضا؟»

أجابته هي واجمة:



- «للأمانة لا توجد، لكنها رغبتي في أن يقطن (قاقم) شقة بمفرده، لربما بحكم العادة والتوجس من بدء الكابوس من جديد.. لا أعلم، قد أكون سيدة خرفة فحسب.. نريد فقط أن يدعنا الكل وشأننا!»

لم أتساءل أكثر.. واضح أنهما قد عانيا الأمرين بالفعل من تجارب قاسية سابقة!

شعرتُ بتفهم إلى حد ما لموقفهما وإن بدا الأمر برمته مضحكا بالنسبة لي.. إفلاسه، نظرات ساخرة من الجيران، إشاعات أخبار تنتقل في الأحياء الأخرى أو في السوق، ثم تتحول حياة زوجية هانئة - رغم فارق السن الرهيب- إلى طرفة سيئة تلوكها الألسن هنا وهناك، ويظهر الفتية للتحرش بالزوجين البائسين، ولربما يجيء التلفاز لعرض حكايتهما لصالح حلقة من برنامج دنيا الطرائف..

قال (قاقم) وقد فقد أغلب عدائيته مُضحيا شخصا تسهل محادثته:

- «أنا أحب (كاترينيت) وهي تحبني لحسن حظي، من في الأرض بإمكانه تفهم العلاقة التي تربطنا ببعض؟»

- «ولِمَ أنت خائف هكذا؟ ألم تصلا إلى هنا لهذا السبب؟ أتحسبهم يكترثون هنا لمثل هذه الترهات؟ أنا وصلتُ حديثا ولا أظن ذلك!"

- «الحق معك، لكنه التوجس فحسب.. أعتقد أنك عملة نادرة يا بني.. تماما كغطاس!"



- «كثير من الناس بإمكانهم التفهم، لكنهم قلة على ما يبدو!»

عبارة متناقضة للغاية! لكنهما لم يلاحظا ذلك لحسن حظي! لربما كانت جملتي المتعثرة الأولية غير المستنسخة!

ربتت يد (كاترينيت) المعروقة الناحلة على يدي، وبمودة قالت لي:

- «أنت فتى طيب، وأتمنى أن تصير و(غطاس) جيراننا للأبد.. إن لي نظرة لا تخيب، لذا جاهرتُ بالحقيقة أمامك!»

صافحني (قاقم) كذلك، وقال لي وابتسامة مشجعة تملأ ثغره الجاف:

- «بدأنا بداية سيئة للغاية، والآن أسألك الغفران وبأن تصير صديقا دائما لنا.. اتفقنا؟»

شعرتُ براحة مطلقة وأنا أجيبه بالموافقة.. كان لدي فضول بشأن كيفية وصولهما إلى هذا المكان، لكنني قررت الاكتفاء بما حققته معهما اليوم..



الجزء الثامن

سلمنا من الشرور





الفصل السابع عشر

هـدر صـوت الأب (جوزيـف) الرخيـم بتـلاوة ختاميـة مـن سـفر التكويـن، موزعا نظراته على رعايا أبرشـيته الذين توزعـوا على أرائك الكنيسة الخشبية في يوم أحد بارد:

- *«وحـدث لما ابتدأ النـاس يكثرون علي الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسـنات.. فاتخذوا لأنفسـهم نسـاء من كل ما اختاروا.. فقال الرب: «لا يدين روحي في الإنسـان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر..»*

كان فـي الأرض طغاة في تلـك الأيام.. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو اللـه على بنات الناس وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم..“

انتهت الموعظة باكرًا، فالأب لا يشعر أنه على ما يرام..



لربما كان البرد السبب.. ولربما إيجاده لزجاجة النبيذ الرطبة تلك داخل حجرة الاعتراف على الكرسي، كما لو كانت رسالة موجهة إليه من قبل مجهول!

أنهى عملية تبخير القاعة، مرددًا مع الشماس المراهق خلفه تراتيل من الإصحاح الثامن لسفر الرؤيا:

- «وجاء ملاك آخر وقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب، وأعطي بخورًا كثيرًا لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذي أمام العرش..»

- «فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله..»

- «ثم أخذ الملاك المبخرة، وملاها من نار المذبح وألقاها إلى الأرض، فحدثت أصوات ورعود وبروق وزلزلة..»

- «ثم إن السبعة ملائكة الذين معهم السبعة الأبواق تهيئوا لكي يبوقوا..»

ما إن انفرد الأب بنفسه، حتى استخرج سيجارة أشعلها بتؤدة، وبسأم راقب الشارع الذي تطل عليه نافذة غرفته، وهو يفك ياقته البيضاء كي يتنفس بحرية..

***



كانـت اعترافـات رعايـا كنيسـة الأب (جوزيف) سـببا فـي إصابته بصداع الشقيقة..

السـيدة (أم ماركو) تنتحب بصوت مسموع، مطلقة العنان لسيل من الاعترافات الشنيعة:

- «لعل الرب يغفر لي نهمي المخزي يا أبونا!»

- «للجنس؟»

- «لا حبـا بالـرب! للطعام! ليـس بإمكاني منع نفسـي الخاطئة عن تناول الحلويات والمعجنات، أفتح ثلاجتي ليبدأ صراع بداخلي ما بين الاكتفاء بتفاحة، أو اغتراف قطعة هائلة من كعكة الجبن!»

السيد (أنطون) يهمس بعصبية:

- «أبانـا في السـماوات، فليتغمدنا برحمته.. لم أعد أنظف أسـناني بالخيط، إذ سمعت أنه بدعة شيطانية!»

- «ليس كذلك..»

- «أأنت متأكد يا أبونا؟ حين أمسـك ذاك الخيط بأصابعي الشـمال واليمين أشـعر أنني أسـتعد لخنـق أحدهم، كنتُ معتادًا على اسـتعمال الخيط، والآن أعتمد على الفرشاة والمعجون فحسب..»

- «وأين المشكلة؟»



- «أحن لاستخدام الخيط، وأجد نفسي راغبا باستخدامه مجددًا، لكنني لا أحاول التفكير بالأمر، اليوم أمسك بالخيط لتنظيف أسناني، غدًا أتشبث بسلك بيانو أو بوتر كمان لخنق زوجتي التي لا تكف ثرثرة عن جارنا (رينيه) وكيف يريح زوجته!"

تبدأ عندئذ عضلات فك الأب بالارتعاش، تنتابه تلك الحالة حتى لدى لحظات التبسم أو الضحك، وأحيانا يشعر بأن شفتيه قد شلتا، ولحسن حظه أن هذا يحدث فقط في حجرات الاعتراف، وليس أثناء إلقاء موعظة كل أحد..

زار صديقا مقربا له يعمل طبيبا، فأطلعه عقب إجراء بعض الفحوصات أن حالته سببها نقصان بعض الهرمونات وتكاسل بعض الغدد، أحيانا يختل توازن الأب أثناء المشي، وكثيرًا ما يفقده أثناء هبوط درج قصير فيتعثر عثرة طفيفة، الطبيب أخبره أن السبب هو افتقار بدنه لبعض المعادن والفيتامينات..

لكن الأب كان يشعر بأن السبب الأول والأخير لمشاكل الارتعاش والاختلال عصبي وليس بدني، وحين أطلع صديقه الطبيب بذلك أيّده كون بعض الأمراض العصبية قد تسبب رعشة في الجهاز العصبي، إلى جانب اختلال التوازن، وفي مرات عديدة تؤدي لتساقط الشعر..



فـي غرفة الاعتراف وعقـب عثوره على زجاجة النبيـذ تلك، داهمه الصـداع، ومازجه دوار خفيف ورؤية تبدت مزدوجة، شـعر بثقل بدنه، فابتدأ يهرش رأسه شاعرًا بانعدام التركيز..

التقط الزجاجة، ووضعها عند قدمه بذهن لا يكف عن التسـاؤلات الحائرة بصددها، قبيل إنصاته لمزيدٍ من الاعترافات الخطيرة:

- «يـا أبونا.. أهلكتني أوجاع ظهري ورقبتي من كثرة الجلوس على مقعد الوظيفة المؤرقة..»

- «حافظ على صحتك.. استشر طبيبا!»

لاحظ بحة مريبة في حنجرته لدى النطق، فتنحنح بضع مرات، ومن ثم، همس ممررًا إبهامه على حنجرته كأنما يحاول تدفئتها:

- «ولا تلتصـق بمقعـدك ذاك، فالإغـراء بالجلـوس ينافـس إغـراء الوقوف..»

رحلت البحة، وإن خلفت شيئا هنالك، في نفسية الأب..

***

اتصل به الطبيب ليخبره أن نتائج فحص الدم قد ظهرت أخيرًا..

- «أنت مصاب بمتلازمة كريغلر!»

- «متلازمة ماذا؟»



كان طبيبـا غريبا عنه، وقد كان عمليا للغاية لحسـن الحظ، فلم يكن الأب مستعدًا لتحمل ود صديقه الطبيب..

صب لنفسـه كأسا ضئيلة من زجاجة النبيذ الممتازة التي وجدها في حجـرة الاعتـراف وطبيبه الجديد يشـرح له بترفق.. هـو اضطراب نادر يخلـف مادة كيميائية تكونت من انهيار الـدم، وغالبا ما يؤدي إلى تلف في الدماغ..

- «عادة، يكون نتيجة لزواج الأقارب..»

مرضـه من نوع نادر للغاية، وزواج الأقـارب يزيد من خطر الإصابة بهذا المرض، العلم كان دقيقا للغاية، فوالدته هي ابنة خال والده..

المريـض بحاجـة لكبـد جديد، وينصـح بزرعه باكـرًا وإلا بات غير فعال في سن متأخرة..

تجرع الشراب من الكأس على دفعة واحدة، قبيل تساؤله بهم:

- «أثمة أمل؟»

- «واحد من أصل عشـرة عولجـوا بزراعة الكبد وتماثلوا للشـفاء، ولا أخفيك أن نسبة الإصابة بهذا المرض النادر غير معروفة لغاية الآن، إذ لم تسَجَّل سوى بضع مئات من الحالات في العالم!»

- «وماذا يتوجب عليّ فعله الآن؟»



- «سنواصل العلاج بدواء الفينوباربيتال، وسنضعك على لائحة الانتظار ريثما نجد متبرعا مناسبا للكبد، وكلما كان ذلك أبكر كان أفضل.. أي استفسارات أخرى؟"

أي استفسارات أخرى يقول!

***

شعر الأب (جوزيف) وهو قابع داخل سيارته الخضراء الرديئة بانتظار اخضرار إشارة المرور أنه مسجون.. داخل بدنه الخاص، داخل السيارة المتهالكة، وأمام الإشارة البطيئة..

تفكر في الوقت المهدور بلا استثمار أمام تلك الإشارة، وتذكر طقوس الاستيقاظ من النوم قبيل الذهاب للكنيسة، مؤخرًا كان يتأخر بالنوم لدرجة عدم إيجاد وقت لارتشاف قهوة الصباح..

تبدت الإشارة حمراء إلى ما لا نهاية، غير قابلة لتبديل لونها المستفز، كان في الماضي ينتظر اخضرارها بنفسية أقرب للشاعرية، أحيانا يُمجد الرب أثناء الانتظار، وأحيانا أخرى يشغل المذياع للإنصات لمحطة الموسيقى الكلاسيكية..

ارتفعت بعض الأبواق أمامه وخلفه، فتأمل صفوف السيارات الطويلة شاعرًا بالاختناق، راقب وجوه بعض السائقين والسائقات،



تفكر برهة بما يحدث في دنياهم الخاصة، ثمة ضاحك وعابس، عصبي ومتجهم، كان فضوليا يوما بخصوصهم.. أما الآن، فهو لا يكترث حتى ولو احترقوا أجمعين في سعير الجحيم!



الفصل الثامن عشر

«ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده..

فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة..

وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لا بد أن يحل زمانا يسيرًا..

ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله، والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم، فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة..



وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف السنة، هذه هي القيامة الأولى..

مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم، بل سيكونون كهنة لله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة..

ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه..“

انتهت الموعظة باكرًا، رغم أن الأب (جوزيف) على خير ما يرام!

ترك عملية تبخير القاعة للشماس المراهق..

وما إن انفرد بنفسه، حتى استخرج سيجارة أشعلها بارتخاء، وبشغف، راقب الشارع الذي تطل عليه نافذة غرفته وهو يفك ياقته البيضاء كي يتنفس بحرية..

ثم فتح الخزانة، والتقط حقيبة سفر احتملها بيسر حتى سيارته..

تأمل ساعته، فوجد الوقت لا يزال باكرًا.. لا بأس، سينصت لبعض الاعترافات ومن ثم ينطلق..

***

السيدة (أم ماركو) لا تكف عن الانتحاب بصوت مسموع مطلقة العنان لمزيدٍ من الاعترافات المشينة:

- «لعل الرب يغفر لي نهمي المخجل يا أبونا!»



- «للطعام؟»

- «الحلويات تحديدًا! فقد تمكنت من السيطرة على شراهتي للحوم والبيض ومشتقات الألبان من جبنة وزبدة ولبن وحليب.. لكن البسكويت! رباه! الشوكولاتة والغاتوه والآيس كريم! أفضل التهامها في مغطس مليء بالمياه الدافئة وفقاقيع الصابون على ممارسة الجنس مع زوجي في ذات المغطس! جربتُ إشغال وقتي بتنظيف الأثاث وتلميع النحاسيات، غسلت وكويت سجاجيد وستائر وملابس المنزل برمتها، حاولتُ تخيل مأكولات مقززة أثناء التهام تلكم المشهيات الحلوة.. لكن دونما فائدة!»

السيد (أنطون) يهمس بعصبية:

- «أبانا في السماوات، فليتغمدنا برحمته.. أخرج من المنزل مبتعدًا عن مصادر الإغراء، أذهب في نزهة على القدمين في الحديقة العامة، أحاول التركيز في حل الكلمات المتقاطعة أو الألغاز في الصحيفة، لكن بلا أدنى فائدة.. أعتقد بأني أشتهيها..»

- «لكنها.. زوجتك!»

- «لا يجوز ذلك يا أبونا! لا يجوز لي اشتهاؤها فهي أم أطفالي، لقد أنجبنا وانتهى الأمر!"

- «لكن هذا ليس صحيحا..»



- «أأنـت متأكد يا أبونا؟ والأسـوأ أن زوجتي تصـر على تغيير ثيابها قبيل الاستعداد للنوم وأنا موجود في الغرفة..»

- «وأين المشكلة؟»

- «كما لا تكف ثرثرتها المسـتفزة عـن جارنا (رينيه).. وكيف يريح زوجته!"

يتبسـم الأب، ويجاهد مطولا لكتمان ضحكة الاسـتهزاء التي تكاد تنبثق من حلقه الواهن..

❋❋❋

تـلا الأب (جوزيـف) دعـاءً أخيـرًا، قبيـل نهوضـه لمغـادرة حجرة الاعتراف والكنيسة برمتها لبدء إجازته التي قرر أخذها عنوة..

ثـم لـم يلبـث أن عـاد لمقعده الخشـبي متبرمـا، حين سـمع صوت بـاب حجـرة الاعتراف الملاصـق يفتح ببطء، ثمة شـخص آخر قد أتى للاعتراف..

حسنٌ، سينصت لترهاته، ومن ثم يغادر على الفور..

فتح فمه ليطلب من الزائر الاعتراف بنفس مطمئنة، لكنه سمع صوتا فتيا متمهلا يقول بهدوء عجيب:



- «هل كان جوزيف مخطوبا لمريم؟ وهل فكر حقا في فسخ الخِطبة منها وأخذها وهي حبلى من الناصرة إلى بيت لحم حيث عشيرته وأهله حماية لها من الإشاعات التي اتهمتها بالزنا؟»

- «ماذا تريد بالضبط يا بني؟"

- «طالعتُ عن حكاية هروب جوزيف مع عائلته من مصر كون هيرودس أراد قتل المولود يسوع بعد أن حقق مع المجوس الثلاثة الذين سجدوا وقدموا الهدايا ليسوع الرضيع!»

- «أنت تسأل وتجيب بآن واحد!»

- «توما الأكويني أكد ضرورة وجود جوزيف في حياة مريم، إذ لولا وجوده لرجمها اليهود بتهمة الزنا.. أصحيح ذلك؟ ألم يكن يسوع نجارًا تماما كما كانت مهنة جوزيف؟ ماذا عن حكاية تحويل المسيح الماء إلى نبيذ؟"

- «عم تتحدث؟»

- «أصحيح ذلك؟ أكان ذلك بطلب من مريم؟ أكانت على علم بمقدرة ابنها الغريبة تلك؟»

تبادر لذهن الأب تساؤل ملح، فعجَّلَ به:

- «أأنت من وضع زجاجة النبيذ تلك في حجرة الاعتراف؟»

وحين لم يتلق جوابا، همهم متصنعا برودة الأعصاب:



- «ما تقوم به غير أخلاقي يا بني!»

- «غير أخلاقي؟»

قالها الصوت بأسلوب هازئ، فنهض الأب مزمعا طرده..

لكنه لم يلبث أن عاد لمقعده وببطء شديد، حين سمع كلمات الصوت التالية:

- «دعني أطلعك على ما هو غير أخلاقي أيها الأب، إنه الاستغلال المنحط! وخصوصا داخل دور العبادة، والأدهى في حجرات الاعتراف!

قل لي أيها الأب، هل لا زلتَ تذكر تلك الطفلة الصهباء؟ كانت تلبي مكرهة رغباتك أسبوعيا! وكانت خلواتك المتكررة بالطفلة تقع داخل غرفة كهذه.. قل لي أيها الأب، أكنتَ حقا مستريحا أثناء تواجدها على فخذك وأنت جالس على كرسي الاعتراف بالخطايا؟"

- «أنت مجرد مخبول مخرف!»

- «ماذا كان اسمها؟ أجل.. (مريم)!»

تعرق جبين الأب (جوزيف) بضراوة، وبصعوبة تامة نطق متلعثما:

- «أنا لا أعلم عما..»



- «طريـف أن يجلس أحدهم لكي يكشـف لكم - معشـر الكهان- عن خطاياه في سـبيل الغفران، فتوقعونه بمزيـد منها! وأين؟ على ذات المقعد!»

- «أنا لم..»

- «ليتهـا كانـت مرة واحـدة! أخبرني أيهـا الأب.. أتجد لـذة معينة بملاعبة الأطفال على هذا المقعد بالذات؟ أهو مريح لهذه الدرجة؟»

بدا الأب (جوزيف) متهالكا فوق مقعد الاعتراف، وابتدأ يفك ياقته البيضاء الخانقة متسائلا بعسر:

- «ما الذي تريده بالضبط؟ تريد مالا؟»

لدهشته، سمع تنهدًا عميقا، ثم سمع الصوت يقول:

- «هذا يوم حظك أيها الأب، إنني منهك بحق، لذا سأعرض عليك صفقة.. سـلم نفسـك واعتـرف بخطايـاك، ليس هنـا طبعـا وإنما لدى الشرطة في محضر رسمي.. هل بإمكانك فعل ذلك لي؟»

كان الأب (جوزيـف) في تلك اللحظة متسـمرًا، كما لو كان ينصت لاعترافات الشيطان شخصيا!

لم يدر كيف تمكن من النطق، ولكنه وحين فعل أجاب متعرقا:

- «سأفعل!»

- «عظيم! قد أرحتني من عناء تمزيقك!»



تصلـب الأب (جوزيف) منتظرًا صوت فتح بـاب حجرة الاعتراف المجاور مؤذنا برحيل محدثه، وقد قرر - رغم ذلك- الالتصاق بموقعه حتى يتأكد من رحيله نهائيا..

خـرج أخيرًا لتفقـد حجرة الاعتـراف الأخرى، وحيـن فعل، تنفس بصعوبـة وقد جثا على ركبتيه، وشـده بصره، واختلطـت دموعه بعرقه، فاستمسك بالمسبحة بين أنامله مدمدما كأنما ينتحب:

- "ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده..

فقبـض علـى التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشـيطان وقيده ألف سنة..

وأمـا بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف السـنة هذه هي القيامة الأولى.."

فالحجـرة كانت خاوية على عروشـها لحسـن حظـه، اللهم إلا من زجاجة نبيذ جديدة!

اعتصـر الألـم كيانه بشـدة، وتهـاوى بدنـه المثقل بأطـراف مرتعدة واللعاب الأبيض يتسرب من فمه بلا هوادة..



شعر بشيء يمزقه داخليا من الأعماق، في حين، واصل لسانه النطق بزيغان متلعثم:

- «ثم متى.. تمت الألف سنة.. يحل.. الشيطان.. من.. سجنه!»

***

- «وهل علمت من يكون الشيطان؟»

- «ماذا قلت؟»

كذا تساءل الأب (جوزيف) بذهن شارد، قبيل تلفته ببطء صوب (عماد)، الذي وقف على عتبة الباب رافضًا الدخول..

حين مرَّ (عماد) بهذه الشقة، وجد على الباب حفرًا بنصل سكين يمثل رسمة الهلال مع الصليب عوضًا عن الرقم الذي من المفترض أن يكون (٦)، لم يدر لِمَ انزعج كل ذلك القدر، وضاقت نفسه أكثر لدى طرق ذلك الباب..

كان الأب (جوزيف) لطيفا، دعاه للدخول، لكنه لم يتمكن من تلبية الدعوة، خصوصا حين وجد الرجل قد حوّل شقته لما يشابه كنيسة صغيرة بسيطة، إلى جانب مصلى مبسط أيضا..

- «أعتقد أنه ببساطة كان أنا..»

- «لذتَ بالفرار طبعا حتى لا تنكشف، هكذا وصلت إلى هنا..»



- «ليس تمامًا.. لم ألذ بالفرار خوفًا من فضيحة جنسية، وإنما دينية!»

- «ماذا تعني؟»

- «في الواقع أنني مسلم! ألم تستغرب من تواجد الهلال مع الصليب على الباب؟»

اتسع بصر (عماد)، فاسترسل الرجل ضاحكا:

- «من حقك الاستغراب، ولكن ضع نفسك مكاني، الكنيسة تدفع أجرًا أفضل من المسجد، بفضلها أجريت الفحوصات الطبية المتعلقة بمرضي، والمشاكل مع الصغار يتم حلها مع الكنيسة بصورة أسلس في حال انكشف أمري!

وبحال انكشاف أمري فالمسألة لا تمس أئمة المساجد بأي شكل، إذ إن تهمة التحرش بالأطفال ملتصقة منذ الأزل برجال الكنيسة، برأيي هو عقاب عادل، فكما ألصقت بنا تهمة الإرهاب عليهم بتحمل وزر تهمة أخرى شنيعة بدورها!"

- «حيلة ماكرة، طريف أنك فكرت بها خلال مدة احتضارك!»

- «والآن، أنا رجل الدين الوحيد الجامع ما بين ديانتين هنا، كنتُ لأضع نجمة "داوود" كذلك لولا أني لا أرحب بتواجد اليهود في الشقة الإلهية، ولحسن الحظ عدم تواجد واحد منهم في البناية برمتها!



أرحــب بكل مصل هنا، وسـأكون سـعيدًا لـو تدبرت لـي هلالا مع صليب، من الخشـب أو من أي معدن، وذلـك لتعليقه على بابي عوضا عن الحفر المنفر!"

دوّن (عماد) مطلبه مسـتخدما قلما وورقة، بالأحرى رسمه، الهلال مع الصليب مع الرقم (٦)..

ثم انسحب مسرعا وقد تعاظم شعور الغثيان في نفسه..





الجزء التاسع

رهين المحابس





الفصل التاسع عشر

«مسودات»:

لم أذهب لصلاة العيد..

ليس تكاسلا مني، بل لأن عائلتنا غير مسلمة..

لسنا على دين معين أو مألوف حتى، نحن عائلة أقرب لسويسرا، اتخذنا موقف الحياد من مسألة الأديان، أمام المسيحي نحن مسيحيون، وأمام المسلم نحن مسلمون.. وهكذا دواليك!

وبما أننا نقطن حارة مسلمة.. حسنٌ.. يكفي القول بأن والدي –المجامل لأبعد الحدود– كان مواظبًا على الذهاب لصلاة العيد برفقة الجيران، ثم يعود كي يُعمل سكينه في الأضحية كأي مسلم يطبق شعائر دينه بدقة!



والدتي – المجاملة لدرجة الابتذال– نظفت كل شبر من دارنا، وساعدت الجارات في صنع المعمول، وشقيقي الأكبر – محدود الأفق– خرج مع رفاقه للتسكع مرتديا ثيابه الجديدة، وحتما لتجربة بعض المفرقعات غير القانونية، في حين، اعتدت أنا البقاء في الدار متمددًا على السرير، متمعنا في السقف عله يلهمني بأفكار غير تقليدية أنفذها هذا اليوم..

طبعا، لا بد من وضع سماعات سميكة على أذنيّ للإنصات إلى صخب "ميتاليكا"، متصفحا عددًا حديثا من دليل السينما، فلربما وجدت شيئا يستحق المشاهدة في الصالات الليلة..

وإلا، فهي لعبة السنوكر، سئمت منها صراحة، فالغلبة لي دائما، ورفاقي – المسلمون– لا بد وأن ينكروا هزيمتهم بكثير من الثرثرة العجيبة التي لا طائل منها، ابتداءً بميل طاولة اللعب، وانتهاءً باعوجاج العصي أو عدم بري رؤوسها بصورة دقيقة! هذا قبل إبداء ملاحظاتهم الملتهبة حول مدى فتنة ساقية الصالة اليوم، وماذا سيحدث لو تنازلت لأحدهم ليلة واحدة فقط!

عيد الأضحى، حيث يُعمل العائدون من الصلاة أنصال سكاكينهم وسواطيرهم في رقاب النعوج والخراف التعسة قبيل عملية السلخ المخيفة، وبالطبع لا بد من حضور ذبح الأضحية، وهو ما لا يروق لي بتاتًا، فأنا أمقت رؤية الدماء، اللهم إلا لو كانت في فيلم رعب!



وقفتُ مستندًا للجدار متسليا بمراقبة الطريق شبه الخالي، فشارع الحي مكان هادئ، إلا لو مرت شلة (غالب)، والأسوأ لو لمحوني، عندئذ لن يتوقفوا عن مطاردتي حتى يمزقوا ثيابي تمزيقا، وبالطبع مع كثير من الضرب!

***

وقفت أمام منزل جيراننا..

أرسلتني والدتي في مهمة لجلب بعض التوابل التي تنقصها، وذلك لتجهيز ما سيتبقى من أضحية العيد كطعام غداء لنا..

شعرت بضيق لا حدود له وهي تحذرني.. وأرجحت رأسي متظاهرًا بحسن الإنصات وهي تهمس كالمهددة:

- «اذهب إلى أي بيت، أي بيت عدا بيت آل (دساس).. هل فهمت؟"

لم أرد، ولحسن الحظ أنها اكتفت بإيماءاتي..

خرجت لأول البيوت، وهناك انتظرت مطولا قبل أن أرحل، إذ لم يستجب لصوت الجرس أحد..

وفي المنزل الثاني، ناولتني أم (جابر) بلطف كيسا ضئيلا يحوي بعض الفلفل الأسود، واعتذرت عن باقي الأصناف التي طلبتها لأنها تنقصهم كذلك و(أبو جابر) سيجلبها في طريق العودة، ثم أنبتني



لتقاعسي عن أداء صلاة العيد في المصلى، فكذبت متعللا بألم قاس في الركبة من جراء لعبة كرة قدم عنيفة يثنيني عن السجود..

- «أين (جابر)؟»

- «المتكاسل لا زال نائما لغاية الآن.. هو الآخر لم يذهب لصلاة العيد!»

شكرتها وخرجت، ثم توقفت هنيهة لرمق دار آل (دساس) كما لو كنتُ لصا يفكر بالسطو عليها..

لا شيء يميز دارهم عن باقي دور الحي، لكن تحذيرات والدتي جعلتها في نظري كدار جديرة بسفاح مخبول!

ضغطت زر جرسهم مرة ثم طفقت أنتظر..

طال انتظاري، فقررت عقب تردد معاودة ضغط الزر، حيث كنت ممن يتطيرون من دق جرس أي باب أكثر من مرة واحدة، شيء له علاقة بمعتقداتنا العجيبة، ولربما كان الجرس معطوبا!

هنا فتح الباب أخيرًا، فظهرت على عتبته جارتنا المتحجبة، بسحنة شاحبة يصعب تبين آثار للحياة عليها، فشعرت بارتباك لا حدود له وأنا أهمس:

- «صباح الخير جارتنا.. عيدكم مبارك!»

بعسر تبسمت، وببطء ردَّت:



- «صباح النور..»

أطلعتها على مهمتي، فأرجحت رأسها متفهمة، ثم دخلت قائلة:

- «اتبعني..»

دخلت وراءها، وتأملت المكان بطمأنينة بعض الشيء، رغم أن المكان غير نظيف بصورة طيبة، فالطاولات مغبرة، والنوافذ بحاجة لتلميع..

ويبدو وأن جارتنا قد لاحظت نظراتي لكل ركن وقطعة أثاث من بيتها، ولم تكلف نفسها عناء رفع المعلبات المفتوحة من على مائدة الطعام في المطبخ، بل شرعت تبحث عن التوابل التي طلبتها بين الأرفف، وهي تقول بوجل:

- «إذا أردتَ مشروبا فستجد في الثلاجة..»

- «شكرًا..“

اطمأننت إلى أنها تخرج التوابل وبعض الأكياس الصغيرة لتعبئتها، فتمعنت في الأرجاء قليلا، قبل أن أوسع من نطاق بحثي إلى خارج المطبخ..

البيت غير نظيف حتما، واليوم عيد، لكن..

قطعتُ خواطري مطالعا صورة بعينها لفتى يقاربني بالعمر..

كنت أعرفه طبعا، فهو..



- «كنتَ تعرف (فؤاد).. أليس كذلك؟»

نظـرت للوراء لأراهـا حاملة عددًا مـن الأكياس الصغيـرة الممتلئة بالتوابل المطلوبة، فأرجحت برأسي مجيبا:

- «أحيانا كنا نلعب سوية كرة القدم..»

تبسمت بشيء من تأثر، ثم دنت ببطء أخافني بعض الشيء، ودفعني للتراجع بضع خطوات للوراء!

تذكرت خوف (فؤاد) الدائم منها، وكيف كان يسـرد عليّ حكاياتها العجيبة والمخيفة له قبل أن ينام..

في ليلة العيد الصغيـر، هرب (فؤاد) من منزله تاركا والدته وحدها، لربمـا للأبـد.. ولم ألمه، أنا نفسـي كنتُ أهاب والدتـه، خصوصا حين كان يسرد عليّ بعضا من حكاياتها المخيفة، كما لو كانت تتعمد إصابته بالأرق!

- «أتريد بعض القهوة؟»

- «شكرا يا خالة، لا أريد..“

- «بل تريد!»

وناولتنـي فنجان قهـوة بارد الملمس، ثم تمعنت فـي حدقتيّ مرددة بشيء من قساوة:

- «اشرب!»



فشـربت.. خائفـا فعلت، لم أطـق نكهة ما شـربته، لكني اضطررت للمواصلة توجسا منها..

سارعت بتناول الفنجان مني حالما فرغت، قائلة برقة مصطنعة:

- «دعني أقرأ لك الفنجان!»

كانت تلك تسـليتها العظمى حسـبما سـمعت من والدتي، ولطالما طالعـت الفنجـان لنسـوة الحـي بنجـاح فائق، وقـد لمحتها مـرة تطالع فنجان عانس مؤكدة لها أن العريس على الأبواب، ولشـدة ما استغربت حيـن أكـدت والدتي مذهولـة أنها - العانـس- قد خطبـت عقب تلك المطالعة "النوسترادامو سية" بأسبوع!

- «(بليغ).. أليس كذلك؟»

كنـتُ صديق ولدها الأوحد، ومعرفتـي بهما وطيدة، لكنها تصرفت معي بغرابة وغربة.. كما لو كانت تسمع اسمي للمرة الأولى!

رمقـت قاع الفنجان بنصف عين، ثم أصدرت صوت شـفط من بين أسـنانها كمـا لو كانت تحـاول التقاط شـيء عالق بين النـاب والقاطع، وبهمهمة:

- «اسمع يا (بليغ).. ستغدو تاجرًا ناجحا!"

- «لا أحب التجارة..»



- «ليس من شـأني أو شأنك أن تحب، الفنجان هو الذي يقرر، وقد قرر أن تكون تاجرًا!"

لم يرقني حديثها، فقلت متحديا نظراتها الباردة ولهجتها المستفزة:

- «ألم يخبركِ الفنجان بمكان (فؤاد) إذن؟»

لـم تتغيـر ملامحها، لكن الغريب ما قالته عقـب مصمصة كريهة من شفتيها الجافتين وبازدراء تام:

- «(فـؤاد) أصابتـه اللعنـة التـي تصيـب عـددًا محـدودًا للغاية من البشر، سيعتزل الجميع والجميع سيعتزلونه لمدة طويلة، ولربما للأبد، محبتهم له وتعلقهم به سيكون لعمله لا لشخصه..

إن روحـه باتت ملعونة لأبد الآبدين، هـو الذي اختار، اختار الورقة والقلم! وهذا ما أخبرني به الفنجان.. الفنجان لا يكذب!"

ثم بصقت بمرارة..



الفصل العشرون

- «يا ماذا؟»

عـاود (بليـغ) التقاط سـيجارته الالكترونية، محاولا السـيطرة على أعصابه..

شـفط بنهم من طرفها المدبب، فاشتعلت بطارية السيجارة لتسخين الفتيلـة التي تبخر محلول العصير الالكتروني، ثم نفث بخارها الكثيف الخالي من ثاني أكسيد الكربون..

- «يا ماذا؟ يا ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟»

التقط مفكرته التي يدونها بخط اليد، وعاود تفقد الأسماء..

- «لدينـا (رحيـم)، و(مؤمـن)، و(مالـك)، و(عزيـز)، و(حليـم)، و(ودود)، و(بديـع)، و(سـميع).. من كان التاسـع حبًـا بالله؟ كيف لم أدوِّن اسمه؟»



حاول التذكر، وظل ساهما ربع ساعة كاملة..

ولكن، حين لم يتمكن من تذكر الاسم الذي اختاره، عاود – بيأس – انتـزاع اللفافة التي قام بطباعتها، فكرمشـها ورماها خلف ظهره لتتكور قريبة من شقيقتها الراحلة..

وهنـا تصلـب، ثم التفـت للخلـف بحركة سـريعة ومباغتـة للغاية، فتسمر (عماد) بمحله..

كانت نظرات هذا النزيل إليه غير إنسانية، تحجر مهيب في محجريه وصـوت يصـدر بـلا توقف عـن لسـانه وأسـنانه، كمـا لـو كان يحاول استخراج بقايا طعام عالق من بين أسنانه!

أنامله المعروقة والمتعرقة توقفت فوق أزرار آلته الكاتبة الرمادية من طراز Brother De Luxe ، ملتقطا سيجارته الالكترونية الفضية..

تناول نفسا منها، ثم همس بنبرة قاسية:

- «ماذا تبغي؟»

- «كنتُ أطرق الباب دون..»

- «ألم تسمع صوت نقر الأزرار؟ حين تسمع صوت نقر الأزرار..»

وشـرع ينقـر أزرار الآلة الكاتبـة بصخب، كأنما يُعلم (عماد) درسًـا قيمًا..

- «عليك أن تذلف بعيدًا لأني مشغول.. فهمت؟»



كان يكرر مشـهد (جاك نيكلسون) مع زوجته والآلة الكاتبة في فيلم "اللمعـان" بحذافيـره، ويبـدو وأن تأثير ذلك كان أكثـر من كاف.. إذ أرجح (عماد) برأسه، قبيل انسحابه دون أن ينطق بحرف..

كفّ (بليغ) عن رمق الباب المفتوح، ونهض ليقفله..

ولكـن، وقبل أن يفعـل، تأمل برهة باب الغرفـة قبالته والذي يحمل الرقم (١٣)..

دنـا ليطرق الباب بضع مرات، ففتح لتظهـر على عتبته امرأة أربعينية جذابـة تحمل بيـن أناملها سـيجارة ممتلئة ذات خطـوط حمر، طوقت عنقها بشال معقود على الجنب الأيسر، وارتدت فستانا حريريا يكشف عن ساقين متناسقتين غطتهما بجوارب داكنة شفافة..

- «لا زلتِ تدخنين قمامة المختل؟"

- «تسألني وكأنك أقلعت!»

رفع واجما سيجارته الالكترونية، فدمدمت باستهزاء:

- «ذات المخاطرة، ألا تعلم أن السـجائر الالكترونية تسخن لدرجة تمكنها من منحك دفقة من المسرطنات؟"

- «فلنتراهن أينا يموت أولا!"

- «حتما أنت!»

- «يا لها من ثقة!»



خلفها على السرير، ثمة قط رمادي ممتلئ من سلالة فارسية، يخمش بمخالبه عددًا من أوراق "فولسكاب" المبعثرة، وتمكن من لمح حاسوب المرأة النقال مفتوحا على طاولتها..

ذلك القط حظي بشهرة جدلية أكبر من صاحبته المتعصبة لسبب غريب، إذ انتشرت في الوسط الأدبي شائعة عجيبة مفادها أن صاحبته - نصيرة الأنوثة- قد اختارت الزواج به عوضا عن اختيار رجل حقيقي لها من لحم ودم، وذلك - حسب أقوالها- كي يتسنى لها التفرغ للكتابة، ولأن القط - حسب زعمها- يفهمها أكثر من الرجل المستبد والمتعصب لرجولته!

- «عموما.. تهانينا الحارة على فوزكِ بالشقة يا (إلهام)!"

تبسمت المرأة بجذل شامت قائلة:

- «لا ضغينة هنالك يا عزيزي (بليغ)!"

- «عموما، أنتِ في بالي منذ ذلك الحين.."

- «يا له من إطراء!»

- «لذا أترجمكِ على الورق كنزيلة مسنة وأرملة في هذه الشقة، بلسان مخضر متعفن من أثر تقبيلها لقطها على فمه طيلة الوقت!"

لم تمح بسمتها، بل ردت بذات جذلها:



- «أنـتَ كذلـك في بالـي.. إذ تقطن - حسـب ورقـي - الغرفة رقم (١٢) لقضـاء شـهر العسـل، مع كهل يعرج مسـتعينا بعكاز من خشـب الصندل!"

رمقها بنظرة طويلة..

ثـم قفـل عائـدًا لشـقته، ولآلته الكاتبـة كي ينتـزع لفافة الـورق التي طبعها.. بعصبية كرمشها، وبإهمال رماها وراء ظهره..

❋❋❋

آلة الطباعة اللعينة علقت مجددًا!

هذه الآلة العتيقة لهي الأقرب شبها بالأنواع الحديثة؛ فتصميمها من حيـث التقنية والشـكل هما أهم ما يبرزها، ويجعلهـا أقرب إلى الأنواع الحديثـة، إذ تتبـدى كحاسـوب بدائـي يسـمح للطابـع برؤية مـا يكتبه بالضغط على أزرار بلاستيكية مريحة، خلافاً للأنواع الأخرى التي كان تصميمها لا يسمح بذلك مع أزرار معدنية تنفخ الأصابع نفخا!

شـتم (بليغ) الآلة وهو يجـذب ذراعها المعدنية الضئيلة مسـترجعا الاسـطوانة الرئيسـية عـدة مـرات، ومتفقـدًا عجلـة تثبيـت الـورق، ثم شـتم (فرانز وانغـر) مخترعها، رغم مدحه سـابقا لتصميمـه الذي اهتم بالقضبـان المتحكمـة في الحروف، فعندما يضغـط على الحرف يرجع مرة أخرى عقب طباعته..



وحين استخرج اللفافة التالية وألقاها خلف ظهره، بدأ هرم ورقي ضئيل خلفه بالتشكل..

***

"مسودات":

إذا أردتَ معرفة ماهية الحياة التي نحياها، وما إذا كانت تعايش حكاية حب واقعية معك، فيجب الاستعداد لخوض غمار رحلة شاقة ومتعسرة، عليك بخوضها وكأنك لا تمتلك ما يمكن خسرانه، عليك باختيار شيء ما تتحول إليه، عليك بتناسي المشاهد المؤلمة من حياتك والتجارب الفاشلة على الصعيدين المهني والعاطفي، عليك بتناسي لحظات القلق التي مررت بها وكل شائعة أطلقت بحقك وكل أكذوبة ألصقت بك، جد موهبة للفرار من همومك وأحزانك، ولا تحسب قضاء إجازة لطيفة في مصيف ستغنيك عن كل تلك الشروط المخيفة لفهم أسرار الحياة وماهيتها بالضبط!

لا تحملق كثيرًا بفتاة جميلة، ناحلة كانت أم ممتلئة، لا تحاول إلصاق صفات خلابة بها في مخيلتك العقيمة على غرار: "زهرة برية"، "جواد جامح"، "فاكهة ممتلئة بالعصارة ذات النكهة الطيبة!"

لا تضيع الوقت في محاولات خرقاء لمعرفة ما إذا كان لون شعرها طبيعيا أم لا، فمهما كانت مهاراتها وخبراتها المنزلية في صبغ شعرها



لا يعلى عليها، فلسوف تستعين بمصفف شعر محنك يمتلك خبرة أوروبية في صبغ الشعر الأنثوي مستخدما مادة مؤكسدة ذات فعالية، يستخدمها حسب طبيعة ومدى حساسية شعر الأنثى الجالسة أمامه..

ارمقها بنظرة: "واحدة أخرى" وافرغ من الأمر برمته، بإمكانك اختيار اسم من الأسماء الجذابة المحرمة إسلاميًا يليق بها: (يارا)، (ريماس)، (لمار)، (ريناد)، (مايا)، (هايا)، (هانا)، (لارا)، (راما)، (ناريس)، (لوران)، (لارين)، (ريلام)..

بإمكانك ابتكار تاريخ كامل يليق بها.. يا لها من أنثى متأسسة بطريقة صحيحة! لربما غير آيلة للسقوط كهذه البناية أيا كانت الضربات، ولربما تنعم باستقرار نفسي كونها ترتدي "البكيني" بكل ثقة، ربما أقل ثقة بنفسها ما دامت ترتدي كذلك نظارات شمسية تخفي مقلتيها.. فذات الثقة الزائدة تختار الظل المناسب لإبراز جمال عينيها، العيون السود يناسبها كل الألوان، والبنية تناسبها الألوان الزرقاء وتتجنب الأرجواني، والزرقاء تناسبها الألوان البرتقالية والزهرية وتتجنب الأرجواني والأزرق، والخضراء تناسبها الألوان الزرقاء وتتجنب الأخضر الذي يبهت لون العينين!

اختر الشكل الذي يمكن أن تطل من خلاله كما لو كنتَ شخصية إعلامية هامة، سواء أكنت مرئيا أم مقروءًا، تلك حرية شخصية، فلكل



إنسان شكل معين ووجهة نظر معينة، لا تفكر كشخصية محبوبة، ولكن فكر كشخص يثير الجدل، لربما بمجرد ما يرتديه..

ثـم أثـر لغطا بفكـر غير قويـم وغير سـديد، وأكد أنك مسـؤول كل المسؤولية عن عملية اتخاذ قراراتك الشخصية، وإياك ونسيان تأكيد كم أنت خجول، رغم فكرك المختلف، ورغم ما ترتديه من ثياب عجيبة!

الفتاة شـخصية خجـول، تخجل مـن المايوه التي ترتديـه ولربما لا تسـبح بـه، تخجل حيـن ترغب باكتسـاب لـون "برونزاجـي" خلاب، تتشـمس بخجل وأحيانا بعيدًا عن أعين البشـر، وأحيانا ترحب بالتقاط صـورة لها على تلك الوضعيـة، خصوصا لو كانت صورة لصالح مجلة ما للمشاهير، إنه دور إغراء مبرر وموظف دراميا، رغم أنها ليست ممثلة أو حتى عارضة أزياء، فلِمَ لا تتعلم منها؟

جـل أحلامها هـو "كاتاريبـون"، أتعلـم ماهيته؟ لا، ليس سـيجارة مخـدرات كالنفايـات المنتشـرة هنا بين سـكان الشـقق، أو من صنوف المشـروبات الكحوليـة.. إنـه مجـرد حذاء أنيـق وباهظ الثمـن بارتفاع ١٢ سـم، بربـاط هندي ملون متصالب ومزود بخيـوط ذهبية، وقد تجد منـه ألوانـا أخـرى كالأزرق والأصفر والأخضر والفوشـي والأسـود، وجميعها مزودة بقاعد للرباط لحسن الحظ!





توقف (بليغ) عن الطباعة مجددًا..

- «إكليشـيهي لأبعد الحدود! كيف يثير اللغط مرتديا ثيابا عجيبة لو زار مصيفا؟ عليه بالمايوه فحسب! ابتذال ابتذال ابتذال!»

وبغِـل، كرمش الورقة الجديدة راميًا إياها لتنضم إلى باقي شـقيقتها في الهرم الورقي خلفه، وبإنهاك، دعك جبهته مستذكرًا نبؤة والدة (فؤاد دساس)..

- «(فـؤاد) أصابتـه اللعنـة التـي تصيـب عـددًا محـدودًا للغاية من البشر، سيعتزل الجميع والجميع سيعتزلونه لمدة طويلة، ولربما للأبد، محبتهم له وتعلقهم به سيكون لعمله لا لشخصه..

إن روحـه باتت ملعونة لأبد الآبدين، هـو الذي اختار، اختار الورقة والقلم! وهذا ما أخبرني به الفنجان.. الفنجان لا يكذب!"

تنهـد متذكرًا قرار تمرده على فنجانها الذي كاد يحيله تاجرًا، وببصر شارد حملق بالجدار المشقق مرددًا:

- «أريد تلك اللعنة! أريدها بحق السعير!»

ثم بصق بمرارة..



الفصل الحادي والعشرون

خان الغرباء..

شقة من شققه..

شعر (عماد) بدوار الأرق يداهمه وهو مستلق على الأريكة، كمريض يجالس طبيبا نفسيا يحاول فهم فحواه، فقام بدعك عينيه متنفسا عبر فمه ببطء..

لم يفهم سبب الأرق، حسِبَ الحياة هنا ستكون أجمل، خصوصا لما اكتشف بأن مقدرته على الإحساس بالاهتزازات عن طريق الأذن عادت حاسة سمع طبيعية كديدن الكل، مجرد عملية بشرية اعتيادية، تبدأ بالصوت المنبعث وتنتهي بالمرور عبر طبلة الأذن!

لم يعد بإمكانه الإنصات بدقة، ليس لدرجة سماع دبيب النملة، ولكن لما يدور من وراء الجدران وبكل وضوح..



لم يعد معجزة سرية متنقلة..

أهي الجدران؟ أتراها عازلة للأصوات؟

إلا أن مقدرتـه علـى الإحسـاس بالاهتـزازات عن طريـق الأذن لم تتـلاش تمامـا، انتابته بين الفينـة والفينة، حتـى باتت ملحوظة بالنسـبة لسـكان البناية أنفسـهم، لكنهم لـم يكترثوا كون المبنـى بمنتهى القدم، ولم يلتفتوا لكثرة شـقوقه واهتزازاته كأنهـم على يقين من صموده ليوم يبعثون..

(غطاس) الراقد على تلك السـجادة بداخل الشـقة رقم (١١)، يغط بنوم عميق وقد ظل على سـرواله الجلدي الأخضر الذي لا يبدله بتاتا، ولربما كان فاقدًا لوعيه إثر رحلة جديدة..

تأملـه (عماد)، والغريب أنه لم ينفر من وجوده رغم تفضيله للعزلة، بل شعر بطمأنينة لمرآه، ولم يشعر بالغرابة من تواجده وإنما بالألفة..

شعر بثبات نفسـي عجيب، خصائصه الداخلية والمكونة لشخصيته متسـمة بالثبـات أساسـا، وقد كان ينتظـر إفاقة صديقه القديـم كي يعقد بينه وبين نفسـه مقارنة مع تلـك الخصائص النفسـية الداخلية الموزعة بينهما.. أيتشابهان بخاصية واحدة أم أكثر؟ أيكون مختلفا عنه من ناحية العزلة والانطوائية؟ يحبذ المخاطرة أكثر منه؟



أمضيا ليلة حافلة باستعادة الذكريات، ثم ظل ينصت باهتمام إلى حكاية (غطاس) مذ هرب من ذويه وحتى وصوله إلى هنا، فاعتبر نفسه متربعا على عرش النجاح عقب مخزون التجارب المريرة.. لِمَ لا؟ قد تمكن من السيطرة على شلته سيطرة تامة كما لو كان مدربا لقطيع من الذئاب، شلة منحرفة كما أقر، لكنه يستمتع بالسيطرة عليهم ودفعهم إلى العمل لصالحه، زاعما أن العمل لصالحهم أولا ولصالح الجميع تاليا..

أطلعه على أخطر أسراره، لِمَ لا؟ فلا إدانات قانونية هنا.. المخدرات والحشيش، يستمتع باستخدام تلك المخدرات التي يصنعونها، تسليته الأعظم، إلى جانب التحكم بالآخرين، هنا ينام ويفيق ويستحم ويتسكع مرتديا فقط سرواله الجلدي الأخضر، حتى إنه لا ينتعل حذاءً من أي نوع..

- «فرضت سيطرتي على الكل، حتى على (التطواني) كما لاحظت، بداية، نشب صراع إرادات لإثبات أينا الأقوى، لكنه استسلم في النهاية.. لو أردت لاستوليتُ وبكل سلاسة على شقته الفخمة!»

ابتدأ (غطاس) بالإفاقة أخيرًا، فحدق في (عماد) بعينيه المحمرتين وهو يمسح اللعاب عن شفتيه، ثم ابتلع ريقه متسائلا:

- «كم الساعة الآن؟»



- «الواحدة بعد منتصف الليل..»

- «لا زال الوقت باكرًا، ألدينا ما يؤكل؟"

- «تفقد المطبخ.. فقد جلبتُ بعض اللحم المجفف من (وديع) الجزار قاطن الشقة رقم (٣٦).. أتعبني من كثر إلحاحه لجلب سكاكين جديدة ذات أنصال ماضية له!»

تبسم برغمه، مهمهما وهو يهرش مؤخر عنقه:

- «استوعبتَ وظيفتك الجديدة بسرعة لا بأس بها، كيف وجدتَ سكان البناية؟»

- «غرباء لأبعد الحدود..»

- «وهو ما يجمعنا، أليس كذلك؟»

***

لم يحاول المختل المغادرة..

مارس حياة طبيعية كما لو كان معتادًا عليها منذ زمن بعيد، يتذكر شلته السابقة، لكنه يتذكرها كما لو كانت من ماضيه، يتصرف وكأنه ترعرع في هذه الشقة منذ زمن، لم تتبدل شخصيته كثيرًا نتيجة للأحداث التي مر بها، يأكل ويشرب ويدخن ويتعاطى وينام ويستيقظ بروتينية، دون رغبة في افتعال المشاكل..



في الأرفف معلبات بدائية بلا تواريخ، من رجل يقطن شقة رقم (٣٧)، يقوم بتعليبها بنفسه على حسب زعمه..

لا تلفاز لسوء الحظ..

لا تلفاز لحسن الحظ..

- «بإمكاني تدبر واحدٍ لك..»

- «لا مشكلة، لستُ بحاجته..»

ولا حتى مذياع، لكن المختل واصل مهمة إعداد جرعات الرحلات من مواد يجلبها كلما خرج.. لربما من شقته، لكنه لم يعد يبيت فيها كما هو ظاهر..

في مرة، رجع حاملا كيسا جديدًا امتلأ بالتفاح الطازج، سأله (عماد) عن مصدرها فأخبره.. البستاني قاطن الشقة رقم (١٢٠)، شجرة التفاح خاصته تكاد تخرق سقف الشقة!

سأله عن الكيفية التي تزرع بها الفواكه والخضروات بلا أشعة شمس، وعن مصادر الماء والكهرباء والهواتف والإنترنت الذي ذكر تواجده كذلك، فأجابه باسما وهو يقضم قضمة هائلة من تفاحة:

- «حقيقة لا أعلم، (التطواني) كان يتحذلق حين حاول إقناعك بإيجاد أجوبة لتساؤلاتك بنفسك، والسبب كونه لا يستطيع إيجادها هو نفسه! في الحقيقة أن الماء متواجد والكهرباء كذلك بغير انقطاع



أو فواتير متراكمة، ناهيك عن خطوط الهواتف والإنترنت، ببلاش!
كيف؟ لا نعلم!

أجهزة الحواسيب والتلفاز والهواتف والثلاجات والأفران نفسها لا نعلم من أين أتت، ما نعلمه أن كل شيء معد هنا للسكن والاستخدام البشري، وبكفاءة أفضل من تقنيات العالم الخارجي!"

- «ربما لأجل ذلك أرادني (التطواني) إيجاد أجوبة، لإشباع فضوله وهواجسه بشأن هذا المكان.. ماذا لو انقطعت الكهرباء؟»

- «نصيحتي ألا تكترث كثيرًا، خصوصا لسكير نصف أمي يتظاهر أنه أديب محنك، يغمس فرشاة في "الكونياك" الغالي مستخدما إياهما - الفرشاة والكونياك- في تنظيف حذائه، ويشرب العرق الرخيص، كما لا يحبذ سوى التهام الدجاج الميت!"

- «التهام ماذا؟»

- «شنيع أليس كذلك؟ ثلاجته عامرة بالدجاج الميت، لا يشتهيه سوى جيفة، أهذا شخص يفكر بعقلانية؟ أحيانا يبدو مذعنا، وأحيانا أخرى مندفعا عدوانيا، ولحسن الحظ أنه ليس من محبذي السيطرة الذين يقررون فرض تواجدهم بسبل استفزازية كالإقطاعيين.. لغته شديدة البذاءة أحيانا، وعينه على الفتيات دائما، لكن هذا كل شيء.."



- «على سيرة الفتيات.. أعتقد بأن الفتاة قاطنة الشقة رقم (٢٤) قد حاولت سحبي لغرفة نومها!"

أطلق (غطاس) ضحكة مجلجلة، قبيل تساؤله بشغف:

- «وماذا صنعت؟»

- «تنصلت بصعوبة بالغة، فشتمتني بجنون قائلة بأن أمثالي لا يميزون التبر من التراب.. الفتاة مخبولة! انهالت عليّ بداية بأغرب الأسئلة المتعلقة بالأمراض الجنسية، وبخصوص هذا الموضوع.. ماذا عن الأطباء؟"

- «ماذا عنهم؟»

- «ماذا لو احتجتُ لعملية قلع ضرس أو سحب عصب؟ ماذا لو احتجتُ أدوية للصداع أو الزكام؟ أو عملية استئصال طارئة لزائدتي الدودية؟

ماذا لو حملت امرأة هنا؟ من سيولدها؟ قابلة؟"

- «ماذا لو أصبتَ بمرض جنسي خطير؟»

- «هذا ليس مضحكا..»

- «هنالك طبيب أسنان لا بأس به في شقة رقم (٢٨)، وكذلك طبيب مختص بإجراء مثل تلكم الجراحات، وحتى توليد النسوة في



شـقة رقم (٢٧)، شـقة رقم (٤٠) تقطنها صيدلانية تجهـز الأدوية التي نحتاجها.."

- «لكل مشكلة هنا شقة!»

- «بالضبط!»

- «ماذا لو وقعت مشكلة شديدة الجدية؟ جريمة قتل أو سرقة مثلا؟ أهنالك شرطي متقاعد يقطن شقة رقم (٩١١) مثلا؟"

أجابه (غطاس) بحزم هذه المرة:

- «لا شـرطة، ليـس هنـا، ومن هـذه الناحية فلن تقـع جريمة قتل أو سرقة أبدًا.."

- «وما يدريك؟»

- «أعلم ذلك يقينا، ليس هنا.. أقصى ما يمكن حدوثه هو الانتحار، يفعلونها بطريقة سلسة وسريعة بلا دماء أو جثة حتى، إذ يلقون بأنفسهم من نوافذ شققهم التي لا أحد يعلم إلى أين تؤدي بالضبط!»

- «ولمـاذا تخاله انتحارًا؟ قـد لا يكون كذلك، قد يكون ثمة مخرج للعالم الخارجي.."

- «أتريـد العودة إلى هناك؟ عموما بإمكانك تجربة ذلك، من جهتي أنا على يقين من أن الوثب من النافذة يعني الموت.. أتود المراهنة على ذلك؟"



- «لا أظن..»

- «تلك النوافذ تستخدم هنا لغرض عملي بخلاف الانتحار، للتخلص من القمامة! كل ما عليك فعله هو رمي مخلفاتك من النافذة.. حلٌ مريح، وبلا روائح متصاعدة فلا تقلق!»

- «غريبة.. ولماذا إذن كانت الجدة (كاترينيت) تخرج كيس قمامتها من باب شقتها؟ ذكرت كذلك أنك اعتدت مساعدتها!"

ضحك وهو يرد بشيء من جذل:

- «للكل هنا دور ولو كان مسنا، هي تصنع شايا جيدًا لكن الكل بإمكانه فعل ذلك، وللتوصل إلى حل منصف أمرناها بإخراج قمامتها كي يتولى أحدنا عملية الخلاص منها عبر نافذة شقته، كانت تلك فكرتي التي راقت للتطواني ولها بشدة.."

- «لم أفهم الحكمة..»

- «الحكمة هي أن تشعر المرأة أنها مقبولة في مجتمعنا الجديد، فهي تؤدي دور الجارة المسنة التي تحتاج العون، ولكن مؤخرًا أعرض الجميع عن عونها، لربما بسبب التكاسل أو الضجر.. لا أعلم، فتناوبنا أنا وزوجها على عملية الخلاص من كيس قمامتها.. إلى أن ظهرت أنت!"

كان هذا غريبا، لكنه لم يجادل صديقه الغامض أكثر..



أحيانا يعرض عليه سيجارة من سجائره الممتلئة والمخططة بالأحمر:

- «نسميها ماجيك، وهي اسم على مسمى، تنقلك إلى عالم جديد لا يصدق..»

- «لا شكرًا، يكفيني هذا العالم الجديد الذي لم أصدقه بعد، ثم إن ماضيك معي أسود بما فيه الكفاية كي أتعظ!»

وقطعا رفض مشاركته رحلاته المهلوسة عبر الحقن، مكتفيا بحراسته إثر إلحاح شديد منه..

- «يسمونه (مراقب الرحلة)، أو (حارس الرحلة)، الأجانب الأوباش أبناء ال.. معذرة! يفكرون بكل شيء، ولديهم دائما حل لأي شيء!»

- «وهو كذلك.. سأحرسك لحين عودتك، ولكن لا تتأخر!»

لكنه كان يعود متأخرًا دائما، فلا يفيق من تصخره وجمود عينيه المحمرتين إلا في ساعة متأخرة من الليل، حيث يعلن عن مدى جوعه، ثم ينهض باحثا عما يؤكل..

- «أين كنتَ يا (غطاس)؟»

- «كنتُ في مجيدو.. رأيتك هناك تتسكع كديدنك.. بين الخرائب!»

- «يبدو كابوسا!»



- «بل كان أجمل حلم.. تبادلنا سيجارة، وصنعنا متاهة!"

في مرة، سأله (عماد) دونما اكتراث:

- «ماذا عن العبادة؟ لقد قابلت المدعو (جوزيف) في شقة (٦)..»

- «لا وجود لها، وإياك والاكتراث لذلك الأفاق المهووس بالأطفال، فلا أحد يتعبد عنده أساسا!

من أراد التعبد ففي شقته، سواء أكان يقينه من أن الإله واحد، أو إلهًا كنهه في ثلاثة أقانيم!"

- «ألا تصلي يا (غطاس)؟»

أطلق المختل قهقهة مواصلا لعق السيجارة التي يقوم بلفها، ومجيبا بازدراء "نيتشي":

- " أشعر بأنه يتحتم عليّ غسل يدي كلما صافحتُ إنسانا متدينا!"

***

أفاق (عماد) على صوت رنين الهاتف..

نهض وهو يشهق، وتأمل بدن (غطاس) المسجى فوق السجادة، يغط في نوم عميق وقد تعالى شخيره، كأن مصنعا للمعدات الثقيلة يدار في جيوبه الأنفية!

لم يُبدِ اكتراثا لذلك، صوت الهاتف ما أثار هواجسه، وحين عاود البزوغ، استرجع ما دار سابقا حين أنصت للصوت المنبعث منه، وما حدث حين طبق ما أمره به..



نهـض ببطء محـاذرًا إيقاظ (غطـاس)، يصعب إيقاظ الفتى أساسـا عقب كم الرحـلات الرهيبة التي يقوم بها عبر جرعاته المخبولة، فرنين الهاتف المرتفع لم يتمكن من إيقاظه أساسا..

بالطبـع لـم يكـن ذات الهاتف الزيتوني فـي المنـزل المهجور، كان أسـود عتيقا، ولم يتنبه (عماد) لوجوده إلا لـدى ارتفاع رنينه، إذ وضعه أحدهم خلف الأريكة شبه المستندة للجدار..

فكر بنزع السـلك، ثم تسـاءل عن كنه من سـيحادثه هذه المرة، أهو ذات الشـخص مـن المـرة الفائتة؟ أتراه عـاود الاتصال لغايـة في نفس يعقوب؟

انحنى ليلتقط السماعة، وعندما ألصقها بأذنه:

- «(٤٣).. تدعى (أيّار)!»

- "آلو؟"

- "(٤٣).. تدعى (أيّار)!"

- "من معي؟"

- "(٤٣).. تدعى (أيّار)!"

- "بحق الله من تكون؟"

لكن الوغد سارع بإقفال الخط!





الجزء العاشر

الوردة ذات الأشواك





الفصل الثاني والعشرون

بنبرة كالصقيع، وبأكبر قدر من اللامبالاة، همهمت (أيّار) عبر هاتفها محادثة الطرف الآخر بملل وهي تمرر شفرة الحلاقة طوليا على ساقها العارية المبتلة التي رفعتها عاليا:

- «الطريقة الوحيدة لإنهاء معاناة الدورة هي عن طريق استئصال الرحم!"

أنصتت بتأفف، ثم عاودت الهمهمة معاودة شحذ ساقها الممتلئة البضة للتيقن من خلوها تماما من أية شعرة:

- «بالطبع لن تحملي مجددًا يا غبية! إن استئصالكِ لمبيضيكِ مع الرحم ليس هبة رحيمة بالضبط، بل يعني رحيل الحمل مع الدورة! إذا كنتِ خائفة من الآلام فهنالك مسكنات لدرء ذلك.. آثار؟ أتعنين ندبة؟ إذا كانت العملية أسفل السُرة فحتما ستخلف ندبة.."



ثم أطلقت ضحكة استهزاء حادة، وهي تنصت رافعة ساقها الأخرى لتكرار عملية الحلاقة:

- «يا لكِ من بلهاء! لا تقلقي على رغبتكِ! سيكون جنسكِ أكثر سلاسة، ولربما شعرتِ بمتعة أكثر استرخاءً وراحة، عالمة ألا حمل هنالك بعد الآن!"

عاودت التأفف، ورمقت أطراف أصابع قدمها المحتفظة أظفارها المقلمة ببراعة ببقايا طلاء قرمزي، ومن ثم تنهدت بامتعاض:

- «بالطبع! والآن تنهال الأسئلة الملحة من حضرتكِ بكل لهفة وبكل توجس.. هل لذلك علاقة بالأمراض التي تنتقل من خلال ممارسة الجنس؟ وما هي طرق الوقاية منها بالنسبة لي وله؟ ما هي أنواع العلاج بالنسبة لحالتي؟ هل أستطيع علاج حالتي دون اللجوء للجراحة أو تعاطي عقاقير؟ وفي حال إجراء جراحة كم أستغرق من الوقت للإفاقة من العملية؟ وهل لها تأثير على نشاطي الجنسي؟ ماذا يحدث إذا قررت عدم الخضوع لإجراء جراحة أو استعمال أدوية لفترة من الزمن؟ ما هي الآثار الجانبية للعلاج أو الجراحة؟

قد نطقتُ بالعبارة السحرية: جنس! رباه! الجنس الرائع! الجنس المحرم! العيب المثير! الحلال التقليدي! الحرام المرغوب!"



بـدا وكأنها قد ضجرت تماما من المكالمة المبتذلة، فأنهتها بقبلات هوائيـة مصطنعة مـع وعدٍ قد لا يتحقق بلقاء قريـب، فالمكالمة آتية من طرف فتاة عاهرة خرقاء تقطن الشقة رقم (٢٤)..

التقطـت الحاويـة البلاسـتيكية الشـفافة بجوارها، وفتحتهـا متأملة بشـغف الكائنـات السـوداء اللزجة والراتعـة داخلها، فالتقطـت واحدًا ووضعته على سُرتها، ثم واصلت مهمة توزيع تلك المخلوقات البشعة النهمة للدم في عدة أجزاء من بدنها، وهي تهمس بشفاه مرتعشة:

- «هلمي أيتهـا العَلَقَات الفاتنة.. امتصي الدم الفاسـد، صفي بدني من كل عفونة.. من قمة الرأس وحتى أخمص القدم!"

ثـم وضعـت مؤشـر الصـوت فـي جوالها لأقصـى درجة، ودسـت السـماعات فـي أذنيها كـي تصغي لأغنيتهـا المفضلة «سـوليتير» لفرقة «النجـارون» المنسـية، أثنـاء التمـدد في الميـاه الدافئة المفعمـة برغوة الصابون اللزجة، تاركة للعلقات السود مهمة تصفية دمها من العفن:

كان هناك رجل

رجل وحيد

فقد حبه

من خلال لا مبالاته..

القلب الذي اكترث

الذي رحل بغير مشاطرة



حتى موته

ومن خلال صمته..

و"السوليتير" هي اللعبة الوحيدة في البلدة

وكل سبيل اتخذه

اتخذه للأسفل

وبمفرده من السهل الادعاء

بأنه لن يحب مرة أخرى..

ويسري لنفسه

بلعب اللعبة

بدون حبها

ذلك ينتهي دائما على ذات المنوال

بينما الحياة تستمر من حوله بكل مكان

هو يلعب «السوليتير»..

أمل ضئيل

رحل مع الدخان

فقط كيف يقتل

يرحل من دون كلام..



كان هناك رجل

رجل وحيد

بإمكانه أن يأمر

اليد التي يلعب بها..

❋❋❋

في اليابان: زوجكِ هو رقيبكِ ورئيسكِ، فتواضعي له، واعلمي أن طاعة المرأة لزوجها أسمى حلية تتحلى بها.. انبذي الغيرة لأنها تجعل زوجكِ يكرهك..

في غانا: ترفض النساء الحوامل أكل الثعابين وجبتهن المفضلة كونها مصدرهن الرئيسي للبروتين، وذلك خوفا من أن يلدن أطفالا بلهاء!

في ألمانيا القديمة: المرأة التي تقتل أحد أطفالها ولو عن طريق الخطأ تدفن حية، فتوضع في حفرة واسعة داخلها كلب مسعور أو أفعى سامة، حيث تبدأ المعركة وجميع من يراقب في هرج ومرج وتهليل، وسرعان ما تفقد المرأة وعيها، فيردم التراب عليها.. مع ذلك الكلب أو تلك الأفعى!



لم تكن الخالة العانس تكاد تتوقف عن العظات المحلية والعالمية عن مدى قدسية الزوج والأطفال، كيفية طاعته وتدليله وكيفية التربية السليمة لأطفاله وما إلى ذلك، كأنما تسترجع دروسا للذاكرة استعدادًا لأهم امتحان في حياتها..

تتبنى مبدأ «الزواج غير مرتبط برضا الوالدين دائما، فهو سنة الحياة المؤكدة»، وعلى أساس ذلك المبدأ فالزواج والإنجاب هما هدف المرأة الأوحد، الدراسة والعمل عبارة عن سخافات لإبطاء ما هو حتمي..

تحضر جميع حفلات الزفاف بأنواعها وأشكالها، تقبل كل الدعوات بلا استثناء، وتحرص على الحضور باكرًا بفساتين مبرزة للمفاتن موصى عليها ومن تصميم (طوني ورد)، ومتضمخة غالبا بعطر "فيرا وانغ فلاور برنسيس" يحمل عبق تويجات زهرة البرتقال الرطبة، والياسمين الاستوائي، والورد المغربي، وترفض بتاتا المغادرة قبيل زفة العروس..

تبدأ لعبة من أسسها الهمز واللمز، بخصوص المكان ونوعية الطعام وفساتين المدعوات و.. و.. فما إن تظهر العروس، حتى تطلق الخالة وابلا من رصاص عديم الرأفة.. على قدها، وماكياجها، وفستانها المبتذل، وبسمتها البلهاء.. الخ

- "تبدو مصابة بفقر الدم!"

أو..

- «تبدو كفرس النهر!"

أو..

- «تبدو ذكرًا على هيئة أنثوية!"

أو..

- «تبدو كمهرج مع كل تلك المساحيق والحمرة..»

أو..

- «تبدو بلهاء عديمة الخبرة وستتعبه..»

أما العريس فهو في خانة مدعاة للثقة بالنسبة لها طيلة الوقت، مهما كان شكله وحجمه..

وتبدأ - في حركة تدربت عليها مطولا أمام المرآة- برفع ساعدها حيث تبرق عند الرسغ ساعة ذهبية من طراز «آيغنر»، مداعبة ببنصرها المزين بخاتم من محال "تاناغرا" العالمية عِقدًا تزينه ألماسة مثبتة في وسطه بثلاثة نتوءات مستدقة الطرف يتألق في جيدها، ما إن يبدأ الثناء حوله حتى تؤكد - بتواضع- أنه صنع في إيطاليا خصيصا لها!

ثم تتظاهر بإبعاد خصلة من شعرها، كاشفة عن قرط ماسي كذلك يتدلى من شحمة أذنها الوردية، بريقه يخطف الأبصار..

* * *





في دارها تستضيف جلسة حوارية ذات طابع شبه متعصب، وأساس تلك الجلسات دوما «مخربات المنازل» أو «خرابات البيوت»، وهي جلسات تستمتع خلالها بتقديم أجود أنواع الشاي والقهوة والبسكويت والكعك، تؤمن تماما بنظريات مطالعة فناجين القهوة ونبؤاتها التي لا تخيب، وتشارك وبقوة في حديث الأخريات عن تلك الزوجة الصغيرة الجديدة لشخص متزوج وعنده أولاد بشوارب، فتاة كتلك مُدانة لا ريب، إذ خطفت الرجل - كأن الرجل ليس سوى كتكوت يُخطف- من أسرته السعيدة، مُحولة إياه إلى خاتم يلتمع في بنصرها، أو لخادم يحقق لها رغباتها طيلة الوقت..

تولي كذلك مسألة الأبراج اهتماما زائدًا، النجوم أخبرتها أن عليها اختيار عريس إما من برج الحوت أو من برج الأسد، فالأول سيكون شخصا عمليا وناجحا في المسائل المالية، وعادة يبحث عن شريكة ملائمة لحياته كي يستمتع معها ببناء أسرة سعيدة ومستقرة، أما الآخر فقادر على تحقيق المكاسب والأرباح وتحرير نفسه من شتى المآزق المالية، لكنه يتروى في مشاعره وأحاسيسه العاطفية قبيل إقدامه على الارتباط الجاد، وذلك لصنع عائلة متماسكة!

المصطلح الوحيد الذي ترفض تداوله بتاتا لدرجة الشجار الوحشي هو "عانس"، فسماعها لتلك التسمية مثل سماع شخص أفريقي



أمريكي لتسمية "زنجي"، وهو ما جعلها مادة سرية للتفكه الذي تم تداوله بسرعة البرق ما بين رفيقاتها المتزوجات..

***

زوج المستقبل..

خالتها انتظرت ذاك الزوج لسنين لا تحصى، لم يمر يوم من دون تعداد مواصفاته، وكيف سيكون العرس المنتظر..

واظبت الخالة - للمحافظة على رشاقتها ونصوع بشرتها- على تناول إفطار صحي يناسب متتبع حمية، وحرصت دوما أن يكون ماكياجها من النوع الممتاز غير المضر بالبشرة ويظل مقاوما للعرق، مستخدمة أحدث صيحات المستحضرات لإزالة الكلف والنمش..

كانت تقول لابنة شقيقتها دائما بأن المظهر يتحكم به الهيكل العظمي للجسم بمقدار ما يكسوه من شحم ولحم، لا يمكن صنع شيء للهيكل العظمي باستثناء تناول الحليب، ولكن يمكن فعل شيء للشحم والعضلات، الشحم يلين التضاريس العظمية، واللحم غير المترهل يجمل الطبقات الخارجية..

ابتاعت فستان زفاف بمبلغ يصلح لابتياع سيارة جديدة وفارهة، ابتاعت في الواقع عدة فساتين حين كانت تتأكد من انتهاء موضة الفستان القديم، وظلت ترسم المخطط تلو المخطط عن التحضيرات الأسطورية التي ستقوم بها، لدرجة الاهتمام حتى بالصغار الذين



يتوجب عليهم – لدى بدء الزفة– اصطحاب العروسين للسيارة الفارهة الفضيـة، وهم يرتدون أزياء بيضاء ووردية كالملائكة – أو كما صوَّرَت لها مخيلتهـا–، وقد خططت فعلا لجعلهم يرتـدون أجنحة اصطناعية! حاملين معهم مشاعل ضئيلة من أغصان شجر البتولة..

احتفظت بعطر غال شـديد الندرة، مقررة استعماله فقط يوم زفافها، عطر نادر موصى عليه، تمت صناعته من براز حيتان العنبر!

تقـوم أحيانـا بسـرد لائحـة الطعـام المتوجـب تقديمهـا للمدعوين بصوت مسـموع وعـن ظهر قلب، كما لو كانت قصيـدة تحاول حفظها استعدادًا لامتحان مدرسي، مؤكدة بدقة عجيبة أنها لن تخرج عن أطباق القريـدس المغلية مـع الخضار المكسـيكي، والدجـاج المطبوخ على الطريقـة المغوليـة، أو على الطريقة الاندونيسـية مـع صلصة الحامض بالكزبرة، تقدم للمدعوين فقط دون العروسين، فمن غير المستحب أن تعلق الكزبرة بين أسنان العروس بالذات!

ثم تناقش باسـتفاضة مسـألة الحلويات التي يتوجب تقديمها عقب وجبـة الطعام، وخصوصا كعكة الزفـاف التي يجب أن تكون مؤلفة من سبعة طوابق على الأقل..



الفصل الثالث والعشرون

لم يعد أنف (أيّار) أنفها..

تغيـر كما تغيرت أشـياء كثيرة لطالما كانت تؤمـن بها، ولربما كانت عمليـة التجميـل التي قامت بهـا لأنفها هـي بداية تغيرهـا، فعقب تلك العملية بدأت تنحدر للأسوأ..

امتلكت منذ طفولتها أنفا لطالما شوه ملامحها المليحة، فهي ناصعة البياض كشـبح، نقية البشرة لها ملمس الأطفال الرضع، شعرها الفاحم الطويل بإمكانها التحكم بدرجة نعومته أو تجعده بسهولة تامة..

وحين تتأمل انعكاسـها علـى المرآة، كانت تدقـق بإعجاب في لون مقلتيهـا الـذي كان مزيجـا غريبـا ومثيـرًا من العسـلي والعشـبي، قبيل معاودتها التحديق في حجم أنفها الذي لا يلائم مظهرها بتاتا من وجهة نظر الكل..



تذكـرت يوم اصطحبتهـا خالتها لعيـادة التجميل حاملة بيـن ثناياها المختلة قرار التلاعب بتشكيل أنفها، واصفة إياه بالمشوه..

- «لمصلحتك سنغير من تشكيل أنفكِ القبيح، وإلا لن تتمكني يوما من الزواج!"

صحيـح أن أنفهـا الجديـد أجمـل، لكنها مقتته كما مقتـت خالتها التـي تلاعبت به رغما عنها.. مقتـت خالتها التي ظلت عذراء، وتعلقت بصديقتها (عِشقة) التي فقدت عذريتها منذ الصغر..

و(عِشقة) ليست مجرد صديقة، بل هي من بَدَّلَ كذلك تركيبة (أيّار) النفسية ومعتقداتها برمتها..

هي فتاة ممتلئة، تشـم بدنها المكتنز بأوشـمة زخرفية كحلية مبهمة، وتعلـق الأقـراط الفضيـة فـي أنفهـا وأذنيهـا ولسـانها وسـرتها وبعض الأجزاء الأنثوية الحساسـة للغاية من جسـدها.. ذات شعر قصير أسود تتدلـى مـن مقدمته خصلة اصطناعيـة خضراء، طلاء شـفتيها وأظفارها داكن، ومعتقداتها غير آمنة..

تربي أرنبا كحيـوان أليف، تضعه في قفص، وترفض وصفه بالكائن اللطيـف، وتحـذر صديقتهـا بجدية مـن اعتبـاره كائنا لطيفـا مؤكدة أن بإمكانه التهام اللحم كذلك عوضا عن الجزر، وأحيانا تشـبهه بالشيطان المتنكر بصورة بريئة، وبأنها لو أرادت أن تتزوج يوما فعليها ألا تلاعب أو تلاطف الأرنب.. ما علاقة هذا بذاك؟ الله و(عِشقة) يعلمان!

تدخن بشراهة، وحين حذرتها (أيّار) من مغبة الإصابة بالسرطان، اكتفت وبكل برودة بالتلويح بعلبة من كبسولات «سيليولار» للتعافي، التي تخلص الجسم من سموم "ديتوكس"..

ردت (عِشقة) لما سألتها (أيّار) عن اسمها الجذاب والغريب:

- «إذا أراد المرء أن يعلم إلى أي قديس ينبغي له أن يلتجئ، ألقى في ماء أحد الينابيع وريقات عِشقة لبلاب كتب عليها أسماء القديسين، ثم يرفع أولى الوريقات التي يغمرها الماء، ويقرأ فيها اسم القديس الذي يعود المرضى إليه، وما عليه بعد ذلك إلا الابتهال إليه كما يجب لينال الشفاء.."

لم يكن حوارهما الأول، فعندما ولجت (أيّار) تلك الشقة التي تحمل الرقم (٤٣) محملة بحقائبها، بوغتت بتلك الفتاة الممتلئة ذات الطابع القوطي، وقد رقدت على فراش عارية، إلا من ثوب داخلي أسود دُوِّن عليه بخط زخرفي أبيض:

Do What thou Wilt

كانت تطالع كتابا سميكا، وقد فردت يدها الممسكة بسيجارة ممتلئة ذات خطوط حمر، أما عبارتها الأولى فكانت:

- «ماذا تصنعين يا سمسمة؟»

ردّت عليها (أيّار) متحدية وقد استفزها لقب التدليل الطفولي:



- «ماذا تصنعين أنتِ؟»

- «أقطن هنا كما يبدو..»

- «لم يذكر (التطواني) شيئا عن هذا..»

- «ابن الكلب! لا شك بأنه منقلب الآن على ظهره من شدة الضحك في مكتبه الفخم الذي لا يستاهله!"

- «إذن، ماذا سنفعل؟ أأعود إليه أم ماذا؟"

هنا، رفعت (عِشـقة) بعفوية غلاف الكتاب لتريها بأنها كانت تطالع - كأنهـا لـم تر ذلك-، لكنها تأملت الغلاف الأسـود السـميك الذي ارتسمت عليه نجمة خماسية مقلوبة..

- «(الفنون السوداء)، هدية من صديق ليبي مندائي.."

- «مند.. ماذا؟"

- «مندائي.. أي من الصابئة.. كنتُ أعيش معه في سـبخة السلماني في بنغازي.. إد كلا نهورا، إد كلا تقنا، إد كلا هيا، إد كلا كشـطا، إد كلا رهمتا، إد كلا هيلسا وتيابا، وكلا اينا وهزوا!»

- «ماذا يعني هذا؟»

- «شيء اعتاد ترديده لي.. كان يعشقني، هذا الكتاب جلبه من لندن - حيـث اغترب- بشـق الأنفـس، وأهداه إليّ بمناسـبة عيـد ميلادي.. أرجح بأنكِ لم تسمعي به!"



- «لدي شيء من حب الاطلاع على الثقافات الأخرى وتعرفها..»
- «أفضل من لا شيء.. أنا (عِشقة)..»
- «(أيّار)..»
- «(أيّار)؟ في أيّار احمل منجلك وغار! في أيّار الغمر طيار!

تشرفنا يا سمسمة!»

❋❋❋

لدى (عِشقة) جهاز من طراز «الحاسوب الهاتف»، من تلك الأجهزة صغيرة الحجم المستخدمة لنظام التشغيل "فيزتا"، تستخدمه للاتصال المباشر بالآخرين عبر باقي الشقق، ولا تكاد تكف عن الدردشة معهم واستخدامه لتفقد بريدها الالكتروني، إلى جانب النبش في صفحات الإنترنت التي تروقها..

تعاني (عِشقة) من اكتئاب لم ينجح في دحره جميع أطباء العالم الخارجي، الذين زارتهم بمشورة وبغير مشورة..

نصحوها بالإجماع على ضرورة إيجاد وظيفة لإشغال وقتها، فاختارت واحدة عن طريق مراسلة إدارة معرض "غراند باليه" في باريس، لحاجتهم الماسة إلى مرشدات لشرح حضارة "الفايكِنغ" عقب دورة تبدت صعبة، إذ تتطلب مطالعة كتاب يحوي ٤٣٠ صفحة عن المحاربين والبحارة في البلاد الاسكندنافية، كما يتضمن الكتاب



شرحا مفصلا لكل قطعة من القطع المعروضة، من أدوات وأسلحة وتماثيل ونماذج لمختلف أنواع السفن التي استخدمها قوم "الفايكِنغ" في التجارة والحروب..

وحين راسلتهم بصورتها، بزغ الرفض الفوري حاملا ملاحظة أشعرتها ببرودة مؤلمة في عروقها: "مظهر غير لائق"!

خمنت أن ما لديها اكتئاب تقليدي يعاني منه الملايين مع تسارع نمط الحياة والضغوطات اليومية، فيصير البحث عن حل لتلك المعضلة أشبه بإيجاد الحل الجذري الأسطوري الذي قلما يتواجد، وسبب التشبث بوجوده هو العقاقير والأدوية..

زاد وزنها بسبب نهمها الشديد لوجبات الطعام المتباينة، فهي تأكل أي شيء، كما زاد استهلاكها - إثر نهمها للطعام- لسجائر "ماجيك" التي تقايضها مع شلة (غطاس) بالمشروبات الكحولية التي تجلبها من مخزون (التطواني)، وأحيانا بالسلعة الوحيدة التي تمتلكها..

رياضتها كانت إما المشي في الممر لزيارة شلة (غطاس) أو (التطواني)، أو الرقص في الحفلات الساهرة.. كانت تعتبر الجنس رياضة كذلك، لكنها لا تمارسه طبيعيا إلا للمقايضات المجازفة، وكثيرًا ما تمارسه الكترونيا بغرض المقايضة الآمنة..



برامج "الشات" هي نوع آخر من الإدمان لديها، أحيانا تجالس حاسوبها الهاتفي ثلاثة أرباع اليوم لمحادثة أصحاب الشقق الأخرى، لدرجة تشنج العين وإصابتها بإجهاد الجسم الهدبي، وهي منطقة دائرية عضلية كالحلقة تتمدد أو تنكمش لتغير من هيئة العين، و(عِشقة) تبقي ناظريها في ذات الوضعية ولفترة طويلة على شاشة الحاسوب المحمول، في العتمة الدامسة..

لا أصدقاء لها ولا شركاء دائمين معها بسبب سلوكها المتعكر ومزاجها الحاد وعدوانيتها الزائدة، اشتهرت كذلك بميلها المرضي لبنات جنسها.. تغير ذلك كله - اللهم سوى النقطة الأخيرة- لدى ظهور (أيّار) في حياتها..

أفكارها تتعلق بصفقات بيع الروح للشيطان وسبل تحقيق ذلك، وهي مولعة بالسحر الأسود، وتعلق على رسغها الأيسر قطعة قماش حمراء تنتمي لمعتنقي «الكابالا» أو القبالة، وتنصت طيلة الوقت لأغان زاعقة ذات فوضى ضوضائية منفرة، لمطربين شيطانيين أمثال (أوزي أوزبورن) و(مارلين مانسون) وفرقة "بلاك ساباث"، وأحيانا تزيد من حِدة الصخب وتمازج الإيقاعات المنفرة عن طريق مزج وخلط التسجيلات الموسيقية، وترتيب بثها بعدة أشكال باستخدام تقنيات "البلوتوث"..



هـي مُعاقـرة كذلـك لبيـرة "روغينكـورن" الألمانيـة التـي يتدبرها (التطوانـي) - كمـا يزعم- لها حين تزوره في شـقته التـي تروقها، مما تسبب لها بقصور كلوي مؤقت عولجت منه، كما إنها عانت مطولاً من الإدمـان علـى قلويدات الأفيـون أو المورفين، وهو مخدر مسـتخلص على شـكل أملاح عديمة اللون بيضاء متبلـورة، تذاب وتعبأ في الحقن التي تعدها شلة (غطاس)..



الفصل الرابع والعشرون

بفتحتي أنفها الجديد والمتناسق، تناولت (أيّار) رشفة من عطر Poesie de Chine الصيني الذي تعشقه، له رائحة خاصة عبارة عن عبق لنبتة "شينوتو" الصينية ونضاحة ثمرة اليوسفي، مع ممازجة طفيفة من الزنجبيل والباتشول، ولمسات من المسك والونيليه والمر، تسميته نسبة لمجموعة من قصائد "كتاب الأغاني" الشعرية في الأدب الصيني..

لم تكن تتعطر سوى للخروج مع (عِشقة)، ومشاوير الأخيرة لا تقع بعيدًا عن حفلات الرقص والشرب في الشقق المعهودة، حيث السهر لمطلع الفجر إن وُجدَ أساسًا..



المشـكلة أن (عِشقة) لم تعد متحمسـة للخروج في الآونة الأخيرة، وقد باتت منكفئة على الحاسوب المحمول ثلاثة أرباع الوقت، تتكتك أزراره بلا هوادة كأنما تحادث عشرات الأشخاص بآن واحد..

أما المشـكلة الأخـرى، فهي أن (أيّـار) قد وجدت فـارس أحلامها أخيـرًا في أحـد تلك الحفلات، وهـي التي تعهدت لنفسـها ألا تقع في الحـب نهائيـا وألا ترتبـط بأحدهم كون ذلك من سـابع المسـتحيلات بالنسبة إليها..

لكنـه جذبها بحق، كان آسـرًا بنظراته المهمومـة وانعزاله عن البقية، بدايـة سـخرت من ذلك واعتبرتـه تمثيلا، فما دام يمقت هـذا الجو فلِمَ حضر بالأساس؟ بإمكانه المغادرة وقتما يشاء..

لكنها شـعرت بالذنب حين أبصرت شـابا يقتـرب منه وهو يضحك بمرح مناولا إياه زجاجة جعة باردة، فبدا وكأن فتاها قد اغتصب بسـمة مجاملة مقارعا زجاجته بزجاجة صاحبه، فأدركت أنه هنا لأجله، وعلى الأرجح كمجاملة له..

- «أرغب في لعق أصابع قدميكِ!»

تلفتـت غير مسـتوعبة، لتجد سـحنة (صفصاف) مواجهة لسـحنتها مباشرة.. في عينيه المحملقتين نظرة مثالية لمنحرف!



كانت تعلم من يكون، الكل يعلم من يكون، ببقعه البنية القبيحة غير المنتظمة على رقبته وكتفه، وقميصه النتن بفسـائله القرمزية أو البيضاء، الذي لا يكاد يغيره رغم العرق البارزة على الدوام أسفل إبطيه..

هو من شلة (غطاس)، وهي شلة لها ثقلها كونهم يوردون الحشيش والمخـدرات لكل مـن بحاجتها، لكنها ليسـت منهم حتمـا، فهي تكره التعاطي، كما تكره الوقاحة..

صفعته، فاسـتيقظ من حملقته وثمالته وقد كـف بدنه عن التأرجح، قبض على شـعرها وقد احمرت سحنته – مع عينيه– من شدة الغضب، فتوقفت الحفلة بأسرها..

– «يا بنت الكلب! من تحسبين نفسكِ؟»

– «دعني!»

– «أنتِ مجرد دمية للتسلية لا أكثر!“

– «دعها..»

التفت للوراء وقد زاد وزن حنقه أضعافا مضاعفة..

– «اغرب وإلا.. أنا عظمي مر!»

– «عظمك؟ وأين طار اللحم؟»

– «أتهزأ يا ابن الكلب؟»



ولم يهدأ (صفصاف) إلا لدى استقبال أنفه لكمة محكمة، طرحته أرضا على الفور بلا حراك..

بدا التوتر على الوجوه، فالتعدي على واحد من أفراد شلة (غطاس) يماثل التعدي على المختل نفسه، فتراجع الجميع بصمت..

أما فتاها الذي كسب انتباهها قبلا بـردة فعله الأولية مع صديقه عبر التظاهـر بالمرح، وتاليا عبر لكمته الماحقة التي أنقذتها، فقد نالها حتما حين مدّ يده لها متسائلا:

- «أأنتِ بخير؟»

❊ ❊ ❊

حين استخدمت أساليبها الأنثوية في تجهيز التعارف المناسب بينهما - من ضمنها اختبار الرقص عقب التخاطب الشفهي-، شعرت أنها واقعة في حبه، انحلت عقدة لسانه شيئا فشيئا ولكن دونما ثرثرة، تحدث عن الفئات المسيحية الشامية، ثم انتقل بدفة الحديث لفئة الأرثوذكس.. لم ترتح لحديثه المبهم، فقررت تغيير الدفة قليلا..

- «ألا تخشى عاقبة المختل؟"

- «المخبول الأصلع صاحب الأوشام وساعة الإكليل؟"

- «هو بعينه..»

- "ها أنا آتي سريعًا.. تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك!»



- "أتخطط للاستيلاء على ساعة الإكليل خاصته؟"

- "لربما.. فنحن نحرص - كل الحرص- على الإكليل المُعد لكل واحدٍ منا.. في الأبدية!»

لم تفهم جل حديثه، إذ تبدى كترنيمة دينية.. أهو مسيحي؟ أهارب هو من الاضطهاد؟ من الفتن الطائفية المؤرقة؟

لم يكشف لها جانبا من حكاياته الشخصية، اللهم سوى اسمه ومهنته، شدهت حين علمت أنه الطبيب هنا، وأسعدها تواضعه الشديد بخصوص تلك الميزة الثمينة، كان يتحدث بأريحية حين يكون حديثه بصورة عامة، لكنها أيقنت بغريزتها الأنثوية الحساسة أنه متشنج حين تتطرق للحديث عن ماضيه الذي لا يبدو مشرقا، كان يتحدث بهدوء ومرارة، ثم يصمت ليشرد ذهنه مدة طويلة، لكنها تمكنت من تلطيف مزاجه أخيرًا بدعوة مغرية إلى حلبة الرقص..

****

أسرت (أيّار) بقلقها، فأشعلت (عِشقة) سيجارة ماجيك أخرى، وهي تهمس معاودة مهمة تزيين أظفار قدمها الضخمة بطلاء داكن:

- «لستِ الوحيدة، فالكل قلق من أن تضيع عليه فرصة سلبك لسلعتكِ الثمينة.. تلك التي توارينها بحذاقة ما بين فخذيكِ الجميلتين؟"

- «كفى يا (عِشقة)!»



- «انتابكِ الخوف؟»

- «بل الملل، نحن بأمان هنا، لن يغتصبني أحد بحق شياطينك!"

- «حقـا؟ ظلمنا الأبلـه (صفصاف) إذن، لا بد وأنـه أراد مراقصتكِ فحسب!"

- «دعكِ من ذلك المغفل.. دعينا نخرج ونروِّح عن أنفسنا قليلا.."

- «No Boys. No Booze!"

- "انظروا من التي تتكلم!"

- "متلهفة لرؤية فارس الأحلام؟"

- "ربما لا يأتي.."

- "أترغبين بالمراهنة؟ أوقعته في حبائلكِ حتما يا شقية!"

- "إذن دعينا نذهب كي نتأكد.."

- "بل دعينا نسهر الليلة على شيء أكثر إثارة.."

- "(عِشقة)، إذا كان فيلما مبتذلا آخر من أفلامكِ الإباحية المصورة يدويا، فأقسم بأنني.."

- «لا، لا شيء من هذا القبيل.."

وغمزت بعينها اليسرى، هامسة بنبرة كفحيح الأفعى:

- «الليلة، سنقيم جلسة لتحضير روح!"



- «عن أي روح تتحدثين بحق جهنم؟"

- «لـكِ أن تختـاري، العديـد من الجرائـم راح ضحيتها أشـخاص كثـر، من هـذه الجرائم ما تـم التكتم عليهـا ومنها ما أصبـح قضية رأي عـام، جرائم قتـل بالطعـن أو بإطلاق النـار أو بالضرب، منهـا لقريب، ومنهـا لزميل عمـل، ومنها لشـخص داخل العائلة.. تعددت الأسـباب والأجناس والأعمار والنهاية واحدة!»

- «ولكن كيف نختار؟"

- «بسـيطة، لدينـا مثلا.. عشـرينية قتلت على يد شـاب أراد الزواج منها..»

- «تقليدي، غيره؟"

- «عشريني – كذلك– قتله زميله في العمل بسبب الغيرة..»

- «أكثر تقليدية، غيره؟"

- «أم قتلـت ثلاثـة مـن أطفالهـا فـي طبربـور، دون معرفـة الدوافع الحقيقية..»

- «ليس إلى تلك الدرجة من الشناعة!»

- «شـاب توفي في عمله دهسا بسـيارة زميله، رياضي رفسه حصان كالحمار، خمسيني قتل في أعمال شغب في سَحاب، فتى توفي ووالدته في البحر الميت، فتاة مسـيحية قتلت فـي عجلون على يد والدها عقب



إشهارها إسلامها.. لدينا شاب قتل ابن عمه ووضعه في بيت الدرج في ضاحية الرشيد، ماذا عن مقتل إعلامي على يد مجموعة من الأشخاص اقتحموا بيته؟ أو ذلك الضابط الدركي أثناء عمله؟

- «هل من مزيد؟"

- «بالطبع! شخص قتل طليقته في جبل التاج والأسباب مجهولة.. فتاة في جبل الجوفة تعاني من مرض نفسي قامت بقتل شقيقتها، والد يضرب طفله الرضيع بحافة الطريق ويقتله بسبب شجاره مع زوجته، شخص يقتل خطيبته في البلقاء لشكه بسلوكها ومن ثم يسلم نفسه للشرطة، ناهيكِ عن مقتل العديد من الأشخاص في مختلف مناطق المملكة بسبب مشاجرات عائلية وعشائرية..»

- «ما أكثرها! يصعب انتقاء واحدة..»

- «بل يسهل فعل ذلك، قلوب البشر ليست بيضاء، قلوب البشر دموية من الخارج وسوداء من الداخل!"

لم تقتنع (أيّار) تماما بما انتوته رفيقتها، لكنها قررت مسايرتها علها تغير رأيها عقب فشل الترهات التي ترغب بتنفيذها..

أثناء ذلك الموال، تصاعد صوت جرس الباب الشبيه بأزيز ضار لدائرة كهربائية قبيل احتراقها..

- «أوف! افتحي الباب..»



- «افتحيه أنتِ، لربما كانت الأرواح!“

تحركت (عِشقة) بضجر صوب الباب بخطوات متثاقلة، وأناملها لا تـكاد تتوقف عن دعك مقلتيها الملتهبتين، مقررة طرد الزائر بأقســى ما لديها..

كان البـاب مواربا، ففتحته (عِشـقة) وكأنها تنتزعه من محله انتزاعا، متسائلة بأقسى نبرة ممكنة وهي تسدد ببصرها نحو الزائر دونما اكتراث:

- «نعم؟»



الفصل الخامس والعشرون

- «٣٩. ٤٠. ٤١. ٤٢..»

وتوقف (عماد)..

الشقة رقم (٤٣).. هذه هي أخيرًا!

ضغط زر جرس الباب، ثم طفق ينتظر..

هنا، انفتح باب الشقة لتظهر على عتبته فتاة على شيء من الاكتناز، مظهرها عجيب بأوشمتها الكحلية التي ذكرته بأوشمة (غطاس)، والأقراط الفضية في أنفها وأذنيها وسُرتها الظاهرة، وشعرها الأسود القصير الذي تتدلى من مقدمته خصلة اصطناعية خضراء، وبطلاء شفتيها وأظفارها الداكن..



لاحت لناظريه كمصاصة دماء مبتذلة في فيلم رعب سطحي، خصوصا بمقلتيها المحمرتين بضراوة، أضحيتا علامة فارقة بين سكان الشقق كالوباء القوطي، وعموما..

- «نعم؟»

تساءل بذهن مشوش نوعا:

- «(أيّار)؟»

- «ومن تكون حضرتك؟»

- «أرجو العفو.. أنا موظف الإحصاء هنا.. وأود بأن..»

قاطعته متنهدة:

- «وأخيرًا تصرف (التطواني) ابن الكلب! أنصت.. أقطن وصديقتي هذه الشقة، ونحن بحاجة لبعض التدابير..»

- «أبإمكانكِ دعوتي للدخول؟»

- «لماذا؟»

- «حسنٌ.. بداية يجب التيقن من تواجد صديقتكِ كذلك..»

- «لكنك تعرف اسمها! أنت ذكرته.. (أيّار)؟»

- «عليّ التيقن من تواجدها، ومن ثم سأنصت بآذان صاغية لكل مطالبك..»



تأملت أذنيه قبيل دمدمتها باستهزاء:

- «بكل تأكيد ستنصت.. مع هاتين الأذنين ستنصت لكل شيء، ولو كان مجرد همسات عابرة!»

لم يكترث لسخريتها الجارحة، بل ظل واقفا ينتظر بتأدب إلى أن أشارت للداخل قائلة بملل:

- «تفضل بالدخول، ولكن لا تطل البقاء.. أترغب بشرب شيء؟»

- «كوب ماء..»

- «سأجلبه لك..»

لم يشكرها.. توارت في المطبخ، ودخل هو رامقا أرجاء الشقة النظيفة وأثاثها القليل المزين والمطرز بعناية، توقف أمام لوحة مرسومة لفتاة بارعة الجمال جالسة فوق العشب الأخضر مرتدية تنورة زرقاء، ومريحة على ركبتيها رأس جواد أبيض خلاب، يخرج من منتصف جبهته قرن لولبي طويل..

- «ما رأيك بها؟»

كانت عقيرة مغايرة للصوت الأجش الذي استقبله، وحين التفت، وقع بصره على فتاة وجدها حقا جذابة.. جذابة جاذبية الجاذبية الأرضية! أو كما اعتاد أن يُعبر في الصغر حين يبصر ما يجذبه، وقد استخرجت الجذابة شيئا من جيدها وشرعت تتلاعب به..



قال مشيرًا للوحة:

- «جميلة.. ما تكون بالضبط؟»

- *" يونيكورن! يستخدم بوفرة في فن العمارة الكنائسـي، كالتماثيل والرسـومات على الأسقف والجـدران وحتى زجاج النوافـذ الملونه، فاليونيكـورن -أو أحـادي القـرن- يرمز للعفـة وهزيمة الشـيطان، لذا يرسمونه أحيانا كثيرة ومعه فتاة ترمز للعذرية!"*

- "تبدو لي كحكاية خرافية.."

- "أين الخرافة بالضبط؟ هزيمة الشيطان أم عذرية الفتاة؟"

قالت ذلك تاركة الشيء الذي تتلاعب به يتدلى مجددًا، فأظهر توترًا حين لاح صليبا فضيا بديع الصنع..

- «لا أعلم، لربما القرن الخارج من جبهة جواد!»

تبسمت لطرافة ما قاله.. ثم تنبهت لعينيه..

تساءلت متلاعبة بصليبها:

- «ماذا؟ أتكره هذه؟"

- «أكره الرموز الدينية بشكل عام..»

أرجحت برأسها متصنعة التفهم، ثم همست بشيء من نفور:

- «تلك وظيفتي..»



- «الرموز الدينية؟»

- «اللوحات! أرسم لوحات من مختلف أنواع الفنون للراغبين من أصحاب الشقق، لحسن حظي أنني الموهوبة الوحيدة هنا بالرسم..“

- «لستِ كذلك، هنالك السيدة (كاترينيت) من شقة رقم (١٩)..»

أطلقت ضحكة تبدت بذيئة لأذنيه، وبعقيرة منفرة كذلك هتفت:

- «أزعمت تلك المشعوذة ذلك أمامك؟ النصابة المخرفة! لقد رسمتُ لوحتها أنا بناءً على طلب منها! ثم أضافت هي - وبأسلوب الهواة- ملامح وجه تصعب رؤيته للوحة في مركز الرأس، وبذلك التشويه الأرعن والمشين زعمت للكل أنها الرسامة المبدعة، هي تصنع ذلك طيلة الوقت أمام ضيوفها، تتشدق بالفن السريالي وكيفية اختلافه عن التشكيلي ومثل تلك الترهات أثناء تقديمها شايها النتن، وحتى زوجها المغفل يؤيد مزاعمها رغم معرفته بالحقيقة، اللعينة.. حتى وهي بتلك السن لا تزال تكذب كطفلة شقية!“

وصل كوب الماء في تلك اللحظة، لكن (عِشقة) لم تقدمه للضيف، بل تسمرت متأملة وقفتهما أمام اللوحة كما لو كانت قد أثارت ريبتها، ثم تبسمت بخبث متفهم، قبيل وضعها الكوب على المنضدة والانسحاب بروية للمطبخ..



لهنيهـة، ارتج المكان بقوة ضئيلة، تذبذبـت أوصاله وأركانه لدرجة ملحوظـة، وحدق (عمـاد) في كوب المـاء الذي تذبذب بـدوره نتيجة لذلك الزلزال المؤقت!

لكـن (أيّـار) تجاهلت ما وقع، متسـائلة حتى قبيل انتهـاء تلك الهزة العابرة والمؤرقة:

- «كيف وصلتَ إلى هنا؟»

- «لشقتكما؟ عن طريق التسلسل بالطبع..»

- «قصدتُ الكيفية التي وصلت من خلالها للبناية..“

- «إنها.. حكاية طويلة!»

- «كالعـادة! أنـا هربـت مـن خالتـي المُعقـدة، و(عِشـقة) هربا من الاكتئاب!“

لم يدر كيف يرد، فاحتفظ بصمت مطبق، وهي تردف مهمومة:

- «حسبناها الجنة أول مرة، ولكن اتضح أن للجحيم أفرع كذلك!“

أخيرًا أوجد تساؤلا، فتساءل:

- «ولِمَ اعتبرتما المكان جحيما؟»

- «لا أعلم، لربما كنتُ أنا فحسب، أحيانا أحسب صديقتي (عِشقة) سـعيدة هنا، أما عني فشعور من التطويق الجاثم لا يكاد يفارقني، أشعر



بالحصار الشـديد، قد يحد الزمان والمكان من إبداع الفنان، أنا بحاجة للتجديـد في المكان للإبداع، وإلا ابتدأ شـعور الاختناق لدي، حاليا لا أمتلك سوى الأحلام!"

- «وبالطبع لا سبيل للخروج من هنا..»

- «اللهم سوى النوافذ، أنت حتما على علم بحكاياتها.."

- «أخبروني..»

- «ربمـا كانت مهربا للمجهـول، أو الموت بكل بسـاطة، أو مجرد منفذ لمكبٍ النفايات.. تصعب المجازفة!»

- «الحق معك.."

ران صمت ثقيل عليهما، قطعه أخيرًا بقوله متحرجا:

- «حسنٌ، أحسب أن عليّ تسجيل متطلباتكما قبيل ذهابي.."

- «لا بد وأن لدى (عِشقة) طن مطالب!"

- «ماذا عنكِ؟»

بدت مترددة لثوان، حسمت بعدها أمرها وهي تغمغم بنبرة فاترة:

- «هل عرجت على شقة رقم (٢٧)؟»

- «أجـل.. شـقة الطبيب (جوزيـف)، طريف أنه يمتلك ذات اسـم قاطن الشقة رقم (٦)!»



- «الأفاق المتدين؟ لا تحدثني عنه رجاءً!

بإمكانك صنع معروف لي..»

- «أي شيء..»

- «لا أعلـم كيـف أقولها، لكننا تعارفنا - (جوزيف) وأنا- في حفل راقص صاخب، ويبدو بأن لدينا مشاعر مشتركة، حقا لا أصدق حديثي هذا وأمام موظف الإحصاء هنا الذي تعرفته للتو! لكن..»

هـو كذلـك لم يرقه الأمر، فهم على الفور ما تـود قوله، وتضايق من ذلـك.. كانت تلـك الطريقة من أكثر الطرق الحديثة والبدائية سـوية في التعارف وتناقل مشـاعر الحب ذات الرومانسية المبتذلة، واسطة الخير أو الرومانسـية.. الدور الذي يلعبه سـنيد أو سـنيدة في فيلم رومانسـي رخيـص رديء، ولكم يمقت أولئك الذين يؤدونه وبمنتهى الحماسـة، كأن حياتهم معتمدة على النهاية السـعيدة المتمثلة بزواج صديق السنيد البطل من صديقة السـنيدة البطلة، كأن لا هم لهما - السـنيدة والسنيد- ولا أهـداف لديهمـا في الحياة سـوى تحقيق تلك الغاية، التي يحسـبها أربعتهم شديدة القدسية!





الجزء الحادي عشر

الجلاد وضحيته



الفصل السادس والعشرون

يدعى (جوزيف)، ويقطن وحيدًا في شقة رقم (٢٧)..

كان سيقطن أبعد لولا مهنته الهامة للغاية، فالبناية تعاني نقصا في الأطباء..

كثيرون عرضوا صداقتهم عليه، غالبيتهم من مرضاه، يتوددون إليه وأحيانا يحاولون إقناعه بالانتقال والسكنى لدى أحدهم، لطالما وجد تلك العروض أنانية وثقيلة الظل لحد لا يوصف..

ما اسم تلك الفتاة الرائعة؟

قالوا له بأنها تدعى (أيّار)، وهي وردة البناية التي لم تقطف بعد، تقطن الشقة رقم (٤٣) مع صديقتها أشواك الوردة..

الكل يحلم بها، رجالا وحتى نساء، فشعر بأن عليه أخذ رقم والانتظار هو الآخر..



لكن ظروف الحفل الراقص سهلت عليه الأمر وعجلت من وقوع ما يصبو إليه، وبأكثر السبل إثارة لمشاعر أنثى مفعمة بالحيوية مثلها، أدّبَ بقبضته الخنزير المتعرق الذي تهجم عليها، وبذات القبضة مدَّ يده إليها متسائلا:

- «أأنتِ بخير؟»

- *"لِمَ لا تتزوجها؟"*

كذا سأله (عماد) متجهما، وهو يوصل إليه سلامها وخطابا مغلقا بمظروف وردي عطره فواح.. لم يصدق الأخير أنه يسأله هكذا سؤال، كما تضايق من مهنة ساعي بريد العشاق هذه..

لكن النظرة الحالمة الشغوف في عيني طبيب البناية الشاب أشعرته بنوع من السكينة، كان صريحا وكشف عن أسباب هروبه لهنا، قصص حب لم تكلل بالنجاح، آخرها ارتباطه بممرضة قبيل اكتشافه خيانتها له مع مريض مسن متخم بالسكري وبالأموال، أدمن تناول أسبرين الأطفال ومداعبة الممرضات الحسناوات!

- «من الرجل الذي لا يفكر بالزواج؟»

- «كثيرون، ولكن لا شأن لك بهم، لحسن حظك ألا أهل لك ولها يسألون ويتحرون كأمن الدولة هنا وهناك، لن تكون هنالك عوائق ولا حتى مباركات مبتذلة، لا مطاردات ما قبل الزواج وبعده من إصرار



عجيـب لعين على مسـألة الإنجـاب وكيفيـة تربية الأطفـال لاحقا، إذا حصل زفاف فسـيكون هادئا كنسـمة الخريـف.. وعموما، فقد طرحتُ ذات التساؤل عليها..“

- «على من؟»

- «على (غطاس).. على من يعني؟ على فتاتك طبعا!“

- «وماذا كان ردها؟»

- «تحبك كأخ..»

وضحك منتشـيا لـدى رؤيته ردة فعـل الطبيب، وانتظـر هنيهة قبيل قوله مطمئنا:

- «أمازحـك يا أحمق! لديها طموح الفـن وطموح الحب، هي فتاة وسط عشرات الرجال، ورغم ذلك أوجدت وقتا للتفكير بك أنت دونا عن غيرك..»

- «يا له من حلم جميل.. بم تنصحني؟»

- «بإمكانك خسارتها كعشيقة أو كسبها كزوجة..»

- «وبأيهما ترحب هي أكثر؟»

استرد وجه (عماد) تجهمه، قبيل رده ببرودة:

- «لا تطمع!»

***



أدركا بأن عليهما التعايش سوية لحين إتمام الزفاف..

لـم يكن (عمـاد) بعيـدًا كل البعـد عنهما، فقـد حضر الخِطبـة التي اقتصرت عليه وعلى (عِشـقة)، والثنائي (قاقم) و(كاترينيت) رغم تردد (أيّار) بدعوتهما، لكنه أقنعها بحتمية حضور عددٍ أكبر من المدعوين..

أتـت المرأة المسـنة حاملة مع زوجها عددًا مـن الصناديق الخفيفة، فتحاهـا أمـام أنظار الجميـع، فتبـدت أوان زجاجيـة، وأطبـاق خزفية، جاطـات وزبديـة وبعـض الأباريـق والممالـح، وطقـم فناجيـن شـاي وقهوة..

- «هديتنا للعرسان!»

بدا ذلك أكثر من كافٍ لغسل ندوب الماضي بين (أيّار) و(كاترينيت)، إذ قبلتها الأولى بحرارة على وجنتيها القاحلتين، فشـعر (عماد) بالرضا أكثر من ذي قبل.. يبدو وأن وظيفة السنيد ليست سيئة للدرجة التي كان يحسبها!

كان يخرج لتدوين بعض من ملاحظاته ومسوداته بخصوص سكان الشـقق، يتنزه مستكشـفا حدود المكان، وأحيانا يعرج على (قاقم) كي يلاعبه الشـطرنج، وليشرب الشاي بالميرامية معه ومع (كاترينيت) التي تجلـس لتغزل كوفية بالتريكـو، كما تصنع الجدة الطيبـة في الحكايات الخيالية.. فلم يكن ينقصها سوى المدفأة القرميدية والكرسي الهزاز!



يـزور الطبيـب وخطيبته، فيجدهما علـى درجة متباينة مـن الحبور، (جوزيـف) يكلمه عند باب شـقته فلا يدعوه للدخول إليهـا، أما (أيّار) فتدعـوه بحماسـة للدخـول، فيرفـض بتهذيـب متعللا بالانشغال، ثم يسألها عن الأحوال..

ينتظـران هـدوء موجـة الارتجاجـات العابرة فـي أرجـاء البناية، ثم تظهر سعادتها بشفافية، فيخالجه مزيج عجيب ما بين السعادة لسعادتها والضيق التام..

أتراهـا أسـرت فـؤاده هو الآخـر؟ هي ليسـت الطـراز الـذي يبتغيه ولطالما حلم به..

لكنه سـعيد لسـعادتها، حتى وهـي تتحدث بحرارة عـن (جوزيف) النبيـل اللطيـف، لكن (عمـاد) بدأ بمعارضتها سـرًا حين لاحـظ أمورًا غريبة على (جوزيف) الجنتلمان..

بدآ التصرف بودٍ زائد، أبصر (عماد) ذلك وسكت شاعرًا بالتوجس، هي حياتهما خصوصا وأنها بدت مرحبة وهي تسـتقبله دائما، كما اعتاد (جوزيـف) زيارتهـا الدائمـة له في شـقته، ومكوثهـا فيها لليـوم التالي والثالث..

بـدا (عماد) متقبلا للأمـر بداية، ثم تذكر من أمـور الرهان حول من بإمكانـه الظفـر بعذرية العذراء الوحيدة هنا، خالجه شـعور مؤرق، ولم



يتمكـن من معرفة كنه مشـاعر الكل حين خطب طبيـب البناية الأعزب الرسـامة العذراء، وحتى لما حاول جس نبض (غطاس) لم يتمكن من الظفر بشـيء منه، إذ كان كما كان دوما، يمارس طقوس رحلاته ويأكل ويشـرب وينـام علـى الأرض بسـرواله الأخضـر، لم يثر حتى مشـكلة بخصوص ما أصاب أحد أفراد شلته في الحفلة الراقصة..

الفتاة ظلت سعيدة ومتحمسة.. في مرة صارحها (عماد) بما يؤرقه، فكفت عن مصارحته بكل شيء، وابتدأت تعامله معاملة متأففة، لدرجة أنها وصفته ذات مرة بخالتها العانس الرجعية!

كانـت تواصـل حلمهـا مع (جوزيـف)، فارسـها الحقيقـي في هذه البقعـة العجيبة تحـت الأرض، والأخير بـدا مفصلا علـى مزاجها كما تحب وترغب..

جلسـا في مرة متقاربين كعادتهما، ولدقائـق بقيا على صمتهما.. ثم نظر لها قائلا بابتسامة لطيفة:

- «أتحبينني؟»

- «سؤال سخيف.. ما رأيك؟»

- «آن لنا أن نواصل الحياة بصورتها المعتادة وإلا..»



- «وإلا ماذا؟ أخافتك الأفواه النكرة؟ أنسيت أنها كانت فكرتك أن نسكن معا؟ أتتركني بعد أن أولجتني دوامة الخبل خاصتك؟ هذا لن يكون أبدا!»

- «لِمَ لا تنصتين يا (أيّار)؟»

قاطعته بشيء من برودة:

- «لو لم تطرق بابي لما حدث شيء من هذا!»

تبسم الطبيب بمكر صامت، لم يجادلها بخصوص آخر ما قالته، فهو لم يطرق بابها بالطريقة التي تتصورها، لكنه ترك لسانها حرًا كي يُمعن فيما تفكر..

- «لربما كان القدر!»

ونظر من خلال النافذة المفتوحة بشرود، فخيل له أن تكاتفا بين غيوم شبه لائحة قد بزغ بغتة في خضم تلك العتمة المجهولة، وزاد من دهشته سماع أصوات تبدو كهطول لأمطار وبغزارة عجيبة..

- «عاصفة قادمة..»

- «لا يهم..»

***

زارها (عماد) ذات مرة بناءً على مطلب منها، حملته مع فارسها الذي أوصل الرسالة بمنتهى البرودة والصلف..



وجد باب شـقة الطبيب مفتوحة، فدخل ليجدها جالسـة على مقعد قصيـر، وأمامها قطعة صلصالية حلزونية الهيئة، تعمل عليها ببطء كأنها لم تحدد بعد الشكل الذي ستستقر تلك القطعة عليه..

تبسم بلطف قائلا:

- «أنتِ مفعمة بالمفاجآت، حسبتكِ تتقنين الرسم فحسب!"

- «احكِ لي حكاية..»

- «حكاية؟»

- «حكاية واحدة سـتكون أكثر من كافية.. مـاذا عن كيفية وصولك إلى هنا؟ سبب ابتعادك عن الجميع ونبذك لهم؟»

تمتم مداعبا إياها بكذبة بيضاء:

- «آسـف.. قوانين العمل الصارمة للبناية، يُمنع علينا مناقشـة ذلك مع العامة!»

بدت مسـتاءة.. متبرمة الشفتين.. وقالت بحدة طفولية مصدقة تماما تلك الكذبة الساذجة:

- «لستُ من العامة.. أنا صديقتك!»

- «آسف..»

- «هكذا!»



وولته ظهرها مشيحة بوجهها بأسلوب مسرحي راقه، فهي تتصرف كزوجة تحرص على معرفة كل ما يتعلق بظروف زوجها الحياتية!

لم يفهم سبب شعوره بالندم، تقدم نحوها ليأخذ بيدها الملطخة، فوارت بسمتها مفكرة كيف أن الحب كائن منفرد بذاته عن جميع الروابط الذاتية والاجتماعية، وبأنه شعور متجرد، قد لا يمتاز به الأشقاء الذين ينحدرون من عائلة واحدة ويجمعهم نسب ودم واحد، بينما يتأجج بين مجموعة من الغرباء بروابط خاصة وخالصة!

وجدت نفسها تعقد مقارنة أقلقتها بينه وبين فارسها، فانتابتها مشاعر الندم الحارقة، أتراها خانت خطيبها بطريقة التفكير العجيبة تلك؟

- «خصلة من شعرك تلطخت..»

وجه ممثلي الإيماء الذي امتاز به موظف إحصاء البناية هذا يتلاشى ببطء، وهو يداعب تلك الخصلة من شعرها متظاهرًا بتنظيفها، متبسما بنابيه البارزين بسمة باهتة وهو يرمق جيدها، إذ عمد دوما إلى إبراز ملامح وجهه كلغة معبرة بدلا من استخدام الحوار بوفرة، لكنه الآن يتكلم بلغة بكماء شاعرية تسلب لبها ببطء أخاذ..

نطق أخيرًا، فطيب خاطرها ببعض الحكايات التي لم يجد ضيرًا من سردها، استرسل في حديثه عن كلبه الراحل (جيبسي)، فوجدها ترتشف كل حرف من حديثه دون تصنع..



وحين عاد الطبيب، لم يجد سوى فتاته وقد جلست عاكفة على تشكيل كتلة صلصالية مشوهة، بسحنة مفعمة بالدموع الغزيرة..

***

قررت إسعاد فارسها الطبيب كثير التجهم هذه الأيام بشيء خاص وثمين كانت تحافظ عليه بين متاعها بحرص، علبة مخملية طلبت منه فتحها، فما إن صنع حتى شده لدى رؤية تلك الساعة الأنيقة والغالية حتما..

- «اقتنيتها رغم أنها تناسب الذكور، وأقفلت عليها في علبة قائلة لنفسي لعل وعسى.. سأمنح هذه الساعة النادرة يوما لمن يستحقني، كان شيئا خاصا بي يمنحني دافعا للحلم برجل صالح!"

رفع الساعة متأملا صناعتها الراقية بإعجاب، إذ حملت تصميما كلاسيكيا يعكس مهارة الدار الصانعة وتأثرها بإيحاء عصر المجوهرات الأوروبية في العشرينيات، تترجمه زخارف العلبة ذاتها وجوانب الساعة البيضاء ذات العقارب المصبوغة بالفولاذ الأزرق والميناء الأبيض الكامل، بحماية زجاج كريستالي سافيري لمقاومة الخدش والبلل..

تفقد جلد الساعة بوله، فوجده من التمساح المصبوغ بالسواد الذي تخللته زرقة داكنة، مع مشبك ثلاثي الطي..



شعر بغبطة لاقتناء تلك الساعة، فلثم فتاته بحرارة أسعدتها، ثم همس لها بشيء في أذنها، فأطلقت ضحكة خافتة اعتادت على إطلاقها مؤخرًا..

في الفراش، طلب منها أن تسرد عليه حكاية، فمررت أناملها ذات الأظافر الطويلة والمطلية بألوان قزحية بين خصلات شعره، ساردة عليه حكاية بالغة الشقاوة للبالغين، وأثناء سردها شرعت تقبله على أذنه مباشرة، فكأن تلك هي الإشارة المتفق عليها بينهما..

ناولها من أسفل الوسادة وردة صفراء شديدة النضر والاستقامة، اشتمتها بوله، أما عنه، فقد ضحك في سره كون البستاني أخبره أنه يحافظ على وروده عن طريق مزيج من الماء ومطحون "الفياغرا" من عند الصيدلانية، يسقيه للورود كي تظفر بتلك النضرة والاستقامة!

همس في أذنها مرارًا أنه يحبها.. هو لا يحبها حقا، بل كان هذا مطلبها منه في كل مرة يستعدان بها لخوض مياه الحب الدافئة العذبة، فكان ينفذ ما تطلبه بحذافيره، بأن يدني شفتيه من شحمة أذنها ليهمس بكلمة الحب المحرمة قبيل عضها، فترد عليه ضاحكة في كل مرة بشقاوة طفولية بأن تسحب غطاء الفراش فوقهما، وقد تمازج ارتجاج السرير مع رجرجة الجدران والبناية برمتها، أقوى من ذي قبل!

***



يوميـا، وعقب أشـهر من الخِطبـة المزعومة، تقف (أيّـار) أمام باب شـقتها الجديدة منتصبة القامة، وباسـتعانة كرسـي تقوم بإسـناد ذراعها اليمنـى عليـه لحفـظ التـوازن، ثـم تقـوم بثني ركبتهـا اليسـرى ووضع قدمها اليسـرى فوق ركبتهـا اليمنى، ثم تقوم بخفض بدنها بثني سـاقها اليمنى والضغط بيدها اليسـرى على فخذها الأيسر، محافظة على تلك الوضعيـة المرهقة لمدة ربع سـاعة على الأقل، ومن ثم تدفع بجسـدها للأعلـى مجددًا بحيث تعود سـاقها اليمنى مسـتقيمة، ومن ثم تخفضها مجددًا، وهكذا دواليك..

وبعدمـا تفرغ من تلك التمارين المرهقة، تكتفي باحتسـاء قدح كبير من الشاي الأخضر كي تملأ معدتها..

الفكرة مـن تلك التمارين هي تقوية عضـلات المؤخرة، وقد كانت خالتها العانس موقنة من أن الرجل تجذبه مؤخرة المرأة المتناسقة بأكثر مما يصنع الصدر الغامر..

كانـت خالتها تقوم بتلك التمارين في غرفة مترامية الأطراف، حيث ابتاعـت سـرير الزوجية التي تعتبره أهم قطعة أثـاث في الوجود، وحين تتمرن متأملة فراش السـرير الغالي والمطرز تطريزات فيكتورية، حيث يستقر بحشيته الوثيرة على قواعد متينة من خشب السنديان البني، وعليه وسـائد مطرزة على الطريقة الهندية القديمة، يلوح تعبير متمازج ما بين الشغف والنشوة والتألم على ملامحها، فتعاود تمارينها بحزم أكبر..



ومـن بعيـد، رمق (قاقم) ما يدور ذاهلا وقد فقـد تركيزه أثناء دخوله شـقة زوجتـه المسـنة، فاصطدم بالباب مسـقطا الحاجيـات التي جلبها أرضا بصخب، فتناثر محتواها هنا وهناك..

- «ماذا تصنع؟»

بوغت بزوجته (كاترينيت) تفتح الباب فجأة، ورمقته بنظرة سـاخطة وهو يلملم الأغراض..

- «أنا؟ لا شيء يا عزيزتي!»

- «دع ما بيدك وادخل حالا!»

فينفـذ (قاقـم) الأمر بلدغ محمر، ويدلف الشـقة منكـس الرأس من حـدة نظرات زوجتـه، التي ما إن تطمئـن لتواريه بالداخـل حتى تحدِّج (أيّار) بنظرة قاسية طويلة لا تحتاج لتأويل..

ثم تقرر أنها كذلك.. بحاجة للتأويل! فتندفع نحو الفتاة التي تتصرف كإنسـان آلي بارد، وتلطم خدها الريان بصفعة رنانة قاسـية، صارخة في وجهها بتوحش مخيف:

- «يا بنت الكلب! تصنعين أي شـيء لبلوغ غايتك، وإن كانت تلك الغاية رجلا ملكيته مسجلة باسم امرأة أخرى!"

(أيّار) متسمرة كالصنم دون إظهار أي انفعال يذكر، فتواصل العجوز المحنطة الصراخ في وجهها بجنون مذهل:



- «من بين كل الفاكهة الرجالية المتواجدة بكثرة على الشجر لم ترقكِ سوى التي بأيدي غيركِ يا ساقطة؟"

أطلقت (أيّار) ضحكة عفوية، ربما لمقارنة الرجال بالفاكهة، فرمقتها (كاترينيت) بنظرة تمازجت ما بين الدهشة والحقد، قبيل تراجعها أخيرًا والعودة إلى شقتها وزوجها الذي ينتظرها هناك متوجسا!

عاودت (أيّار) حركاتها كي تمرن جسدها، بتمارين خالتها العانس تقوم بحرق كثير من السعيرات وتحسين العضلات، ولكي تمنعه من الانهيار أرضا كدمية مصنوعة من الخرق، عندما تتقلص العضلات ألما واشمئزازًا تحت ضغوطات الزبائن تظل كذلك بسبب العجز عن الاسترخاء إثر التوتر الزائد، ناهيك عن استنفاد الطاقة..

ليلة البارحة كانت حافلة، وقد نصحها طبيبها العاشق بدرء التعابير العاطفية في سحنتها، كون ذلك يدفع الزبون إلى الانتهاء بسرعة أكبر!

كانت تشعر بألم هائل أسفل الظهر والكتف، (التطواني) بغيض الرائحة ثبتها بمرفقه الشبيه بمطرقة وهو لا يكف عن شتائمه البذيئة المنتشية، ولاحقا، غرز (قاقم) - الذي تمكن من التسلل ليلا أثناء نوم زوجته الثقيل - أنامله في لحم ظهرها وهو يلهث ككلب ظمآن..



الرأس لا بد وأن يكون متوازنا توازنا رفيقا فوق قمة العامود الفقري دون تشنجات في العنق، كذا ذكرت خالتها العانس حين كانت تجبرها على ممارسة تلكم التمارين المفيدة معها..

الرأس أثقل أعضاء الجسم وزنا، اهتمت بتلك المعلومة حين كان رأسها يتأرجح ومن ثم يتهاوى حين يتشبث بها أحدهم كالكماشة ويطوحها كما لو كانت دمية، تشعر أن رأسها سيقتلع من مكانه، ثم تشعر به ثقيلا لدرجة لا تصدق حين يفرغ الزبون منها لاهثا متعرقا راضيا..

تُطلع طبيبها العاشق على ذلك بهمس لا يكاد يسمع، فيجيب باسما أنه مجرد إجهاد عضلي لا أكثر، وبقليل من المساج على عضلات العنق سيتلاشى، تطلب منه أن يمسح عنقها بشيء من تضرع، فيأمرها بسحنة متجهمة أن تدفع الزبون إلى فعل ذلك.. تلك هي الشطارة! تدفعيهم إلى تمسيجك كما لو كانت تلك رغبتهم هم!



الفصل السابع والعشرون

خان الغرباء..

شقة من شققه..

(عماد) يجلس وحيدًا على الأريكة وقد تراوح عالمه ما بين الأرق والاكتئاب، شعر أنه حي لإبقائه معذبا تحت الضغط النفسي ولقضاء ليال نابغية طويلة معه، ساهرًا مفكرًا محدقا بخواء، ملايين البشر يبتلعون ملايين الكبسولات يوميا للخلاص منه، أما عنه فيعاني شروره دون إمكانية العثور على كبسولة واحدة لمقاومته، ولا حتى لدى الصيدلانية قاطنة الشقة رقم (٤٠)، التي تمد البستاني - ولربما الجميع- بحبوب "الفياغرا"، يحاول المقاومة بالتأقلم، وإقناع ذاته بأن الأرض تحوي من الغرائب ما قد يفوق مجاهل السماوات..



أكان (جوزيف) يسخر منه حين أعرب عن رغبته في الزواج ب(أيّار)؟ أم إن مشاعره كانت صادقة ومن ثم تغيرت لمشاعر القوادة؟

كان بحاجة لإيجاد عنصر إنساني في الطبيب الأعزب الشاب، لكنه تذكر كيفية وقوف (أيّار) أمام باب شقته وهي تمارس تمارينها السويدية كسلعة ترويجية، ذكره ذلك بالطفل الذي يمكن تعرف مشاعره من خلال طريقة لهوه بلعبته المفضلة، حين يخبئ الطفل اللعبة في صندوق فهو يخاف عليها من شقيقه..

والطبيب لم يكترث حتى لمواراة لعبته، بل وضعها نصب الأعين ولكل راغب باستئجارها مقابل أشياء وخدمات هو بغنى عنها حتما، أم إنه مجرد جشع دنيوي آخر؟

ماذا لو حملت؟ أيولدها أم يجهضها؟

الإجهاض معناه القتل، و(غطاس) قال ألا قتل هنا، بل حالات انتحار بالوثب من النوافذ - التي تستخدم كذلك كمكبات للنفايات-، فهل ستكون تلك البداية؟

لماذا يصدق (غطاس) أساسا؟ ماذا لو كانت هنالك جرائم قتل لا يدري هو عنها شيئا؟



وإذا ولـد طفـل.. مـاذا عندئـذ؟ يخرج للحياة المتسـخة هنا سـليما معافى جالبا معه البهجة والسـرور؟ لمن؟ لوالدته ولعشرات الآباء؟ لن يجدوا ضيرًا من مناداته باللقيط حين يكبر ومعايرته بوالدته للأزل!

شـعر بالإرهاق من كل تلك الخواطـر العجيبة، تمنى فرصة لإراحة بدنه ولاستعادة بعض من حيويته.. قام بتنظيف حمامه مستعيرًا مطهرات ذات روائـح قوية، ثم تناول كمية لا بأس بهـا من الطعام المعلب عديم المذاق، وكاد يهلك من فرط القيء لدى اكتشافه الثوم في بعضها..

انشـغل بتدوين بعض من خواطـره المؤرقة في أوراق مذكراته، أراد تعلم الرسـم، ولكن للأسـف الرسـامة الوحيدة هنا تحولت إلى جارية مومس لطبيب قواد!

لـو كانت هنالـك فرصة للأعمـال التطوعية لالتحق بهـا، كمدارس الأطفـال من ذوي الاحتياجـات الخاصة أو حتى دور المسـنين، كانت مخططاته متمثلة في مساعدة ومرافقة (قاقم) وزوجه (كاترينيت)، لكن رؤيتـه لقاقم وهو يخرج من شـقة الطبيب ذات ليلة وقد ارتسـمت على ثغره الجاف بسـمة انتشـاء جشـعة متحسسا سـرواله من الأسفل منحته شـعور البغـض بفائـض لا يصدق، والأسـوأ أنه زاد، حيـن لمح كذلك (كاترينيـت) نفسـها تخـرج من شـقة الطبيب، متبسـمة ذات الابتسـامة الكريهة، عابثة بشعرها الثلجي بغنج مثير للغثيان!



المشعوذة القبيحة الكاذبة بلا أسنان ذات البدن المقزز المترهل، كان يتخيلها سابقا وهي تحمل ألبوما للصور تضع فيه كل ما يفرحها ويمنحها دافعا معنويا، صورًا لأحفاد أو لأماكن سياحية، أما الآن فلا يتخيلها سوى باغية مسنة، متجردة من إنسانيتها وثيابها لتباشر وردة البناية السابقة، علها تقتنص شيئا من بقايا نضارتها كي تغذي به بدنها الطاعن!

كلهم تقريبا باتوا زبائن الطبيب وخطيبته الآن، الناظر، الشيف وزوجه المسنة، شلة (غطاس) وتحديدًا (صفصاف) الذي لا يكاد يبارح شقتهما، الأب المسيحي المسلم كونه لا يجد الأطفال على ما يبدو، الكاتبة زوجة القط، الجزار، البستاني، الخباز، طبيب الأسنان، الصيدلانية..

أما الأسوأ فهي من كانت تزعم أنها صديقة وشريكة للرسامة التي كانت عذراء يوما، وقد وجد نفسه بمواجهتها، وجها لوجه، وهي تخرج من شقة الطبيب، فلم يملك إلا أن همس بمزيج من بغض واستغراب وحتى ألم:

- «(عِشقة)؟»

رمقته بنظرة تنم عن استهزاء واستحقار دون أن ترد، كانت ثملة بنشوتها الحسية التي حققتها أخيرًا، وبنبرة تنم عن باطنها، همهمت



مطوحة بسلسلة تحمل مفتاح شقتها كما لو كانت رجلا يثق بنفسه ثقة زائدة:

- «ادخل وجرب، فهي تجربة تستحق كل انتظار!"

- «رائحة حمامك زكية!»

تجاهل حديث (غطاس) ودخوله الساكن بلا دعوة، فاسترسل الأخير وهو عاكف على قضم تفاحة حمراء بشهية مفتوحة:

- «تبدو مكتئبا..»

لم يرد.. لكن خاطرة عاجلة بزغت في ذهنه نصف الشارد: «لي صديق ميت لا يعلم أنه ميت!»

- "بل إنك كذلك.. أنت حزين ومكتئب، يمكن تفهم ذلك.. نوعا! ولكن، أبإمكانك منع نفسك من تناول اللذائذ خصوصا إذا ما توافرت أمامك؟ أكاد أسمعك وأنت تقول أجل أستطيع! أنت تسميها إرادة، وأنا أسميها باسمها الحقيقي.. مكابرة!»

ارتجت أوصال الشقة والبناية برمتها هنيهة، فتأمل (غطاس) السقف وهو يردف متجاهلا تلك الظاهرة المؤرقة:



- «أتستطيع عقب فتح باب ثلاجتك اختيار التفاحة عوضا عن الغاتوه؟ عن الآيس كريم؟ عن البسكويت؟ أوليس التفاح صحيا وباقي تلكم المشهيات الحلوة ضارة بالأسنان والبدن وتكثر من الوزن؟

الحواس كلها بحاجة للدلال، دلل نفسك كما يصنع الكل هنا، تبحث عن المثاليات حاسبا نفسك نبيا أتى برسالة، لا رسائل هنا، بل موسيقاك المفضلة التي قد تسعدك وقد تصيبك بالكآبة السوداوية، وأطعمتك التي بإمكانك تناولها بحرية، وبالطبع..»

وصمت غامزًا بجفنه الأيسر، فهمهم (عماد) بفتور:

- «الفتيات؟»

- «المخدرات!»

ولوح بمحقن استخرجه من بين أصابعه كحاو بارع..

- «أرجوك لا تمنحني صفة صديق السوء فهي مبتذلة للغاية! إذا خلعت ثيابك بالكامل ونظرت للمرآة، فستبصر كائنا بشريا كديدن البشر، متعرقا ذا سوأة يكابر بمداراتها بالزيف، أتعلم ما الفارق بين تناولك للحلوى وتناولك للجزر؟»

- «الأول يصيبني بالسكري، والثاني يقوي بصري..»

- «يا لك من أعمى بصيرة! أتظن بأنك أسديت لبدنك خدمة حين أجبرته على الجزر وتركت الحلوى؟ ماذا عن «قد»؟ لِمَ تغافلتَ عنها؟



قـد تصيبـك الحلوى بالسـكري وقـد يمنحـك الجزر الأسـطوري قوة إبصار إضافية.. المسألة ٥٠/ ٥٠ رغم كل شيء!"

- «وآخرة التفلسف؟»

- «إذا نظفـت أسـنانك بالمعجـون فقد تسـديها خدمـة، إذا تناولت الجزر فقد تسـدي بصرك خدمة، ولكن.. أحقا؟ تسـدي بدنك خدمات كما لو كان مديرك؟ رئيسـك؟ من يتحكم بمـن؟ أنت أم هو؟ أليس من المفتـرض خضوعـه لك؟ إذا كنتَ خاضعا ذليـلا لبدنك الخاص فأنت خاضع ذليل للكل إذن!»

ورمى له بالحقنة مواصلا ببرودة:

- «حين تهدأ وتتحسن حالتك الذهنية ستصير أكثر تقبلا لمجتمعنا، في رأيي أن ذلك لأنجع من علاج تنظيف الحمام بالمطهرات!"

التقط (عماد) المحقن ساهما..

ثم، وبسـرعة - أثارت ذهول (غطاس) نفسه- غرز إبرتها في أوردة ذراعـه اليمنـى.. كما لو كان ينشـد الخلاص حـالا، أو يحاول - وبكل بساطة- إخراس صاحبه الفيلسوف فحسب!

- «تبا لك ولل.. الجزر!»

***



حوافر الخيل المُحملة فرسانا وعتادًا تغوص في كثبان الرمال المحرقة لصحراء مترامية الأطراف، ذات شمس ساطعة لهيب ضوئها لا يعرف الرأفة..

جيش مدجج بالسلاح والرغبة القاسية في التدمير وسفك الدماء إرضاءً للذات قبل إرضاء قائد الجيش، الذي كان رجلا جلمودًا غزير اللحية والشعر، أوقف الجيش كله بكفٍ ارتفعت آمرة..

كان الجيش قد بلغ منطقة صخرية تبدت للجميع أكثر رحمة من الصحراء التي قطعوها، وتقدم قائد الجيش بصحبة عددٍ من فرسانه الأشداء، حتى بلغوا منطقة احتاجت منهم إلي ترك جيادهم وتسلقها، فلم يكذبوا خبرًا، صعدوا وبكل همة خلف القائد حتى أصبحوا علي قمة ممهدة بعض الشيء، تطل على الخلاء المقفر، فنظر القائد حوله بصمت مطول كأن على رأسه الطير، فاحترم الذين من حوله صمته..

ثم ارتفع صوته مهيب النبرة قائلا وهو يخلع خوذته المزخرفة ذات القرون عن رأسه:

- «إليّ بالقوس والنشاب..»

تساءل أحد الفرسان:

- «ولِمَ أيها القائد المبجل؟»



ردّ القائد ويده تمر بتمهل علي خصلات شعره الطويل الأسود المجدل:

- «لأعرف مكان المدينة التي أذنبت ووجب تطهيرها من الآثام الجسيمة!»

أتاه أحد الفرسان بقوس متين الوتر وجعبة السهام، فوضع القائد الجعبة على الأرض، ثم هتف مخاطبا فرسانه دون أن يرمقهم بنظرة حتى:

- «أعلم فيما تفكرون، العظيم (نبوذردان) حاكم «ريبلاه» قد أرسلنا لتطهير أورشليم من دنس اليهود..

إذن فهي أورشليم، هدف الحملة، المدينة المقدسة التي ثقلت من شدة وطء الفساد المستشري فيها، فلماذا التأكد إذن بدلا من المضي قدما دون إضاعة الوقت؟

أقول لكم بأن ما سيحدث حين ندخل المدينة الآثمة لتطهيرها من الدنس اليهودي سيكون الهول بأم عينه، سيُحرق النبات الضار عوضا عن اجتثاثه، سيكون الخلاص مروعا لأنه لا يقدم بلا ثمن أو تضحيات..



خيرٌ لنا أن نتحرى سبيلنا بخبر السماء، أن نعلم ما إذا كانت حملتنا مباركة السبيل، أم مجرد حملة أخرى من تلك الحملات التي ثملنا بنجاحها واكتفينا من غنائمها.."

وتناول سهما من جعبته، قائلا ويده تشير إلى نقطة ما:

- «أورشليم تقع في ذاك الاتجاه صوب الشرق، وسهمي الذي سأرميه سيتجه صوب الغرب..

فإذا كانت أورشليم مدينتنا المنشودة، تبدل سبيل سهمي واتجه إلى سبيلها!»

تبادل الفرسان نظرات التعجب فيما بينهم دون أن ينبس أحدهم بهمهمة حتى، في حين، وضع القائد سهمه في القوس، وجذب الوتر بأقصى قوته مصوبا رأس السهم باتجاه الغرب قبل أن يطلقه..

وإذ بالسهم يغير اتجاهه كأن مغناطيسا يجذبه، منطلقا صوب درب أورشليم!

وهلل الفرسان هاتفين:

- «السماء ترعانا، السماء تقدس خطانا.. أورشليم هي المدينة المنشودة!»

وهنا تناول سهما ثانيا، فتوقفوا عن التهليل وتساءلوا مندهشين:

- «ما الذي ستفعله أيها القائد المبجل؟»



- «سأرمي للمرة الثانية..»

وثانية أطلق سهمه باتجاه الغرب، لكن السهم حرّف مساره مجددًا، وسقط باتجاه سبيل..

- «أورشليم! أورشليم!»

- «عليّ التأكد للمرة الأخيرة!»

وسدد سهمه الأخير متعجبا، فلحق السهم بشقيقيه، فرفع قبضته الممسكة بالقوس، صارخا بأعلى عقيرة:

- «إلى أورشليم، فنعيد لها قداستها وطهرها!»

- «إلى أورشليم!»

هكذا، عاود الجيش العرمرم انطلاقته، ولكن بتصميم أعلى وحماسة أكبر..

ولما صار على مقربة من أسوار المدينة، انطلق هاتف مذعور منها في شوارعها وبين أزقتها ومنازلها:

- «جاءكم (نبوخذ نصر)! جاءكم لذبح رجالكم وكهولكم وأطفالكم ولسبي نسائكم!»

تحولت أورشليم إلي فزع حي عاصف بالغبار.. تراكض الجميع حاملين معهم ما خف حمله وغلا ثمنه، وراح العشرات ضحايا تدافع الأبدان ودهس الأقدام..



بدا هيكل إله إسرائيل صامتا ساكنا كأن الأخبار لم تبلغ كهنته بعد! ولم تمض بضع سويعات حتى كان الجيش قد دخل واستولى على المدينة برمتها..

واتجه موكب القائد (نبوخذ نصر) إلى حيث الهيكل المقدس، وقد بدا الرجل شامخا صارما متجاهلا لكل الأهوال التي قام بها جنده من حرائق وإعمال بالسيوف في الرقاب، ونهب لكل ما هو نفيس..

ترجل القائد وفرسانه عن جيادهم، وكان هو أول الداخلين، إذ دفع البوابة بذراعيه المفتولتين، فانفتحت على مصراعيها كاشفة عن منظر بالغ السفاهة والفجور..

كان الحاخامات في ألعن حالات سكرهم وخلاعتهم ومجونهم، وبين أحضانهم الباغيات وهن يتضاحكن، كل منهم يتشبث بخصر فتاة، وقد انتشرت موائد عامرة بعشوائية بكل ما لذ وطاب من اللحوم المشوية والمشروبات المسكرة!

وسكت فرسان (نبوخذ نصر) ذاهلين لما يرونه، أما عنه فتساءل ساخرًا:

- «أهؤلاء علماء يهود الذين درسوا الدين وعلى علم بخبر السماء ووصايا الأنبياء؟»



طار كل أثر للسكر من رؤوسهم جميعا بغتة، وحتى الفتيات كففن عن الضحك الخليع والمغازلة الصريحة..

لاح الرعب الوحشي في أبصارهم، وحوَّل (نبوخذ نصر) بصره عنهم متأملا أركان الهيكل مردفا:

- «وهل أنت الإله العظيم الذي يرتجف العالم بأسره أمامه؟

ها نحن أولاء في مدينتك وهيكلك..»

ونظر صوب الفجار مضيفا باستهزاء:

- «وما دنسه غير هؤلاء!»

وهنا، صرخ أحد فرسانه بغلظة تامة:

- «انهضوا واذعنوا يا أبناء الكلاب! فأنتم في حضرة (نبوخذ نصر) العظيم قائد الكلدانيين!»

هبوا جميعا واقفين وفرائصهم ترتعد، كانت كروشهم ضخمة ومتدلية على نحو مقزز، حتى غوانيهم تبدين مثلهم تماما!

وعن أبدان الجميع، تساقط فتات الطعام وسالت الخمرة التي تراشقوها فيما بينهم طلبا للمتعة، ما دفع (نبوخذ نصر) لأن يقول بازدراء:

- «أيتها الخنازير الضالة! حقا لا أجد فرقا بينكم وبينها..»



وهنا استرعى انتباهه شيء ما على أحد جدران الهيكل، فاتجه إلى هناك، ووقف متأملا برهة قبل أن يقول:

- «أحدهم سُفك دمه في هذا المكان المقدس، شخص ما قتل هنا!»

وأشار إلى الشيء الذي جذب انتباهه، كان سهما مكسورًا التصق رأسه المدبب بالجدار، وقد تلطخ بالدماء..

نظر (نبوخذ نصر) إلى الحاخامات، وسألهم بقسوة:

- «من الذي أريق دمه هنا؟»

ظلوا على صمتهم وترددهم، فاشتد صوته وعلا لما كرر السؤال:

- «من الذي أريق دمه هنا؟»

أخيرًا، وجد كبيرهم قليلا من الجرأة في نفسه، فردّ مجيبا بعقيرة لا تكاد تسمع من شدة خوفه:

- «كبير كهنتنا الأسبق (زكريا بن يهوياداه)..

كان يحذرنا في كل يوم وكل ساعة من عاقبة اعتداءاتنا ومروقنا وفسادنا، فقمنا بالخلاص منه لانزعاجنا من كلماته!»

- «يا للخزي! قتلتم رجلا حكيما لأنه نصحكم..

وأين نبيكم (إرمياه) الذي أرسله إلهكم إليكم؟»



- «وجد أن تحذيراته لنا تضيع في الهواء سدى دون أن تجد لها أذنا صاغية، فتركنا ورحل إلى بلاد (بنيامين)..»

- «ونبي حذركم من ذنوبكم العظيمة فصممتم آذانكم عنه..»

ثم هتف في فرسانه دون النظر إليهم كعادته:

- «أحرقوا الهيكل!»

- «الرحمة!»

- «فخير له أن يحرق بدلا من أن يقوم على قداسته أمثال هؤلاء!»

واشتعلت نار هائلة في الهيكل بعد أن استولى الفرسان على كل ما هو غال داخله، فارتعد كبير الكهنة متأملا المشهد المروع، ثم تمتم كالمأخوذ متلمسا وجهه بغير تصديق:

- «صدق (إرمياه) في كلماته، وصدق (زكريا بن يهوياداه) في تحذيراته!»

وسار حتى رمى بنفسه بين أمواج النيران الهائلة والملتفة، فلحق به كهنته حاملين على أكتافهم غوانيهم العارية، واللواتي صرخن كالممسوسات محاولات الإفلات، وفي أياديهم أدواتهم الموسيقية التي كانوا يعزفون بها يوما ألحان العبادة ابتهالا لإله إسرائيل، ثم تحولوا عنها إلى عزف ألحان ليالي المجون والفجور..

وفى الخارج، كان (نبوخذ نصر) يصرخ في رجاله:



- «اضربوا الأغلال والسلاسل في أيادي وأرجل من تبقوا على قيد الحياة، فسنأخذهم أسرى وسبايا إلى بابل العظيمة!»

وفي ساحة المدينة، وقف من تبقى على قيد الحياة من اليهود، مقيدين نادمين باكين متحسرين، لأنهم لم ينصتوا إلى أصوات الحق التي ارتفعت بينهم يوما، وعوضا عن ذلك أخمدوها بالنفي والقتل، فكانت العاقبة بالمثل!

***

مجيدو..

ذلك الوادي المبهم غرب جنين، حيث السهل الذي يشطر جبال فلسطين شرقا وغربا، والواقع أميالا عن البحر الأبيض المتوسط..

ليس هنالك في مجيدو حاليا غير الأطلال، التي تسرد حكايات تاريخية عن مدى كونها حصينة ضد الأعداء، وحيث عاش فيها أثرى الأثرياء، وأنبل النبلاء، وتعددت فيها المعابد الكنعانية..

مجيدو.. التي خرَّجَت لنا لفظة أزلية لمعاجم اللغة، وهي لفظة "آرماجيدون"، أو "هارماجيدون" إذا ما نطقتها بالعبرية، والتي تستقصد آخر معارك الزمان المذكورة في النصوص الدينية..



قيـل أن أول معركـة موثقة كانت في مجيدو، وهـي تلك التي دارت يومـا بيـن الملـك الفرعوني (تحتمـس الثالـث) والهكسـوس، معركة "قادش" أو "القدس" كما ذكرت بعض النصوص القديمة!

قيـل كذلك أن آخر معارك الزمان سـتدور كذلك في مجيدو، صراع الخير والشـر.. حيث سـينتهي ذلك الصراع أخيرًا، لتبدأ مرحلة الثواب والعقاب في الآخرة الأزلية..

وتفكـر (أداد) وهو يتمعن في أطلال مجيدو التي لا تزال قائمة: "ما هـو الخير؟ وما هو الشـر؟ ومن بالضبط سـينضم لأحد المعسـكرين؟ ولِمَ؟"

تمشـى مبعثـرًا الرمـال بقدميـن بشـريتين، متخيـلا وضـع المعركة الأخيرة التي سـتدور، هل سـتكون معركة دموية؟ أم حربا نفسـية؟ من الضحايا في تلك المعركة؟ وكيف سيتساقطون؟

الأسـئلة التـي لطالمـا أرقتـه – حيـن يظهـر علـى الأرض بصورتـه البشـرية– بزغت هنا فـي مجيدو بإلحاح صاخب، ولـم يحاول إبعادها عـن ذهنه، تمشـى معـاودًا طرحها بـلا حياء أو خـوف مـرارًا وتكرارًا، وتطلـع لبقايا المدينة التي شـهدت أولى المعارك الموثقة علها تسـعفه بإجابة تريح باله..

– «التاريخ اللعين، لِمَ يدرسونه بحق السعير؟"



لم يلتفت (أداد)، وإن بدا متضايقا لوجود شخص في عزلته المحببة إلى نفسه.. شخص شديد الوقاحة!

وأنصت مهموما لذلك الشخص وهو يردف بتهكم:

- «لن تجد سوى التاريخ المضجر، وتاريخ هؤلاء ليس مدعاة للثقة على أية حال!"

- «ماذا تصنع هنا؟»

- «جئت أطرح عليك ذات السؤال!»

التفت (أداد)، فأبصر شـابا حليق الرأس بثياب جلدية خضراء، وقد بدا أشبه بسائح أجنبي قدم لرؤية الآثار العتيقة..

كان (أداد) قد اتخذ شكل شاب من هذه الأنحاء، شاب شرقي بلحية خفيفـة، كان يحب الظهـور بمظهر أبناء البلد الـذي يزوره، على عكس غريمـه الأزلـي الـذي يظهر دائمـا بصورة سـائح أو غاز، ففـي فترة من الفتـرات ظهر متخـذًا صورة جندي، ولم يكن ذلـك ليقلق (أداد) الذي لطالما اعتبر ذلك نزوة طفولية فيه!

سأله مهموما:

- «سأطلب منك أن ترحل يا (دهار)..»

- «هذه قسوة منك!»

- «أفضل أن نؤجل خصومتنا لكي أحظى ببعض السكينة والهدوء.."



- «هنا؟»

وتصنع الاستنكار متلفتا حوله، فهمس (أداد) بنبرة مجهدة:

- «ليس اليوم!»

توقف (دهار)، وحدّج غريمه بنظرة طويلة صامتة..

ران عليهما الصمت، كان (دهار) يراقب (أداد) بحرص، في حين، واصل الأخير تأمل الأطلال ببصر شارد وذهن مشتت..

ولم يطق (دهار) ذلك الصمت، فعاود النطق بعناد:

- «ألم تكتفِ من هذه البقعة المضجرة؟»

رمق (أداد) غريمه اللدود قبيل سؤاله:

- «أضجرت بهذه السرعة من المكان الذي سيشهد النهاية؟»

- «نهاية ماذا؟ ألا زلت تصدق تلك الخرافات؟"

- «لن نعود لذلك..»

- «لماذا؟»

- «أتعلم؟ أنت لحوح لدرجة..»

- «لا تطاق؟ أعلم ذلك، ذكرتها لي حوالي ستمائة ألف مرة!"

- «إليك بمرة أخرى!»

- «وبذلك يستمر صراعنا..»



- «الذي سينتهي يوما هنا..»

- «ها قد عدت للخرافات المبتذلة!»

تنهد (أداد) بكآبة، فتبسم (دهار) متمشيا حوله وهو يدمدم:

- «ألم تفكر يوما بأنني أصنع كل هذا لأجلك؟»

- «لا تضحكني أرجوك! إن خدعة (إبليس) هذه مع (يسوع) لم تنطل عليه، فكيف بي؟»

- «اسمعني أولا.. في البداية قطعا لا، أنت عدو ينبغي ردعه، ولكن حتى سنوات الصراع الطويلة قد تحول العداوة إلى صداقة..“

- «إذن.. فأنت صديقي الآن؟»

- «أعتبرك كذلك!»

- «يا لها من كذبة صفيقة!»

- «لك مطلق الحرية في معتقداتك..»

- «حقا؟ إذا كان الأمر كما تقول فلِمَ لا تدعني وشأني؟“

- «كما لي مطلق الحرية في عدم تركك، وبخاصة حين تكون متضايقا بهذا الشكل!»

- «يا لها من صداقة لزجة!»



كان (دهار) قد استغل تلك المحاورة القصيرة للدنو أكثر، ولما بات على بعد قدم من (أداد)، واجهه بنظرة مباشرة ذات تصميم متسائلا:

- «ماذا عن إنهاء هذا الصراع إذن؟»

- «لا تضحكني..»

- «الآن وللأبد!»

- «أأنت جاد؟»

- «كل الجدية..»

حدجه (أداد) بنظرة طويلة ذات شك..

إذ كان يعلم أن صديقه المزعوم يتسلح بالكذب، كما يتسلح الجندي بمدفعه الرشـاش، ولحسن حظه أنه يمتلك المقدرة على كشف وسائله برمتها..

المشـكلة أنه وبرغم الشـك، تبين نبرة بخلاف المألوف هذه المرة، نبرة حملت نغمة صدق واهنة!

لم يُظهـر اهتمامه، بل همس بجفاء كي لا يُظهر لغريمه كثير الكذب أنه - ولأول مرة- يصدقه:

- «سيكون هذا حلما عسيرًا مع الأسف..“

- «لكنه قابل للتحقيق!»

- «ببعض التنازل.. أوليس كذلك؟»

- «من كلا الطرفين!»

وتمشى (دهار) رافعا بصره لفوق وهو يهمس:

- «أعلم أنك تشـك في صدقي هذه المرة ومعك كل الحق، لكن ما بجعبتي سيثير اهتمامك!"

- «وما بجعبتك؟»

- «رهان بسيط..»

تبسم (أداد) بتهكم مرير، وهو يقول ناظرًا لجهة الشمال:

- «دائما تبدأ الألاعيب بمثل ذلك.. رهان بسيط ومن ثم..»

- «مـن ثـم ماذا؟ السـبي البابلـي؟ الغـزوات والفتوحات وسـقوط الممالـك والإمبراطوريـات؟ الحرب العالمية الأولـى والثانية؟ دخول الصهاينة بيت المقدس والأمريكان العراق؟ طالبان والقاعدة وداعش؟ ثورات تونس ومصر وليبيا؟ ضياع سوريا؟ أنت خاسر سيء يا صديقي لأنك لا تنصت، أخبرتك أن الأمر يقع على عاتقينا معا!"

- «لإنهاء هذا الصراع؟»

- «أجل! وحين تسمع ما سأقوله ستغير رأيك.. أعدك بذلك!»

***



جلس الرجل معتدل الهندام أصلع الرأس على المقعد العريض الخشبي، مقابل غرفة الولادة في مستشفى حكومي من تلك المألوفات.. الرائحة النتنة، الإهمال الجسيم، التشخيصات البلهاء والتأخر في مراجعة حالات المرضى..

لم يبد وأن أحدًا قد تنبه له رغم مظهره اللافت للاهتمام، إذ كان يرتدي هنداما أسود ثقيلا، وقد طلا سحنته الداكنة بطلاء أبيض، مع ماكياج أسود على الجفنين والشفاه، منحه مظهر مهرج أو مشعوذ مروع من نوع ما!

تلاعبت أصابعه - التي زيّن أحدها بخاتم من الأوبال الملون- بساعة فضية ذات سلسلة، وهو يراقب بإمعان باب غرفة الولادة، لم يبد كأبٍ قلق ينتظر ولادة زوجته بالداخل، بدا هادئا، واثقا، ومخيفا.. حتى إنه ارتشف بين الفينة والفينة قهوته من قدح ضئيل، مزجها بحرص مع قشر البيض المبشور والمغلي..

العجيب حقا أن القهوة خلفت احمرارًا على شفتيه ولسانه، وقد استحالت حمرة قانية كلما تقاطرت من زاوية فمه أو على ذقنه، كما لو كان يرتشف قدحا من الدماء الطازجة!

ثم توقف عن ارتشاف قهوته الدموية وملاعبة تلك الساعة، قائلا للأحد:



- «ماذا تبغيان؟»

على يمينه، جلس (أداد) هامسا برهبة:

- «قصدناك في أمر طارئ..“

- «وكيف وجدتماني؟ لا يحق لكما معرفة مكاني أساسا..“

سمع من يهمس له بمكر على شماله:

- «استخدمت شلتي كي يُعلموني بمكانك!“

لم يلتفت الرجل المهيب، لكنه وجّه حديثه ببرودة لأداد:

- «كيف وافقت على التسكع مع هذا المتشرد؟ ظننتك أفضل من ذلك!»

ردَّ (أداد) مهموما:

- «لديه ما يود قوله، وأعتقد أنك ستجده مثيرًا للاهتمام..“

- «أحقا؟ ومنذ متى تصغي لأكاذيب هذا المختل؟“

تململ (دهار) بعض الشيء رامقا الباب المواجه لهم، ثم عاود همسه بشيء من تهكم:

- «إذن.. فأنت وبشخصك العظيم حضرت إلى هذا المستشفى الحكومي الحقير، كي تجلس قبالة هذه الغرفة التافهة منتظرًا؟“



- «إنها الأوامر، أنت تدرك ماهية الأوامر، لكنك تتلقاها من الشخص الخاطئ كالعادة.. أليس كذلك؟"

- «أنا لا أتلق أوامر من أحد! وما نوعية أوامرك هذه المرة؟ هل ستقتل المولود أم والدته؟"

- «المولود..»

تأمل (أداد) باب الغرفة بقلق، قبيل همسه:

- «يبدو أمرًا جللا، ما دمت هاهنا تنتظر!"

- «هو كذلك..»

- «ألك أن تطلعنا على السبب؟»

- «لا ضير رغم أنه لا يخصكما.. الطفل سيكون بمثابة منقذ للبشرية من داء جسيم، ولكن بما أنه سينمو ويترعرع بين أكوام النفايات في وطنه دون أمل في دراسة الطب، فقد تم إقرار وفاته قبيل بدء حياته التي ستكون بلا جدوى!"

ثم أظهر تنمرًا وهو يتساءل بغلظة:

- «والآن.. ماذا لديكما هذه المرة؟»

***



على سقف المستشفى الحكومي الرخيص، وقف الثلاثة يرمقون الطرف البعيد من العاصمة وهو يحترق ببطء كالهول..

نظر الرجل الأصلع لرفيقيه، وبهدوء تساءل:

- «أأنتما على ثقة؟ أعني بأن شروط الرهان عجيبة بحق، إذ يتوجب على (دهار) الاستعانة بسبل الخير لتحقيق مآرب الشر لديه، في حين يجب على (أداد) صنع العكس، عليه أن ينفذ الشرور سعيًا لتحقيق منافع الخير!"

- «نحن على ثقة..»

- «إذن، دعونا ننهي هذا الآن هنا.. لدي مهمة مستعجلة هناك!"

واستخرج من طيات ثيابه مفكرة صغيرة الحجم، دوَّن داخلها شيئا بقلم فضي رفيع للغاية، ثم طلب منهما التقدم للتوقيع..

تقدم (دهار) أولا، فطالع بنود الاتفاق بنظرة سريعة، ثم وقع ببسمة راضية مدمدما:

- «عسى أن تكون آخر مرة فقد ضجرنا.. أليس كذلك يا زميل؟ أتعلم ما العلاقة بين الضجر والزمن؟»

وقع (أداد) بصمت وبسحنة متجهمة.. لم يقدر على الاسترسال حتى وإن أراد، إذ أفعم نور أبيض ساطع أرجاء المكان، حتى أيقن من فقدانه لبصره تماما!





الجزء الثاني عشر

رحم الحضيض





الفصل الثامن والعشرون

ضغط (عماد) مجددًا زر جرس باب الشقة رقم (٣٣)..

تفكر بوسيلة للاحتفال بمناسبة بلوغه الرقم (٩٩) ورؤيته للمدخل حيث السلالم الحجرية المؤدية للطوابق العلوية، لربما سيعود إلى شقته للنوم أطول مدة ممكنة إذا أمكنه فعل ذلك دون أرق، فقد كان يوما شاقا بحق..

شعر أنه أفضل حالا عقب عودته من رحلته التي كان (غطاس) يحرسها، لم يعد ينظر إلى (أيّار) وهي تواصل تمارينها الخانعة المستفزة، آلية دفاعه النفسية خلقت حاجزًا متينا سرابيا جعل صورتها كشبح مقوض، عواطفه حبيسة الأدراج بشكل محكم، لا مسببات للغضب أو للسعادة أو حتى للحزن، فقط الخواء التام..



تأخر قاطن تلك الشقة العجيبة في الاستجابة، فعاود (عماد) ضغط زر الجرس، ثم تفقد دفتر ملاحظاته تسجية للوقت متنفسا تنفسا طبيعيا، في العادة كان يضغط الزر مرتين، ومن ثم يرحل للعودة لاحقا، لكن بلوغه تلك المرحلة من الشقق في الممر الطويل دفعته لخرق عادته، ضاغطا زر جرس هذا الباب تحديدًا مرة ثالثة..

كلما خرج من شقته وابتدأ رحلة طرق الأبواب - بالأحرى ضغط أزرار أجراسها-، كان لا بد وأن يمر بهذه الشقة في رحلتي الذهاب والإياب، ولم يحدث أن استجاب صاحبها مرة، شعر بالفضول وكاد يسأل (غطاس) عن قاطنها، لكنه تناسى ذلك، من كثرة ما سمع ورأى في خضم رحلات الشقق الأخرى، وأضحت لديه تلك العادة بضغط زر جرس باب الشقة رقم (٣٣) كلما خرج ومر بجانبها، يضغط دون تلقي استجابة..

لم يقابل حكاية تنسيه مأساة (أيّار) في تلك الشقق، كلها غم وهم، كان يسجل في أوراقه ما يراه من شخوص ويسمعه من تأففاتهم، ثم كفّ عن ذلك كون الأمر بحاجة لمجلدات.. شقة (٤٨) صاحبها قبيح السحنة، خرج مرتديا فستانا ورديا، وقد استخدم مكياجا ثقيلا وتضمخ بعطر خانق..

- « أريد باروكة شقراء وبعض مجلات الموضة النسائية!»



- «لِمَ ترتدي هذا الفستان؟»

- «لِمَ لا؟»

- «علـى حد علمي هنالك سـبيل واحد لارتداء الفسـتان.. وهو أن تكون أنثى!»

- «وأنـا أنثـى.. داخليـا! وأنت كذلـك.. كلنا كذلـك.. ألا تعلم أن بوسع الذكور كذلك إرضاع الصغار؟»

صمـت (عمـاد)، ووعده بـازدراء أن يدبر ما طلبـه.. ولكن وقبل أن ينسحب، ناداه الشخص – غير السوي- بنبرة متهكمة قائلا:

- «ألـم يخطر ببالك أنها الطريقة المثلى لتخفيف العبء البشـري؟ لانقراض البشرية؟ رجل مع رجل + امرأة مع امرأة = لا أطفال!"

لا.. لم يخطر..

صاحبة الشـقة رقم (٥٧) سيدة بدينة للغاية، والأسوأ هو ذقنها ذات الأشـواك كما لو كانت شخصية استعراضية في سيرك، غمزت له غمزة ذات معنـى، ووعدتـه بمتعة لا تصدق لو تدبر لهـا بعض اللحم من بدن خنزير.. من فخذه تحديدًا!

- «أريد تجربته.. أشعر أن مذاقه سيكون مختلفًا ورائعا!»

- «لكنه مُحرم..»

- «الحرام ألا أجربه.. ثم من قال لك أنني مسلمة اصلا؟"



- «كما إنه مضر للغاية..»

- «وهل أنت طبيب؟“

لا.. لستُ طبيبا..

صمت (عماد)، ووعدها كاذبًا أن يدبر لها مطلبها..

طرق باب الشقة رقم (٦٣) فلم يفتح صاحبها، بل مرر ملحوظة ورقية بخط عصبي من أسفل الباب باللغة الانجليزية تقول: ”Go to Hell“

تناول ورقة الملحوظة ليضمها إلى أوراق مفكرته..

لكن شقة (٧٩) كانت الأطرف..

حين ضغط زر الجرس، فتح الباب.. سعدان!

ليس هذا فحسب، فخلف السعدان كان هنالك حمار يقف في منتصف الشقة شبه الخاوية من الأثاث.. حمار عادي.. لكن أحدهم حاول أن يصبغه بالأبيض والأسود كي يبدو كحمار الزرد!

تسمر (عماد) متأملا الحيوانين بدهشة عارمة، كان هذا حين وكزه السعدان في خاصرته مناولا إياه ملحوظة ورقية، تناولها (عماد) مطالعا أسطرها ببصر شبه متسع:



«تحياتي.. أقطن هذه الشقة مع صديقتي عقب انتحار صاحبنا بإلقاء نفسه من النافذة، أرجو ألا يكون الجيران قد اشتكوا من شيء، خصوصا وأن صديقتي هذه لا تنهق أساسا، فقد كفت عن النهيق منذ مدة..

الأمور طيبة هنا، فالبستاني يتأكد من إيصال الموز والبرسيم إلينا بنفسه لحسن الحظ، كل ما هنالك أننا بحاجة لبعض سجائر ماجيك من المختل، كي يصير نومنا أقرب للكائنات المحنطة!

سأكون شاكرًا لو أمكنك تدبر بعضها لنا..»

كتم (عماد) بسمته بصعوبة متمعنا في مقلتي السعدان المحمرتين، إذن فهو ذكر، وصديقته -التي خضعت لعملية التجميل الفنية تلك- أنثى!

أعاد الملحوظة المُعبرة لصاحبها، قائلا بصدق وإبهامه يرتفع للأعلى:

- «سأحاول تدبر ما طلبته.. لك ولصديقتك!»

فمدَّ السعدان يده مصافحا إياه!

كان يوما شاقا بحق..

تنهد بشيء من ارتياح حين انفتح باب الشقة رقم (٣٣) أخيرًا، لكنه تسمر بغير تصديق حين استقبله ذلك الصوت..

***



بدايـة، طالته عتمة مشـكلة لهيئة شـخص ضئيل، وقـف بثبات رغم البرد المتصاعد من شقته..

كان قـد تلفع ببطانية ثقيلة، وقد رفع يده بسـماعة هاتف، وبلا كلل، كان يـردد بتلـك العقيـرة المألوفـة - التـي لطالما تمنى (عمـاد) ملاقاة صاحبها حتى من قبل اقتحامه لعالم البناية الجنوني العجيب-:

- "(١).. النافذة!"

جذبه (عماد) من تلابيبه بقسوة صارخا في وجهه:

- «أنت!»

- "(١).. النافذة!"

- "من تكون؟"

- "(١).. النافذة!"

- "انطق وإلا هشمت أنفك.. كيف جئتَ إلى هنا؟»

توقف المسـن أخيـرًا عن ترداد الرقـم، وببصر متسـع، غمغم كأنما يحادث نفسه وبغير استيعاب للسؤال:

- «جئـتُ سـيرًا على الأقدام عقب تعطل سـيارتي.. اعتدتُ السـير المعتدل لمسافات طويلة سبع مرات يوميا، وقد زاد ذلك من قدرة بدني على إنتاج المواد الطبيعية المفجرة للخثرات!»



- «أتحاول التحذلق؟ من أين جئت؟“

كانت لديه رعشة في عضلات فكيه لما أجاب:

- «جئتُ من مكان بعيد، لا وجود لشجر فيه ولا هضاب ولا جبال ولا مياه لنهر جار.. لا عجائب طبيعية من أي نوع! الوضع خارجا ليس أفضل من هنا، جرائم مروعة وحرائق شنيعة، الخير شر والشر خير، تلوح النهاية عبر تواريخ.. تواريخ معينة أبصرتها في حلم.. دونتها بطبشور أحمر قبيل وصولي لهذا المطهر.. رأيتها؟»

رمق المسن الغريب بعين الاستغراب..

أفلته مراقبا السماعة في يده، وببطء دمدم:

- «أنا موظف الإحصاء هنا.. كيف حالك أيها العجوز؟»

- «بخير كالعادة.. أنا المسئول عن بث الحرارة في هواتف البناية هنا!“

بدا (عماد) مبلبل الذهن، فلم يفق من حالته تلك إلا حين أردف العجوز مهموما:

- «المهم.. كيف حالك أنت؟“

- «في هذا العالم!»

- «لا زلت؟ يا له من انجاز!»



- «قل لي، أتحفظ أسماء الجميع هنا؟"

- «بكل تأكيد! اختبار، اختبار.. (٣) (٢) (١). (٣) (٢) (١)!"

كرر الأرقام كالإنسان الآلي بضع مرات، ثم هز السماعة التي بيده قائلا بظفر:

- «الخط مشوش قليلا، لكنه سيعمل!"

- «أتتصل بالكل كي تقلق راحتهم بهذا الشكل؟»

- «مضطر، الاتصالات عشوائية، لكنها تسليتي الوحيدة أثناء تفقد خطوط الهاتف، لماذا؟ هل اشتكى أحد؟"

- «لا، لم يشتكِ أحد!"

تنهد العجوز المخبول بارتياح، ثم تبسم بلطف متسائلا:

- «ألا تريد أن تدخل؟»

- «قطعا لا.. أتيت فقط للعروج عليك وسؤالك ما إذا كنت بحاجة لشيء، فأنا.. أنا عائد للعالم الخارجي!»

- «ولكن لا أحد يعود.. لا أحد!"

- «أحسبني الأول إذن، فقد اكتفيت من هذا الهراء.."

- «صديقك عرج عليّ..»

- «صديقي؟»



سعل الزائر الكهل سعالا مبينا، ثم قال مستخرجا منديلا طويلا من جيبه تلوث بالبصاق الجاف:

- "المختل! أكانت علاقتك به جيدة؟ يبدو وأن صداقتكما متينة، كذا فهمت من حديثه عنك، هذا شيء حسن في زمن كهذا حيث لا يوجد شخص بأمان هنا! لا يوجد أي شخص بأمان ولا وجود لأصدقاء أوفياء! لا أحد هنا يستطيع ذكر الصدق بيسر، فالصدق لا يمكن بلوغه إلا بشق الأنفس، وبكثير من المغامرة والتضحية!»

- «ألهذا جئتَ إلى هنا؟"

- «ليس لدرجة العزلة طبعا مثلما صنعتَ أنت وغيرك! العالم ليس سوى حي كبير متسع.. محكوم بشريعة الغاب وقوانينه وأعرافه، أخطر من قوانين الحي الصغير الذي عشتُ فيه يوما.. كيف سأتمكن من الحياة الطبيعية إذا ما تركته؟ ولماذا أتركه أساسا؟ ألأني لم أستطع الانسجام مع قوانينه التي ليست سوى بند صغير تافه في قوانين الحي الكبير القائمة على العنصرية والجريمة والفساد؟»

وبحسرة ترنم:

- «تراني مُقبِلا وتصد عني كأن الله لم يخلق سواكَ..

سيغنيني الذي أغناك عني فلا فقري يدوم ولا غِناكَ!»

ثم همس ببصر ذاهل:



- «رحـم اللـه أيـام ما كنـا نردد هـذا البيت ببسـاطة وتأمـل وأمل.. اليوم ترديده بات وقاحة صريحة.. ثمة تغيير مجحف في الاسـتراتيجية الإلهيـة، فالفقـر لم يكن يـدوم ولا الغنى، أما اليوم فقد بـات فقر الفقير دائما وغنى الغني بازدياد فاحش!»

وسعل بضراوة، فرمقه (عماد) بنظرة متحجرة، قائلا له:

- «ربـاه.. إنـك تسـعل دما بغـزارة من فيـك أيها العجـوز! لا بد أن تستشير طبيبا..»

- "الطبيب الوحيد هنا أمسـى قوادًا! ألم تسمع؟ ثم لا أظنها مشكلة عويصـة.. صـراع المرض أهون لدي من صراعات الشـارع والسياسـة والطوائـف برمتها.. من صراعات العالم بأسـره.. مـن صراعك الدائم أنت وصديقك أمامي!»

- «ولماذا تظن بأننا نخوض صراعا دائما وأمامك؟"

- «إذا لم يكن أمامي فمن ورائي.. أفضل ألا أشهد ذلك سواء بالسر أو بالعلـن، فاسـمح لي بإقفال البـاب مجددًا ومهاتفة الـكل، إذ لـم أعد أحتمل صراعا من أي نوع.. اللهم سوى بين خطوط الهواتف!»



الفصل التاسع والعشرون

يدعى (يوسف)، كان يقظن وحيدًا في غرفة تابعة للمستشفى..

حين كانت الأنباء تبلغ د.(يوسف) عن تواجد مريض جديد في المستشفى بلا وعي، كان يستمتع بإطلاق شهقة ذعر مصطنعة أمام الممرضة التي يهدف للفتك بقوامها بأسلوب درامي مبتذل..

- «مريض؟ وبلا وعي؟ ما الذي أتى به إلى هنا؟ يا للهول!»

وعندئذ، كانت الممرضة البلهاء تتساءل مستغربة:

- «ما الذي دهاك؟ أأنت متفاجىء حقا أم ماذا؟“

فيتبدل تعبير الاصطناع، ويزيل القناع من على وجهه قائلا لها باستهزاء:

- «قد أمارس عملي بنوع من الحماسة والترقب بهذه الطريقة!»



- «لا أعلم عما تتحدث بالضبط، هل ستتفضل بمعاينة الحالة يا دكتور؟"

- «أحب طريقتك في لفظ دكتور!»

- «هل سنعمل أم..؟»

- «من بعدك!»

نفخ الهواء بارتياح متمهلا في مشيته في ممر الشقق الطويل، مستذكرًا تلك الأيام..

كان يمضغ بأريحية قطعة بنفسجية من العلكة، هدية خاصة من صديقة خطيبته القوطية التقطها من فمها غير آبه للميكروبات! وقد دس بيديه في جيبي سترته الجلدية السوداء.. كانت يوما معطفا أبيض ناصعا، وسماعات الأذن الطبية تلاطم صدره العريض حين يتسكع في ممر المستشفى، لم يفته ترك الممرضة تتجاوزه كي يراقب -بمكر- تمايل قوامها الرشيق أمامه..

كانت أياما جميلة حقا..

الطريف أنه كان يتمتع بمراقبة قوام الممرضة وهما يتجاوزان عددًا لا بأس به من غرف الألم البشري، عشرات الغرف حيث تصاعد الأنين والنواح من غالبيتها وكانها زنازين في جوف معتقلات مروعة، لكنه لم



يُبدِ ضيقا أو تذمرًا كونه اعتاد الأمر، ومن مشية الممرضة وطريقة تحيتها لزميلاتها بمرح لاح أنها لم تكن متأثرة كذلك..

لم يكن (يوسف) مستهترًا كل الاستهتار كما توحي تصرفاته، كان طبيبا حاذقا، تمكن من الإقلاع عن التدخين -حين أدرك مضاره وتأثيراته على المقدرة الجنسية-، لكنه لم يتمكن من الإقلاع عن اختلاس النظرات لمفاتن زميلاته الطبيبات أو الممرضات أثناء العمل، إلى جانب عددٍ لا بأس به من المغامرات الطائشة معهن، غالبية تلك المغامرات وقعت في مكتبه -على سطحه تحديدًا-، وأخرى في غرفة معدات التنظيف أو على السطح أثناء المناوبات الليلية، ونادرًا على سرير من الأسرة الخالية من المرضى!

إنه لعجيب حقا أن يجمع طبيب شاب ما بين القدرة والمهارة في التشخيص وطرح الملائم للعلاج وبين الشقاوة الجامحة! والأعجب أن (يوسف) كان يستعين بمواهبه المتعددة كي يوقع بالفتيات المتمنعات حين يلاحظ أن ممانعتهن مهزوزة نوعا، كأنما ينتظرن فرصة ذهبية للظفر به عريسا جاهزًا، لكنه لم يكن مستعدًا بتاتا لتسليم نفسه وحريته على طبق من فضة لإحداهن!

كان يعتقد ألا واحدة تستحقه، ومع تساقطهن الواحدة تلو الأخرى أمام جاذبيته الخاصة اشتد يقينه ذاك..



خـذ عندك هـذه الممرضة التي كانـت تتهادى أمامـه كغزالة، طالبته بالزواج أولا ولو عرفيا، ومن ثم تنازلت له عدة مرات، وآخر مرة كانت في غرفة مكتبه.. وعلى سطح المكتب ذاته!

ظلت محتفظة بكبريائها، وعاملته بإجحاف تام رغم ما وقع ويستمر وقوعـه، لكنـه لـم يكتـرث، كان يتظاهر باحترامهـا علنا ويتهكـم عليها وعلـى كبريائهـا بالسـر، تخاطبـه برسـمية زائدة أثنـاء العمـل متظاهرة باللامبالاة، وحين يصيران لوحدهما تتحول إلى كائنة تتقاطر شـهوانية، ولربما عبارات بذيئة يطرب لسماعها دوما!

فـي تلـك الليلة التي لـم تمح عـن ذاكرته، سـألها التعـري والتمدد على سـرير خاو في غرفة خاويـة، جهزها خصيصا للقاء من نوع خاص للغاية..

صنعـت كما أراد متوقعة جنسًـا تقليديًا، ولكن حين لاحظت تواجد جهـاز نظـم اضطرابات القلب وقيامـه بتجهيزه، اعتدلت على السـرير، وتساءلت محتدة وهي تجذب الملاءة حاجبة بدنها عنه:

- «ماذا تصنع يا دكتور؟»

- «أتعلمين لِمَ يستخدم هذا الجهاز؟»

- «أتسألني وأنا ممرضة؟ يستخدم لإنعاش القلب المتوقف!»

ضحك باستهزاء، ثم لوح بكلتا قطبي الجهاز مردفا:



- «أنتِ تصدقين ترهات الأفلام والمسلسلات إذن! هذا الجهاز لا يعيد لمريض حياته على نحو درامي كما علمتنا أفلام السينما ومسلسلات التلفاز، بل هو لتنظيم اضطرابات القلب غير المنتظمة والرجفان البطيني!»

- «وما الفارق؟»

- «سأشرح لكِ يا ممرضة، ترينني أمسك بالقطبين المعدنيين أو الطارتين، بهما أضغط على صدر المريض بالمقبضين العازلين لحمايتي من الإصابة بصدمة كهربائية..»

- «ما أتيتَ بجديد!»

- «الجهاز يستخدم لإيصال التيار للقلب، وذلك بوضع الأقطاب في الجزء العلوي الأيسر من القلب، ووضع الآخر أسفل الجهة اليمنى، أما الطريقة الأخرى فهي وضع أحد الطارات في الجزء الأمامي من الجسم، والآخر في الخلف!»

- «ماذا تعني بالجزء الأمامي والخلف؟»

- «يجب أن يكون هنالك اتصال كهربائي جيد، لذا نضع «جل» يعمل على توصيل الكهرباء بسلاسة، لكن الجهاز والجل بالإمكان استخدامهما لأغراض جنسية كذلك!“



- «أنت تهذي! بل تخرف! تريد استخدام الجهاز اللعين عليّ بسبب مخيلتك المنحرفة؟»

- «أتريدين نشـوة تعادل نشـوة المخدرات وأفضل جنس حظيت به فـي حياتـك؟ ذلك المزيج الخرافي لن تستشـعريه في الحيـاة الدنيا إلا عن طريقي أنا!»

أظهرت شهوة وترددًا وهي ترد بتردد:

- «لكنها تبدو مخاطرة كبرى!»

- «لست ابن البارحة يا ممرضة، فثقي بي، ليس من مصلحتي قتلكِ، أليس كذلك؟»

***

كانت نفسية الطبيب منشطرة لجزئيتين متداخلتين..

الأولـى هـي إيمانـه المطلـق بأن علـى الرجـل إقامة علاقة مـع فتاة جميلـة تحت مسـمى وهم الحب وسـحر الغـرام والعشـق، ولو كانت تلـك الفتاة تصنع المثل معـه، أما الثاني فهو يقينه من أن الرجل يتوجب عليه الزواج وإن كان غير راض عن زوجته، واجهة مثلا، أو حتى لزيادة الدخل بلا سـعادة زوجية حقيقية، وأثناء ذلك، عليه بإقامة علاقة سـرية مع فتاة جميلة!



حين بلغ هذا المكان العجيب وقابل الناظر (التطواني)، سأله الأخير عن اسمه، فأجاب بحذر مقررًا التخلي نوعا عن اسمه القديم:

- «(جوزيف)!»

- «وما مهنتك؟"

- «طبيب..»

- «ممتاز للغاية، نحن بحاجة للأطباء هنا، ستقطن شقة قريبة وتمتلك صلاحيات لم تحلم بها خارجا.. إنك على عتبات مستقبل حافل يا بني!»

وقد كان!

خفض يده لتهبط الساعة الثمينة حتى الكرسوع، ثم تأملها من بعيد بفخر يمازجه الغرور كما لو كان يتفحص قطعة أثرية نفيسة، راقب بشغف عقاربها المصبوغة بالفولاذ الأزرق، شاعرًا بالإنجاز لنيله الفتاة الوحيدة العذراء هنا وساعتها الثمينة هذه!

أرقه الوحيد تعلق باستفحال العادة السرية لديه مذ وصل لهذا المكان، كان بإمكانه زيارة الباغية في شقة (٢٤)، كما إن (عِشقة) عرضت نفسها عليه بضع مرات، لكنه اعتبر نفسه صيادًا أريبا ذا ذائقة، فلم يقنع سوى بمراقبة (أيّار) العذراء منتظرًا اللحظة السانحة..



توقف عن التصفير حين لحظ شخصا متسترًا بالعتمة بالقرب من باب شقته، ثم توقف عن السير، وبشيء من ريبة خالطها التوجس، تساءل بعقيرة شبه مسموعة:

- «من؟»

- «أنا..»

- «أنت؟»

ونفخ الطبيب القواد الهواء من فمه بحرارة وضيق.. ما الذي أتى بهذا المعتوه وبهذه الساعة المتأخرة؟ أتراه بات زبونا هو الآخر؟

- «عُد غدًا، الفتاة منهكة..“

الفتاة منهكة..

الفتاة منهكة..

صار اسمها ”الفتاة“.. وهي منهكة!

- «هذا فعل شائن يا دكتور!»

لقد أخطأ الوغد، اختار أسوأ ضحية على الإطلاق.. اختار معها شخصا يكترث لأمرها، ويكتم غضبه بسهولة لكي ينتقم لاحقا ممن أهانها ببرودة أعصاب لا مثيل لها كالجمل..

- «أيهما خلق قبل الآخر.. الكلب أم القط؟»



- «بم تهرف؟»

- «مجرد تساؤل عابر، خاص بي على الأرجح.. أتعلم؟ لم أصارح حتى صديقا بما وقع معي، لا أحد سواك سيعلم!"

عاود الطبيب العاشق النفخ بضجر، لا بد وأن هذا الأبله ثمل، أو متخم بمخدرات شلة (غطاس)..

- «كان لدي كلب، أسميته (جيبسي)، أي الغجري.."

- «حكاية لطيفة، ماذا عن انقلاعك لشقتك والنوم فيها ككلب غجري؟"

وضحك الطبيب لتلك الجملة التي نطق بها، راقته بشدة، فدنا بثقة من غريمه الثمل - أو المدمن-، الذي واصل الحديث بهدوء:

- «كان مهددًا بسرطان الخصية.. المخلوق البائس.. رغم أنه لم يحظ بمتعة معاشرة أنثى، والأسوأ أنه كان مكروها من الكل.. والدي.. والدتي.. شقيقي الأصغر.. جدتي القبيحة.. الجيران.. الأقارب والأصحاب وأطفالهم الأبالسة.. الشرطة..

كنت أعلم ذلك تمام المعرفة، ورغم ذلك لم أصدق حين وجدته مسمما والروح لا تزال عالقة فيه، يلهث بطريقة آلمتني لدرجة البكاء.. لتلك الدرجة بلغت الكراهية.. كم تمنيت معرفة قاتله كي أنتقم له!»



كفّ الطبيب عن الضحك وإلقاء الدعابات السمجة، وتباطأت خطواته التي دنت أكثر من الزائر الواقف..

- «كان (جيبسي) راقدًا في الحديقة.. لسانه خارج حلقه وقد اسودَّ وجفَّ تماما، ذكرني بلسان (غطاس) القديم!

لكنه لم ينفق على الفور.. كان يحتضر، وكان يتوجب عليّ إراحته..

لذا، احتضنت رقبته، وبكل ما أوتيت من قوة كسرتها! أنا أعلم أنه كان يحتضر، بأنه كان يتعذب بشدة، وبأن قاتله الفعلي لم يكترث لذلك، ولكن عقب كسري لرقبته أضحيت أنا قاتله.. انتابتني أفكار مؤرقة ولجت فؤادي كالوتد المدبب، ربما لعدم نقاوته.. لم أعلم تحديدًا من أين أتت.. من الخارج؟ من الداخل؟ هكذا ظلت أفكاري، وهكذا ظل شعوري وسيستمر معي إلى قبري الحقيقي، حيث سأدفن حقيقة لا مجازًا كما صنعتُ مع العالم الخارجي اللئيم!"

- «أنت ثمل..»

فكانت الانقضاضة.. همجية، أقرب لهجمة حيوان مسعور..

وحين عضه أخيرًا، تبدت العضة دموية ومخيفة، لدرجة أن الطبيب أيقن بأن حيوانا حقيقيا قام بعضه، فالأنياب انغرست بعمق مخترقة وريده وبكل سلاسة!



شعر (عماد) بانتشاء حقيقي، مبعثرًا دماء الطبيب الذاهل هنا وهناك..

وشهق الطبيب العاشق شهقة أخيرة كالبصقة متشبثا بتلابيب مهاجمه، الذي همس في أذنه باستهزاء مراقبا أصابعه المتشبثة وهي تتراخى على نحو درامي حثيث:

- «أعلم أنني مخطيء، لكن بداخلي شيطانا لا يكف عن الضحك!"



الفصل الثلاثون

- «(١)!»

سـار – عقب قيامه بقتـل طبيب البنايـة القواد- بثبـات، رغم أمطار الأتربـة المنهمرة، ورغـم الرجرجة التـي ازدادت عنفا وضـراوة، ولما صار على مقربة من الشـقة المنشـودة، انطلق هاتف مذعور في ممرات البناية وبين شققها:

- "البناية ستنهار لا محالة!"

تحولت البناية برمتها إلي فزع حي عاصف بالغبار.. تراكض الجميع حاملين معهم ما خفّ حمله وغلا ثمنه بالنسبة إليهم، وراح العشـرات ضحايا تدافع الأبدان ودهس الأقدام..

- "(١)!"



طار أثر المخدرات من رؤوسهم جميعا بغتة، ولاح الرعب الوحشي في أبصارهم، في حين، حوَّل (عماد) بصره عنهم متأملا باب الشقة المنشودة..

- "(١)!"

وحين وجده موصدًا كديدنه مذ ولج هذه البناية لم يذعر، بالأحرى لم يبزغ الذعر على سحنته، وإن شعر به يغزو كيانه ببطء..

(التطواني) زعم أن اقتحام هذا الباب من المستحيلات، فلم يفق من شعور الذعر الذي خالجه داخليا إلا لدى تحطم الباب إثر ثلاث رفسات قوية من قدمه، وحين تحرر أخيرًا هدأت نفسيته..

- «الفضول قتل القط!»

تذكر حديث فتى الحافلة، حين أبصر شقة خاوية تماما على عروشها، اللهم إلا من بعض شموع الأطفال الملونة، مبعثرة هنا وهناك على الأرض!

***

تجاهل الزلزلة المروعة وصيحات الهلع البشرية، لكنه أنصت لكل من صرخ بأن البناية ستنهار هذ المرة، دون أدنى شك!

تجاهل الأتربة التي تناثرت كالمطر الغزير، والتشققات التي شرعت بالتمدد والتوسع كثعبان وحشي يلتهم كل شيء في سبيله..



تجاهل ذلك كله، وانثنى متشبثا بحواف النافذة في الشقة رقم (١)، وتدلى باحثا عن أرضية للاستقرار، ثم قرر المجازفة عندما لم يجد..

تقبل العتمة المخيفة خارجا لما تنفس ببطء، ثم وثب كاتما شهقته، فاستغرق مسافة غير هينة قبيل بلوغه الأرض..

شعر بآلام مبرحة في ركبته، حركها قليلا فتأوه راضيا كونها رَضة وليست كسرًا، ثم عكف على تحسس أنحاء ظهره وباقي أطراف بدنه..

تلفت حوله، فأبصر وراءه جدارًا من جص ذائب، وبمواجهته سلالم خشبية قصيرة متعفنة، مؤدية سفليًا لبقعة غارقة تماما بالمياه الداكنة، كما لو كانت نهرًا جاريا..

غطس ببطء وروية، كما لو كان يعاني فراغا ومستعدًا لتجربة أي شيء، تردده لم يستغرق سوى ثوان معدودة..

وجد المياه حالكة بالداخل، وواصل السباحة دافعا جسده للأمام وقد تبدت في عينيه نظرة حائرة.. أدهشه دفء المياه، كما أدهشته لزوجتها غير المنفرة، وفي لحظة أقرب للتهور قرر الغوص داخلها..

❋ ❋ ❋

السكينة التي استشعرها دفعته لفتح عينيه عن آخرهما، وتأمل محيطه المتمازج ما بين الدفء والعتمة..



في القعر، رفع يده ليتأملها لا شعوريا، كما لو كان يبحث عن مسمار كالوتـد هنالك في راحته، فوجدها وردية ضئيلة وبضة للغاية، وأصابعه جمعـاء أصغـر حتـى من خنصـر لبالغ.. لم يجـزع أو يشـعر بالألم، بل انتابته خاطرة عجيبة، أشعرته بالامتنان لتواجد خمسة أصابع في يده..

شـعر أنه حُرٌ لدرجة التغوط بـلا خجل، ففعل تاركا فضلاته الضئيلة والسـائلة للقناة التي تصل الجنين بالمشيمة داخل الرحم، حيث تتكفل دورة الأم الدموية بكل شيء!

كانت يده حُرة لدرجة قبضها على الحبل السري، وأبصر - بشغف- أشـياء مُذهبـة تهطـل عبر وريـد الحبـل، الأكسـجين والمـواد الغذائية والوارد من دم والدته إليه..

فكر بالعودة للنوم غير المؤرق مجددًا، لولا سماعه أصواتا خارجية واضحة إلى حدٍ ما..

أصغـى بأذنيه اللتين لا يعلم ما إذا كانتا غليظتين أم لا حاليا، فسـمع صوتا ذكوريا صارما يتردد خارج جدران الرحم:

- «سنسميه (إدريس)!»

ثم صوتا أنثويا مُعترضا:

- «لِمَ تصر على هذا الاسم؟ هو ليس اسم والدك حتى!»

- «أنا حر!»



- «دعنا نتفق أرجوك.. ما قولك باسم (عماد)؟"

- «(عماد)؟»

- «جميل وجذاب.. ألا ترى ذلك معي؟»

- «هو كذلك فعلا.. لا بأس، أوافق عليه، شريطة أن يكون اسم مولودنا التالي (إدريس)، دون مجادلات عقيمة ونقاشات زائدة.."

- «لكَ ذلك.."

لم يأبه لذلك الحوار كثيرًا، خصوصا وأن تلك "الأسماء" لا معنى لها لديه، فقرر أخذ غفوة قصيرة..

ثم أفاق، ليبصر - مذعورًا- النور يتضح حيث منتهى بصره.. شق ضئيل لم يلبث أن بدأ يتسع بالطول، مُضفيا مزيدًا من النور في الأرجاء المعتمة، مع أصوات تأوهات أنثوية منفرة من العالم الخارجي..

ازداد ذعره وهو ينصت إلى تلك التأوهات المتألمة التي تحولت إلى صرخات جنونية، وشعر ببدنه الدافئ اللزج ينزلق إلى حيث مساحات البرد الخارجي مع سماع عشرات الأدعية الدينية المبتهجة، أفعم نور أبيض ساطع أرجاء المكان حتى أيقن من فقدانه لبصره تماما..

فلم يحتمل أكثر..



عاد متشـبثا إلى حيث ما زال مجرد جنين في رحم أمِّه، وقبض على الحبل السري بأنامل واهنة، حتى تأكد من التفافه حولَ عنقه بضع مرات كحبل المشنقة..

ولم يشعر بالارتياح إلا لدى بدء شعور الاختناق..





فهرس





قداس الأوهام

في يوم ماطر خرج فيه لابتياع علبة سجائر، أوقفه شرطي مرور أمره بإبراز رخصة قيادته، وقد لاحظ ارتباكه وهو يبحث عنها في صندوق "تابلوه" السيارة، فاستخرج دفتر مخالفاته ملقما قلمه سن الحبر الأزرق بتأهب..

هو بحاجة للابتعاد عن مثل تلك النوعية من الأشخاص المتعنتين، يؤدون واجبهم، دائما ما يؤدون واجبهم وبمنتهى الحماسة حين ينتمون لتلك النوعية من الوظائف الحكومية المقبضة.. رجل القانون اللئيم.. لو كان نجارًا أو خبازًا يقدم خدمة إنتاجية بحق لما أدى واجبه بذات الحماسة..

إذا كان للمدن مسمى واحد فقط فهو الاختبار، المدن سلسلة متواصلة من اختبارات القدرة على التأقلم والتحمل، لذا، عليه بالهرب السريع إلى حيث الطبيعة هي سيدة الموقف..





